

أَحْسَنُ تَفْسِيرٍ لِلْقُرْآنِ بِفَيْضٍ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ

مَجَالِسُ الْمَلِكِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

الجزء السابع

سُورَةُ الْبَقَرَةِ (٢٩-٣٤)

المرجع الديني للمسلمين

الشيخ صالح آل صالح

أساذالفه والاهصول والنفسير والاهملق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله الذي جعل آياته قريبة من الناس عقلاً وحساً بالقرآن فتنفذ إلى قلوبهم ويملاً ضياؤها جوارحهم، وإذ جعل الله الحياة الدنيا دار إمتحان وإختبار وإبتلاء فانه سبحانه لم يخل بين الإنسان وبين وجوه الإبتلاء فيها، بل رزقه سلاح العقل وجعل القرآن ينير له دروب الحياة ، وإماماً يهديه إلى سبل الرشاد ، والسلامة من أسباب الغواية والضلالة.

ومن الآيات إنعدام الموانع بين الناس والقرآن، فأياته قريبة من كل إنسان وليس من حصر لمصاديق وأسباب هذا القرب، ومن اللطف الإلهي بالناس وجوب تلاوة المسلمين لآيات القرآن في الصلاة اليومية ، ومنها القراءة الجهرية في أطراف النهار والليل . قال تعالى ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنْ اللَّيْلِ﴾^(١) لتكون مضامينها دعوة للتفكير في الخلق والتدبر بيدع صنع الله.

ومن آيات القرآن ما تحكي قصة خلق آدم وهو أبو البشر، ولولا هذه الآيات وما ورد مثلها في الكتب السماوية السابقة لجهل الإنسان أصل بداية خلقه، ولتعددت الأقوال والأساطير، وتضمن بعضها الكفر والجحود والإستكبار والغرور.

ويدل قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾^(٢)، الذي يبدأ

(١) سورة هود ١١٤.

(٢) سورة البقرة ٢٩.

﴿٤﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

به هذا الجزء على حاجة الناس لرحمة الله إبتداء وإستدامة، وقد يحتاج الإنسان تهيئة مقدمات حاجته ولكنه ليس من عمومات مقدمة الواجب واجب، فيعتني الإنسان بما سخر الله عز وجل من خزائن الأرض، ويحافظ عليها فمثلاً قد يقوم بزراعة بعض النباتات التي لا تطلب بذاتها بالأصل ولكنها تصلح التربة لزراعة المأكول من القمح والشعير، أو يقوم بإنشاء السدود، وبذل الأموال والجهود للمحافظة على الموارد المائية التي يجب أن تقترن بالشكر لله عز وجل الذي يتجلى الفعلي منه بالتقوى وأداء الفرائض ، قال تعالى ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾^(١).

وجاءت الثانية من هذا الجزء من التفسير وهو الجزء السابع بإخبار الله للملائكة بجعل آدم خليفة في الأرض ، يسخر له الله عز وجل الأشياء، ليعمرها بالعبادة والذكر، واحتجاج الملائكة عليه بالبينه التي تكون قاصرة ومتخلفة عن علم الله عز وجل والبرهان الحاضر الذي أظهره لهم بتعليم آدم الأسماء، وما يدل عليه من إرتقاء الإنسان في المعارف الإلهية كفرع لنفخ الله عز وجل فيه من روحه وإتحاذ المعرفة والعلوم الوهية والكسبية لدفع الفساد ومقدماته.

وأخبرت الآيات عن فضل الله على آدم وحواء بالمكث في الجنة ولو لأن ما، وفيه بيان لإغواء إبليس لهما في قصة تؤكد خلق الله تعالى لآدم وحواء من غير أن يكونا في رحم امرأة أو زجاجة بل بمشيئته وإرادته تعالى ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٢).

وتبين الآيات بداية وجود الإنسان في الأرض وهو فرع وجوده في

(١) سورة العنكبوت ١١.

(٢) سورة يس ٨٢.

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿٥﴾

السماء، فليس من خلق في الأرض انما كان التناسل والتكاثر لان أبوي البشر خلقا في الجنة ، وهو نوع تفضيل وإكرام لبني آدم، وبدأ هذا التفضيل قبل أن يخلق آدم بآلاف السنين بتهيئة ما في الأرض للناس رحمة وفضلاً من الله سبحانه ، قال تعالى ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْمَوْنَاهُ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾^(١).

ولم يحتج الملائكة على خلق آدم أو على خلافته في الأرض، بل كان احتجاجهم على جعل ووجود المفسدين في الأرض مما يدل على خروج آدم والأنبياء والصالحين والمسلمين جميعاً بالتخصص من موضوع احتجاج الملائكة، ويمكن إستقراء مسألة من قول الملائكة ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾^(٢)، أن الخلافة لا تشمل الكفار والمفسدين، وأن الملائكة أرادوا الأرض خالصة للخليفة والمؤمنين الذين يذكرون الله ويؤدون الفرائض والعبادات، ويدل عليه الثناء الواردة على المسلمين في القرآن، ومنه قوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٣).

(١) سورة البقرة ٢٩.

(٢) الآية ٣٠.

(٣) سورة آل عمران ١١٠.

قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ الآية ٢٩.

الإعراب واللغة

(هو الذي خلق لكم)

هو: ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ .

الذي: اسم موصول في محل رفع خبر، خلق: فعل ماض مبني على الفتح، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو، عائد إلى الله تعالى، لكم: جار ومجرور متعلقان بخلق.

ما: اسم موصول مبني على السكون في محل نصب مفعول به، في الأرض : جار ومجرور .

جميعاً: حال للمفعول به، وقيل هو توكيد له.

(ثم استوى) ثم: حرف عطف يفيد الترتيب مع التراخي، استوى: فعل ماض معطوف على خلق، إلى السماء: جار ومجرور متعلقان باستوى.

(فسواهن سبع سماوات) الفاء: حرف عطف، سوى فعل ماض مبني على الفتح المقدر على الألف، الفاعل ضمير مستتر تقديره هو.

الهاء: ضمير متصل في محل نصب مفعول به.

سبع سماوات: سبع حال منصوب، وقيل بدل من الضمير في سواهن، سماوات: مضاف إليه.

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿٧﴾

(وهو بكل شيء عليم) الواو: إستثنائية، هو: مبتدأ، بكل شيء: جار ومجرور متعلقان بعليم، عليم: خبر هو.

من أسماء الله تعالى (الخالق) وهو المقدر لما يوجد، وكل ما يخرج من العدم إلى الوجود محتاج إلى تقدير الله تعالى وإيجاده، والخلق هو التقدير والجمع والضم والإختراع.

وإستوى: قصد وعمد.

والسماوات: جمع سماء يذكر ويؤنث، (وعن ابن الأنباري أن التذكير قليل)

وتدل معاني السماء على الإرتفاع والعلو والسمو، وقال نفر من اللغويين: أن سقف البيت يطلق عليه اسم سماء، والأنسب أن يقال له سماء البيت، (وبه أي التقييد قال ابن الإعرابي).

في سياق الآيات

يعد موضوع هذه الآية والخطاب فيها عام ويتعلق بالإرادة التكوينية فترى الآيات في سياقها متعددة الوجوه بتنسيق ونظم بديع يطرد السأم عن النفوس ولتأخذ كل طائفة ما ينفعها وما تحتاج إليه سواء كان الخطاب متوجهاً إليها أو إلى غيرها أي أن النفع عام سواء كان بالمنطوق أو بالمفهوم أو بهما معاً.

وبعد أن جاء موضوع الآية السابقة متعلقاً بالنعيم الإلهية على الإنسان في نفسه وقوامه وحاجته حياً وميتاً وإبتداءً وإستدامة لرحمة وفضل الله تعالى جاءت هذه الآية لبيان الإرادة التكوينية وبديع صنعه.

وبين هذه الآية والآية السابقة عموم وخصوص من وجه، فمادة الإلتقاء الإخبار والإحتجاج بعالم الخلق والتكوين، ومادة الإفتراق أن الآية السابقة تتحدث عن خلق الإنسان وبعثه بعد الموت، وهذه الآية عن خلق السماء والأرض وما سخر الله للإنسان.

﴿٨﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

وإذ جاءت الآية السابقة بذكر النعم الإلهية على الناس في العوالم الطولية مما قبل الحياة وبعدها، والعالم الآخر، جاءت هذه الآية لبيان النعم الإلهية عليهم في الأرض والسماء.

ويمكن أن نسمي النعم في الآية السابقة بالنعم الذاتية.

والنعم في هذه الآية بالنعم الغيرية.

لتجتمع كلها في نفع الإنسان وتكون مقدمة وعوناً له في العبادة.

والصلة بين هذه الآية والآية التالية من وجوه:

الأول: بيان قانون ثابت وهو أن الله عز وجل هيئ للناس رزقهم قبل أن يعمروا الأرض.

الثاني: من خصائص خليفة الله في الأرض أن يهيئ الله تعالى له النعم الأرضية والسمائية.

الثالث: جاء ذكر تسخير ما في الأرض للإنسان للتذكير بوجوب قيامه بشكر الله تعالى على تلك النعم.

إعجاز الآية

الخلق والنعم المسخرة لبني آدم ، ليست للمؤمنين فقط فمن إعجاز الآية لغة العموم في الرزق الإلهي والنعم السماوية لتصيب الناس جميعاً، وهي ذات شعبتين:

الأولى: توبيخ وحجة على الكفار.

الثانية: الجزاء العاجل والرحمة للمؤمنين ، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾^(١).

وفي الآية تأكيد لإنعدام الشريك في الخلق، ولوم للكفار يتخاذم

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿٩﴾

الأنداد لله، وفي الآية دعوة للتدبر في منافع الآيات الكونية وعدم الإفتتان بها وقد ظل قوم بعبادة الشمس، وآخرون عبدوا القمر فجاءت هذه الآية لتؤكد أن الكائنات جميعاً من خلق الله.

ويمكن تسمية هذه الآية الكريمة بآية (فسَوَاهُنْ) ولم يرد هذا اللفظ في القرآن إلا في هذه الآية.

الآية سلاح

الآية بشارة ورحمة وإخبار عن توالي النعم الإلهية ومناسبة للشكر والثناء والإنخراط في مسالك العبادة، فالنعم والإفاضات وتسخير جنس الحيوان والنبات والمعدن وغيرها للإنسان إنما هي عون له على العبادة، وحجة ودعوة للهداية.

جاءت هذه الآية بموضوع عام بعد خطاب خاص إذ تتضمن الآية السابقة ذم الكفار وجحودهم للنعم الإلهية، وجاءت هذه الآية بالخطاب والإخبار عن الرزق الواسع الكريم، وبحسب قاعدة اللف والنشر البلاغية فإن الآية مدح وثناء على المسلمين لأنهم آمنوا بالله تعالى، وأقروا بالنعم التي تفضل بها على الناس جميعاً.

وتدعو الآية إلى الخشية من الله تعالى سبحانه عليهم بكل شئ ومن علمه تعالى أن المؤمنين يشكرون الله على النعم ويتخذونها وسيلة لعمارة الأرض بالعبادة، وهو سبحانه يمهّل الكفار في الحياة الدنيا ليكون مصيرهم إلى النار.

لقد أراد الله عز وجل للإنسان الإستغناء عن الحاجة لغيره سبحانه، لينقطعوا إلى عبادته، وليعلموا أنه ليس من أحد له الفضل على بني آدم إلا الله تعالى، فهو خالقهم ورازقهم وحافظهم.

ومن الآيات أن جاء خلق ما في الأرض للإنسان قبل أن

﴿١٠﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع
تسوى السماوات إلى سبع، وفيه إكرام إضافي للإنسان وبيان لمنزلته بين
الخلائق.

مفهوم الآية

من أسماء الله تعالى اللطيف فهو الذي يقرب عباده إلى الطاعة
ويهديهم إليها ويجب إليهم الإيمان وهذه الآية من اللطف الإلهي سواء بما
فيها من صيغة الخطاب العام الإستغراقي الشامل لجميع الناس أو في ذكر
عظيم مخلوقاته أو تفضله بتسخيرها للناس.

ومن مفاهيم الآية التوكيد على تعاهد الله سبحانه للخلائق وتهيئة
أسباب الحياة وإستدامتها بأفضل حال فإنه سبحانه خلق الإنسان بأحسن
هيئة وصورة، وقيض له مستلزمات الحياة الكريمة والسعادة في الدنيا.

والآية وعد ووعد لما فيها من إحاطة الله سبحانه علماً بكل شيء،
ومن الوعد الإخبار عن علمه سبحانه بإيمان المسلمين، ومن الوعد
إحاطته علماً بجحود الكافرين ومحاربتهم للإسلام وإختيارهم طرق
الضلالة ونقضهم للمواثيق وإفسادهم في الأرض.

ومن فضل الله تعالى أن يعدد نعمه على بني آدم ويلفت أنظارهم إلى
أفرادها مما لا يقدر عليه إلا الله، لتبين لهم حاجتهم إلى تلك النعم
وعجزهم عن الحياة بدونها، وهذا البيان مقدمة لإدراك وجوب عبادته
تعالى والإمثال لأوامره، شكراً له سبحانه وخوفاً منه ورجاء لرحمته
ونيل المزيد من النعم، قال تعالى ﴿وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾^(١).

وتنوع الآية من عبادة الأنداد من وجوه:

الأول: كل شيء في الوجود مخلوق تفضل بخلقه الله تعالى.

الثاني: هذه الموجودات العظيمة مسخرة للإنسان بدليل قوله تعالى

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿١١﴾

﴿خلق لكم﴾ فهي مصيرة لجنس الإنسان على تعاقب أجياله.

الثالث: عظيم قدرة الله تعالى وبديع صنعه برهان في لزوم عبادته سبحانه.

ولم تقل الآية (على الأرض) بل قالت (في الأرض) وتفيد (في) الظرفية، وفيها إخبار عن كنوز الأرض وما في باطنها من النعم والمعادن، ودعوة للتقريب والبحث عنها.

وجاءت الآية بسور الجمع والشمول (جميعاً) للتوكيد ومنع نسبة الخلق لغير الله تعالى أو الإعتماد على الأسباب وحدها، لأن الخلق قد يكون في ظاهره أحياناً وفق قوانين الأسباب والمسببات، والعلة والمعلول. وفي الآية تحذير من الجحود والكفر لأن الله عز وجل عليم بكل شيء، وكل الأشياء حاضرة عنده ما دق منها وما كبر، والخلق أمانة على علم الخالق بمخلوقاته.

وفي الآية مسائل:

الأولى: الثناء على الله تعالى.

الثانية: بيان خلق الله عز وجل الأرض وما فيها.

الثالثة: خلق الله عز وجل للسموات وجعلها سبع سماوات بعضها فوق بعض.

الرابعة: إحاطة الله علماً بكل شيء.

الآية لطف

تتضمن الآية دعوة الناس للتدبر في خلق السماوات والأرض وما فيهما من الدلائل على وجود الصانع، ووجوب عبادته وطاعته، وتمنع الآية من الشرك بالله تعالى في عالم الخلق، فمتى ما أدرك الإنسان أن كل شيء في الوجود هو من خلق الله فإن أسباب الشرك تكون معدومة عنده.

﴿١٢﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

ومن فضل الله على الناس أن ينزل هذه الآية لإقامة الحجة عليهم ودعوتهم للإيمان بالبرهان الواقعي الملموس.
إن خلق السماوات والأرض أمر عظيم لا يقدر عليه غير الله، فجاءت الآية لزجر الكفار عن الكفر ودعوتهم للإيمان بالإخبار عن قانون العلة والمعلول في الكائنات، وإنها ترجع جميعاً في وجودها إلى مشيئة الله تعالى.

إفادات الآية

تبعت الآية على حب الله تعالى ، ورسوخ حبه في نفوس العباد، فكل شيء منه تعالى فلا شيء عند العبد إلا الحب والعشق للقائه تعالى، والفناء في طاعته والإمتثال لأوامره، فالآية السابقة أخبرت عن خلقه تعالى للإنسان.

وجاءت هذه الآية لتخبر بأن الله عز وجل لم يخلق الإنسان ويجعله في حاجة إلى غيره تعالى ، ولم تكن حاجة الإنسان معلقة على أوانها أو مقيدة بشرط العبادة بل جعل الله قضاءها سابقاً لخلق الإنسان، وهيء له أسباب النعم قبل أن يخلق، وفيه دعوة للشكر والثناء على الله عز وجل، قال تعالى ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾^(١).

الصلة بين أول وآخر الآية

بعد أن جاءت الآية الحادية والعشرون في خلق الله للناس جميعاً، ولزوم عبادة الله تعالى جاءت هذه الآية بالإخبار عن خلق الله تعالى لما في الأرض، لتكون الآيتان مجتمعتين شاهداً على إكرام الله تعالى للإنسان وانه سبحانه لم يخلقه ويتركه يواجه مشاق الحياة الدنيا، بل سخر له ما

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿١٣﴾

يحتاجه وهذا التسخير مقدمة للعبادة، وحجة على الانسان في لزوم عبادة الله تعالى، لتكون العبادة بالنسبة للخلق كالمعلول الذي لا يتخلف عن علته.

وبدأت الآية بالضمير (هو) الذي يعود إلى الله تعالى، وفيه تأكيد على لزوم إستحضار الناس للنعم الإلهية، والتدبر في عظمتها وكثرتها وأنها من اللامتناهي الذي يعجز الناس عن إحصائه، ثم أخبرت الآية عن تفضل الله تعالى بتسوية السماء، وتدبير شؤونها، قال تعالى ﴿ثُمَّ اسْتَوَى﴾.

وتفيد (ثم) الترتيب والتراخي، مما يدل على أن الله عز وجل خلق ما في الأرض للإنسان ثم سوى أمور السماء، وفيه إكرام إضافي للإنسان بلحاظ أن آدم خلق في الجنة، مما يدل على أن الله تعالى هيئ للإنسان ما يحتاجه في الأرض قبل أن يخلق آدم، فقوله تعالى في الآية السابقة ﴿كُنْتُمْ أََمْوَاتًا﴾ يدل على أن الله تعالى يكرم الناس أحياءً وأمواتاً، وفيه بشارة نيل رحمة الله تعالى بعد الموت.

وإذ ذكرت الآية خلق كل ما في الأرض للناس، فهل خلق الله تعالى السموات من أجل الناس فيه وجوه:

الأول: لم يخلق الله تعالى السماوات للإنسان وحده.

الثاني: ينتفع الانسان من السماء على نحو الموجبة الجزئية.

الثالث: خلق الله تعالى السماوات للناس كما خلق الأرض.

والصحيح هو الأول والثاني، فإن الإنسان ينتفع من السماء، وتلك المنافع ظاهرة للحواس وخلق السموات أعم من حاجة الإنسان، وهي

﴿١٤﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

مسكن الملائكة، قال تعالى ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾^(١).

ومن المنافع الأرضية ما يتعلق بالسماء وما ينزل منها، وتقدم قوله تعالى ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾^(٢)، وجاءت هذه الآية جامعة للفظ السماء بصيغة المفرد والجمع، وفيه وجهان:

الأول: خلق الله السماء قبل أن يتفضل ويجعلها سبع سماوات.

الثاني: السماء لم تكن موجودة، وذكر السماء بالاسم في قوله تعالى ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ للإخبار عن صيرورتها سماء وسقفاً مرفوعاً.

وعلى الوجه الأول يكون خلق السماء على مرتبتين:

الأولى: خلقها على نحو العموم.

الثانية: جعلها سبع سماوات.

وقد جاءت آيات عديدة بتقديم السموات على الأرض قال تعالى ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾^(٣)، وجاءت آية بتقديم الأرض، قال تعالى ﴿تَنْزِيلًا مِّنْ خَلْقِ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَا﴾^(٤).

ولم تخبر الآية محل البحث عن خلق الأرض قبل السماء، بل أخبرت عن خلق ما في الأرض للإنسان ومنفعته في أجياله المتعاقبة، وخلق الأرض بعد لما فيها من أسباب الرزق والمعاش ويتجلى هذا البيان وإبتداء

(١) سورة لقمان ٢٠.

(٢) سورة البقرة ٢٢.

(٣) سورة النحل ٣.

(٤) سورة طه ٤.

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿١٥﴾

خلق السماء وهي دخان بقوله تعالى ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ ♦ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ﴿١﴾.

إن تقديم خلق ما يحتاج إليه الإنسان على جعل السماوات سبعا، وقبل أن يخلق الله آدم عليه السلام نعمة عظيمة ورحمة بلناس وحجة عليهم ، وجاءت في المقام بصيغة التذكير المقرون باللوم للكفار على جحودهم وكفرهم، ويدل في مفهومه على التخويف والوعيد من الحساب يوم القيامة.

ومع أن الآية جاءت لتوبيخ الكفار على ما إختاروه من الجحود والعناد فإنها تبين بديع صنع الله تعالى للسماوات والأرض وإنها جميعاً من ملك الله تعالى، لذا أختتمت الآية بقوله تعالى ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ في دلالة على أنه سبحانه يتعاهد الخلائق ويمهل الكفار على جحودهم مع دوام النعم على الناس جميعاً في الدنيا.

التفسير الذاتي

إبتدأت الآية بالضمير (هو) ويعود إلى الله عز وجل، وفي تلاوة الآية والإستماع إليها نوع تعظيم لمقام الربوبية، ودعوة للإقرار بالعبودية لله عز وجل، إذ نسبت الآية السابقة الحياة والموت وعلى نحو متكرر لله عز وجل، وجاءت هذه الآية لبيان فضله على الناس في خلق السماوات والأرض، وتطرد الآية معاني الشرك من النفوس وتدعو إلى الهداية من وجوه:

الأول: إن هذه الكواكب والكائنات من خلق الله عز وجل .

﴿١٦﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

الثاني: سخر الله ما في الأرض للناس في أجيالهم المتعاقبة، فيذهب جيل ويأتي جيل والنعم تترى عليهم من عند الله، فهي كالميراث العام الذي يتصرف فيه الناس جميعاً ليتركوه لمن بعدهم من غير أن يصيبه النقصان.

الثالث: منع إفتتان الناس بالكواكب والشمس والقمر، والزجر عن عبادتها.

الرابع: دعوة الناس للشكر لله عز وجل على هذه النعم، والذي يتجلى بالإقرار بالنبوة والكتب السماوية المنزلة.

الخامس: القرآن هدى للناس، وباب للتفقه في أمور الدين والدنيا، ووسيلة سماوية للإرتقاء في المعارف، وحرب على الجهل والوثنية.

وجاءت آيات كثيرة تخبر عن خلق الله للسموات والأرض من غير تقييد بالخلق للناس الذي جاء في هذه الآية (خلق لكم) وفيه تقييد للإطلاق ونكتة عقائدية من وجوه:

الأول: حث الناس على الدعاء للإنتفاع الأمثل والأحسن من النعم التي أودعها الله الأرض.

الثاني: دعوة الناس للدعاء لإستثمار وإستخراج خزائن الأرض، ولا يقبل الدعاء إلا مع الإيمان، وقد سأل بنو إسرائيل الله عز وجل ليخرج لهم مما تنبت الأرض كما في قوله تعالى ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ ۚ﴾ ^(١)، فاستجاب لهم الله عز وجل مع أنهم تركوا الأولى ومنه المن والسلوى ﴿فَإِطِئُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ﴾ ^(٢)، مما يدل على أن الخلق المذكور في الآية لا ينحصر بالظاهر

(١) سورة البقرة ٦١ .

(٢) سورة البقرة ٦١ .

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿١٧﴾

والباطن من خزائن الأرض بل يشمل ما يوجد من العدم كالنبات والحيوان المتكثر، ليكون مصاديق من رحمة الله وشواهد على تجدد الرزق للناس.

الثالث: عدم مجئ جنس آخر غير الإنسان يستولي على خيرات الأرض والمياه ويمنع الإنسان من الوصول إليها، لأن الآية تقول ﴿خَلَقَكُمْ مَافِي الْأَرْضِ﴾ ولا ينزل الملائكة من السماء لمنافسة الإنسان في الأرض، نعم نزل آلاف من الملائكة في معركة بدر وأحد والخندق لإعانة الإنسان على الإنتفاع من كنوز الأرض، بالقتال إلى جانب المؤمنين لتبقى كلمة التوحيد صرحاً راسخاً في الأرض، ويستمر الناس في عبادة الله عز وجل فتكون العبادة موضوعاً ومادة لإستمرار الحياة في الأرض، وتوالي النعم، قال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(١).

وتبين الآية رحمة الله بالناس إذ هيئ لهم ما يحتاجون إليه في الدنيا والآخرة، وآيات الآفاق حجة على الناس، ودعوة عقلية وحسية لهم للهداية والإيمان، وإذ جعل الله عز وجل الناس يتصرفون في الأرض ويتملكون ويتوارثون فيها، ويتقاسمون خيراتها فانه سبحانه (إستوى) إلى السماء لإرادة الإستيلاء والملكية المطلقة لله في السموات، فليس من مالك ومتصرف فيها إلا الله لتكون شاهداً على ملكية الله للسموات والأرض يوم القيامة، ومصادقاً حاضراً بين الناس لقوله تعالى ﴿لَمَنْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾^(٢).

(١) سورة الذاريات ٥٦.

(٢) سورة غافر ١٦.

من غايات الآية

في الآية مسائل:

الأولى: توجيه اللوم والذم للكفار على جحودهم.

الثانية: ضرورة التدبر في أصل الخلق وإتخاذه وسيلة للإيمان ومادة للإعتبار.

الثالثة: بيان بديع قدرة الله، وعظيم سلطانه.

الرابعة: حضور الأشياء جميعها عند الله.

التفسير

قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾

الأول: بعد تفضل الله تعالى ببيان الحجة والبرهان للناس في أنفسهم وأن آية خلقهم وبعثهم توجب إلزامهم بعبادته وطاعته جاءت هذه الآية الكريمة للإحتجاج بآياته في المنافع، وفي الآفاق ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾^(١).

الثاني: إن قدرة الله تعالى تتعلق بكل المقدورات كائنة ما كانت وأنها عامة ومطلقة لتجردها عن الزمان والمكان والجهة لتساوي نسبتها إلى الإيجاد لما تتصف به من الإمكان وما يلزمه ضرورة من الحاجة إلى واجب الوجود، نعم لا يلزم من التعلق بالحدوث العام، فالله تعالى قادر على فعل الشيء وضده ولكنه منزّه عن القبيح والظلم ونحوهما.

الثالث: في الآية زجر عن عبادة غير الله فكل له مخلوق منقاد، والخلائق ماهيات متصفة بالإحتياج والحدوث وإن كان لها وجود خارجي.

معالم الإيمان / الجزء السابع _____ ﴿١٩﴾

الرابع: في الآية توبيخ للمشركين فكيف يعبدون ما خلقه الله لهم وسخره لحاجتهم نعمة منه تعالى وفضلاً على الناس وحجة.

الخامس: ورد في الخبر عن الامام علي عليه السلام في الآية: "هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً لتعتبروا به ولتوصلوا به إلى رضوانه وتتوقوا به من عذاب نيرانه، ثم استوى إلى السماء وأخذ في خلقها وإتقانها فسواهن سبع سماوات وهو بكل شيء عليم، ولعلمه بكل شيء علم المصالح فخلق شرع ما في الأرض لمصالحكم يا بني آدم).

السادس: الآية بيان للترتيب في خلق الأرض والسماء وما فيه من إعجاز ودلالات كما أن (ثم) الواردة في الآية تفيد الترتيب والتراخي، (وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله {هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات} قال: إن الله كان عرشه على الماء ولم يخلق شيئاً قبل الماء، فلما أراد أن يخلق أخرج مي الماء دخاناً، فارتفع فوق الماء، فسماء سماء، ثم أيس الماء فجعله أرضاً فتقها واحدة، ثم فتقها فجعلها سبع أرضين في يومين. في الأحد والإثنين،

فخلق الأرض على حوت وهو الذي ذكره في قوله (ن والقلم) والحوث من الماء، والماء على ظهر صفاة، والصفاة على ظهر ملك، والملك على صخرة، والصخرة في الريح، وهي الصخرة التي ذكرها لقمان؛ ليست في السماء ولا في الأرض، فتحرك الحوت فاضطرب فتزلزلت الأرض، فأرسي عليها الجبال،

فالجبال تفخر على الأرض. فذلك قوله {وجعل لها رواسي أن تميد بكم} وخلق الجبال فيها، وأقوات أهلها، وشجرها، وما ينبغي لها في يومين: في الثلاثاء، والأربعاء، وذلك قوله {أنتم لتكفرون بالذي خلق الأرض} إلى قوله {وبارك فيها} يقول: أنبت شجرها، وقدر فيها أقواتها،

﴿٢٠﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

يقول لأهلها { في أربعة أيام سواء للسائلين } يقول: من سأل فهكذا الأمر { ثم استوى إلى السماء وهي دخان } وكان ذلك الدخان من تنفس الماء حين تنفس، ثم جعلها سماء واحدة، ثم فتقها فجعلها سبع سموات في يومين : في الخميس ، والجمعة، وإنما سمي يوم الجمعة لأنه جمع فيه خلق السموات والأرض { وأوحى في كل سماء أمرها } قال: خلق في كل سماء خلقها من الملائكة، والخلق الذي فيها، من البحار، وجبال، البرد، وما لا يعلم.

ثم زين السماء الدنيا بالكواكب، فجعلها زينة وحفظاً من الشياطين، فلما فرغ من خلق ما أحب استوى على العرش^(١).

السابع: تبين الآية أن الله عز وجل لم يخلق الإنسان ويتركه سدى بل تكفل رزقه وهو نوع إكرام ، ومن عمومات قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا﴾^(٢).

بعد أن أنكر المشركون البعث والنشأة الآخرة جاءت هذه الآية بالتذكير بالشواهد الظاهرة للحواس والمدركة بالعقل والوجدان التي تدعوهم إلى الإيمان.

فمن آيات الله سبحانه أن جعل ما قبل خلق الإنسان وأثناء حياته وبعد موته آيات تدعوه للإقرار بالربوبية والإيمان، وهذه الآية جامعة ومستوعبة للمراتب الثلاث لما فيها من آيات الخلق والرزق المستديم، ودوام الحياة وتجدد وتعاقب الأجيال والأمم.

الثامن: تفتح الآية آفاقاً علمية وتبين أن الإنسان لم يوظف بعد الشطر

(١) الدر المنثور ٦١/١.

(٢) سورة الإسراء ٧٠.

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿٢١﴾

الأكبر مما سخره الله عز وجل له، فهذه الآية من أعظم النعم على الإنسان لما فيها من إطلاق للتسخير وعدم التقييد، إلا أن يرد دليل في آية قرآنية أخرى أو من السنة على التقييد والظاهر انه معدوم، وبعض أفراد الواقع الخارجي لا تصلح أن تكون حجة بمعنى أن ما يظنه الانسان اليوم خال من النفع فإنه قد يكون في الماضي أو المستقبل ذا نفع عظيم.

التاسع: من إعجاز القرآن أن الآية في مقام الإستخبار والتوخيخ ولكنها تحمل البشارات وتحت على الإنتفاع الأمثل من خزائن الأرض ومن الآيات التطبيقية والشواهد على عموم الخطاب في هذه الآية أن الناس جميعاً مؤمنين وكفاراً منتفعون من كنوز الأرض والثروات التي جعلها الله ذخيرة وزاداً ومتاعاً للإنسان.

وقد ترى الكفار هم الأكثر إنتفاعاً من هذه الثروات والنعم الدنيوية كجزء من عموم رحمته في الدنيا وليكون مصداقاً لإطلاق الخطاب في هذه الآية وإستدراجاً لهم، وحجة عليهم يوم القيامة.

العاشر: الآية دعوة لإستثمار الأرض وإحيائها والبحث والتنقيب فيها ولزوم عدم التفريط بثرواتها لأنها ملك للأجيال المتعاقبة، وقد ذكرت في تفسير سورة يوسف في قوله تعالى ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾^(١) أن الآية دعوة لتأسيس وزارة خاصة بشؤون الأرض وتنظيم الإنتفاع من كنوزها.

الحادي عشر: من الإعجاز أن الآية الكريمة جاءت بحرف (في) الذي يفيد الظرفية، ولم تأت ب(باء) السببية أو (على) التي تفيد الإستعلاء، وربما فسرت لما فوق الأرض، وتتعلق (في) بالأرض وما عليها وما فيها من الكنوز.

وفي الآية إشارة لرحمة الله تعالى بما جعل في الأرض من كنوز

(١) سورة يوسف ٥٥.

﴿٢٢﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

مستورة من الذهب والنفط والماس ونحوها التي تتحكم في هذه الأزمنة بالإقتصاد العالمي، بالإضافة إلى الزراعة كنعمة وحاجة مستديمة، وكنز عام قريب متجدد.

الثاني عشر: تبين الآية شرف الإنسان وعظيم منزلته عند الله عز وجل بما سخر الله له وأكرمه به، فلو أعان إنسان إنساناً آخر على شؤون حياته وقبض له مسكناً، وأجرى له عطاءً شهرياً، ثم قصرَ الذي يتلقى العون في الشكر على النعمة ورد الإحسان وقابله بالجحود لرأيت الناس برهم وفاجرهم يوجهون اللوم له على جحوده وتقصيره.

فكيف وأن الله عز وجل قد أنعم على الناس مجتمعين ومتفرقين نعماً نعجز عن إحصائها وعدّها ، وهي مستديمة ومنبسطة وقرية مع جحود أكثر الناس، فلا غرابة أن تستغرب الملائكة من الإنسان إرتكابه المعصية، أو انها تسأل عن إستحقاقه الخلافة مع جحوده وعدم شكره بقولهم ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾^(١).

الثالث عشر: ﴿جَمِيعًا﴾ حال وتوكيد لما سخر الله عز وجل للإنسان في الأرض لبيان لطفه وإستمرار توالي نعمه.

الرابع عشر: تطرد الآية الخوف من شبح الجوع أو نقص الغذاء، ففي كل زمان يدرك الإنسان أن نعم الأرض أعم وأكثر من حاجة الناس.

الخامس عشر: لم تتعلق الآية بالتسخير بل في أصل الخلق وأنه للإنسان.

السادس عشر: تدل الآية على أن الأصل في الأشياء الإباحة كما مبين في الفقه، وأن الحيازة والملكية الخاصة تحتاج إلى دليل.

السابع عشر: وفي جهة الخطاب وجوه:

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿٢٣﴾

الأول: إنه موجه للمؤمنين خاصة.

الثاني: موجه للمسلمين بالأصالة ولغيرهم بالعرض والتبعية.

الثالث: إرادة الناس جميعاً من الخطاب.

والصحيح هو الثالث، بقرينة الخطاب في الآية السابقة وبالقرائن الحالية ولإقامة الحجة وبيان عظيم إحسان الله سبحانه، وأنه يرزق البر والفاجر، والمؤمن والكافر، وحتى الكافر قد تدركه التوبة والإنابة.

وهذه الآية من مصاديق الحث على التوبة والدعوة إلى الهداية، وقد يخرج من ذرية الكافر من يؤمن بالله ويتبع النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم، ويمثل لأحكام الشريعة الإسلامية.

الثامن عشر: لا تدل الآية على أن الإنسان علة تامة لخلق الأرض ولكن الله عز وجل سخر النعم الأرضية له.

التاسع عشر: إثبات شئ لشيئ لا يدل على نفيه عن غيره، فاللام في قوله تعالى ﴿خَلَقَ لَكُمْ﴾ وإن وردت للإختصاص، إلا أن منافع خلق الأرض أعم من أن تنحصر بالإنسان.

وفي قوله تعالى ﴿خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾، وفيها دعوة للناس للإستفادة مما في الأرض من الموجودات والخزائن والذخائر اللامتناهية وإستظهار بركاتها.

وفيها بيان بأن الله تعالى لا يفعل لغرض وأنه غير محتاج.

(وأستدل بالآية الكريمة على حرمة أكل الطين لأنه تعالى خلق لنا ما في الأرض دون نفس الأرض)^(١)، ولكن الإستدلال بالآية الكريمة غير تام وكذلك التعليل إذ أن الخلق اعم من الاكل وغيره وإن جاء النص والإجماع على حرمة أكل الطين.

(١) مفاتيح الغيب ٢/ ١٥٤.

﴿٢٤﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

قوله تعالى ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾

ذكرت في الآية أقوال منها:

الأول: قصد السماء لتسويتها.

الثاني: استولى الله عز وجل على السماء بالقهر.

الثالث: ثم استوى أمر الله وصعد إلى السماء لأن أوامره وقضاياه تنزل من السماء إلى الأرض .

الرابع: ما روي عن ثعلب أحمد بن يحيى أنه سئل عن معنى الإستواء في صفة الله عز وجل فقال: الإستواء: الإقبال على الشيء وقال الفراء : معناه أقبل عليها.

والآية دليل على عظيم سلطان الله تعالى وقدرته وعلو شأنه وليس في منظوقها أو مفهومها ما لا يليق به من معاني الانتقال والإرتفاع بالمسافة.

وواجب الوجود منزّه عن صفات الأجسام، لأنها حادثة لا تنفك عن المكان، وانما المدح في القدرة والشأن، وأن قدرة الله تعالى أعظم من أن تحيط بها الأوهام كما ان الله لا يوصف بالعجز، وهو برهان إني للانتقال من المعلول إلى العلة والإقرار له سبحانه بالربوبية، ونبد الكفر والشرك، ليبقى مناسبة للشكر على النعم.

وتحتمل الآية وجوهاً:

الأول: جاء خلق ما في الأرض متأخراً زماناً لخلق الأرض، للتعدد والتباين بين خلق الأرض، وخلق ما فيها.

الثاني: الإتحاد بين خلق الأرض وخلق ما فيها، ليكون أول هذه الآية مصداقاً وتفسيراً لقوله تعالى ﴿قُلْ أَنتَ كُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي

يُؤْمِنُ ﴿١﴾.

الثالث: الإستواء إلى السماء بعد خلقها، لأن ظاهر الآية يدل على وجود السماء قبل أن يسويهن الله سبع سماوات.

الرابع: الاتحاد بين خلق السماء وبين جعلها سبع سماوات، أن القول بالتعدد ورجحان الوجه الأول والثالث على الظاهر دليل على آية إعجازية.

بحث فلسفي

لقد ثبت في الفلسفة أن السماء حادثة، وكل حادث مسبوق بالعدم فالسمااء خلقها الله بعد أن لم تكن أي أن إطلاق اسم السماء عليها قبل خلقها إقتضائي تعليلي، وليس فعلياً، وفيه بيان لعظيم قدرته تعالى وعلمه بخلقها، وإن كان ظاهر الآية الإخبار عن خلقها.

وفي الآية وجوه:

الأول: إستحقت السماء صدق اسم السماء بالنسبة للأرض عند خلقها.

الثاني: إنها خلقت أولاً سماء واحدة ثم جعلها الله سبع سماوات من غير لحاظ للأرض.

الثالث: انها خلقت سبع سماوات ولو على نحو التدرج المتصل.

الأقرب الأخير لبيان بديع خلقه وأن التقسيم وحده آية كونية معجزة مع ظهور قدرة الله عز وجل في قوله تعالى ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ (٢)، وأن

(١) سورة فصلت ٩.

(٢) سورة فصلت ١١.

السماء في الأصل دخان.

ومعنى سواهن: أي خلقهن وهياهن وجعلهن.

قال الأخفش: السماء جنس يدل على القليل والكثير، وقال الرماني: السماوات غير الأفلاك، لأن الأفلاك تتحرك وتدور واما السماوات لا تتحرك ولا تدور، لقوله تعالى ﴿أَن اللّهُ يُسَكِّنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾^(١).

ولكن الآية لا تنفي حركة السماء والأرض في نظام متناسق وإنما تعني أنها لا تتهاوى أو تسقط، فالزوال ليس مرادفاً للحركة أو الدوران وإنما يعني الذهاب والإستحالة والإضمحلال والتنحي في مقابل الثبات والبقاء.

و(ثم) في الآية الكريمة هل هي للترتيب والتراخي كما هو معروف صناعة وعرفاً أم جاءت للبيان وتعداد النعم وبديع الخلق كما قيل.

ولا تعارض بين الوجهين وكلاهما من مصاديق الآية، وهو شاهد على بديع صنع الله، قال تعالى ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خُلُقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا * وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾^(٢).

إذ لا تعارض في القرآن وأن الآية تشير إلى أن خلق السماء قبل خلق الأرض، ولكنه لم يميز بين خلق السماء وبين تسويتها وكذا بين خلق الأرض وبين دحوها وهو تسويتها فقد تكون تسوية ودحو الأرض متأخرة عن خلق السماء بينما خلق الأرض قبله، ولنظهر الآية أن دحو

(١) سورة فاطر ٤١.

(٢) سورة النازعات ٢٧-٣٠.

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿٢٧﴾
الأرض وحده آية مستقلة لخلقها كعظيم جرمها وانه لا يمكن تسويتها إلا
بالقدرة الإلهية.

وهل بإمكان الذين في قلوبهم مرض أن يقولوا بأن في
الآية أو تأويلها ما يخالف النتائج العلمية الحديثة في حركة
وسير ودوران الكواكب والنجوم والموجودات السماوية
الأخرى .

الجواب لا ، لأن دلالة الآية مطابقة لتلك النتائج ، ولإعجاز
القرآن في منع أمثال هؤلاء عبر القرون من التعرض له بعد ثبوت
خلوه من التناقض ووجوه الباطل ، وتصدى العلماء في حينه إلى
قول الرماني لتفريقه بين السماوات والأفلاك ونعتوه بالضعف تارة
وبانه غير صحيح تارة أخرى.

قوله تعالى ﴿فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾

تبين الآية عظيم قدرة الله تعالى ، في الخلق الإبتدائي واللاحق
ومشيئته تعالى في إنشطار وإنقسام المخلوقات وخضوعها لحكمه
وأمره سبحانه ، وورد لفظ (سبع) في القرآن أربعاً وعشرين مرة
بصيغة التذكير والتأنيث وهو من أكثر الأعداد ذكراً في القرآن بعد
الواحد ، والواحدة ، وفيه تشريف لهذا العدد وهو عنوان الكثرة
والتعدد.

والتعدد في السماوات دليل على كثرة العوالم في
السماوات ، وحسن النظام والضبط فيها وبيان للقدرة
الإلهية في تعاهدها وإستدامة بقائها وما فيها من الملائكة
والكواكب والأفلاك ، ولا زال العلم قديماً وحديثاً يطل
على الناس بأسرار عجيبة من عالم السماء.

قوله تعالى ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

آية في الربوبية فالله سبحانه يتعاهد الخلق لأن السماوات والأرض محتاجة له على نحو مستديم، وأنه تعالى عالم بالجزئيات والكميات على حد سواء.

وفي الآية دلالة على أن خلق السماوات والأرض موضوعاً ومحمولاً وما يتفرع عنه من أحكام ونتائج وكيفية تسخيرها للإنسان ومدى إنتفاعه منها وتهيئة أسباب هذا الإنتفاع إنما هو بعلمه تعالى، والآية حث على علوم الفلك والجيولوجيا وإستظهار بعض الأسرار والعجائب المكنونة في أصل مادتهما.

والآية قاعدة كلية ثابتة مستوعبة لكل الحوادث والوقائع والعقائد، ومجيؤها مقترنة بعالم الخلق والتسخير يدل على حلم الله سبحانه، وانه يرزق الإنسان مع جحوده ولو شاء الله لجعل الناس كلهم مؤمنين شاكرين.

إنه جزء من الإمتحان والإختبار في النشأة الدنيا، وما دام الخطاب في الآية إنحلالياً يشمل كل إنسان، وفي كل زمان فإن الآية بشارة ووعد كريم وتبعث السكينة والطمأنينة في النفوس بضمان رزق الإنسان وذريته من بعده، خصوصاً وأن خطاب الخلق لا ينحصر بالمكلفين وحدهم بل يشمل غير المكلفين أيضاً مثلما أنه لا ينحصر بالمؤمنين وحدهم.

وبعد أن بينت الآية عظيم قدرة الله، جاء رأس الآية لبيان علمه تعالى مما يدل على أنه لم يخلق الأرض والسماوات موضوعاً وسيبياً الا عن حكمة وعلم، فهو سبحانه منزّه عن العبث، وفيها تأكيد بأن الخلق تم على وجه الإتقان.

وفي الآية دفع وهم وإخبار بأن الله عز وجل يرى ما يفعل الكافرون وانه عالم بجحودهم منذ أن خلق الأرض وما عليها، خصوصاً وأن علمه

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿٢٩﴾
تعالى ليس له زمان سابق يحده سواء كان الزمان على نحو التحقيق أو
التقدير، قال تعالى ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾^(١).

بحث كلامي

من أسماء الله تعالى (العليم) وأن خلقه سبحانه
للسماوات والأرض دليل على علمه لما فيها من الإتيان
والأحكام وبديع الصنع، وغير العالم يتعذر عليه إتيان
الفعل المحكم، والله تعالى ليس بجسم ولا جسماني، وعلمه
سبحانه يعم الأشياء جميعاً، ما كان وما يكون، إذ أن كل
الموجودات ممكنات، وكل ممكن مستند إلى واجب
الوجود مباشرة أو بالواسطة، وعلم واجب الوجود بذاته
دليل على علمه بغيره لأن العلم بالعلة يستلزم العلم
بالمعلول.

وفي الآية بيان لصفتين من صفات الله عز وجل الثبوتية، فقد بدأت
الآية ببيان أنه تعالى قادر مختار ويمكنه أن يفعل وأن لا يفعل، وأن عظيم
صنعه يدل على وجوب وجوده، وأن العالم حادث مصنوع ليس بقديم
بدليل إيجاد وإحداث أعظم مكوناته السماوات والأرض، وختمت الآية
ببيان علم الله تعالى وإحاطته بكل الأشياء، قال تعالى ﴿أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ
شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(٢).

ولا يعني علم الله تعالى حصول صور تلك الأشياء في ذاته لأنه
تعالى ليس محلاً للحوادث، فهو تعالى لا يفتقر إلى تلك الصور أو تعددها
أو تضاعفها، بل أن الأشياء جميعاً حاضرة عنده مستجيبة لأمره وعلمه

(١) سورة البقرة ١٤٤.

(٢) سورة البقرة ٢٣١.

﴿٣٠﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

تعالى حضوري، وليس حصولياً أو إنطباعياً.

وقوله تعالى ﴿خَلَقَ لَكُمْ﴾ دليل على أنه تعالى غني غير محتاج لغيره إذ أن واجب الوجود غير مفتقر في ذاته، والإفتقار يستلزم الإمكان فهو سبحانه لم يخلق الأرض لحاجة منه إليها، بل خلقها رحمة وفضلاً وإحساناً وباباً للشكر، وسيلاً للتفكير بعظيم صنعه وبديع خلقه، وعوناً على الهداية والإقرار له بالعبودية والتسليم وإتباع ما جاء به النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من عنده تعالى، وهي وعاء ومحل لأداء الفرائض والمناسك.

إن التدبر في المخلوقات ومشاهدة الكائنات يؤكد بالعقل والحس والوجدان أن الله تعالى فاعل مختار عالم، وأن نسبة جميع المعلومات متساوية لديه، وتلح على الناس جميعاً بضرورة الإستجابة للدعوة الإسلامية، والإنخراط في صفوف أهل الإيمان وجماعة المصلين طاعة لأمر الله تعالى.

قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ الآية ٣٠.

اللغة والإعراب

وإذ: الواو: إستئنافية، إذ: ظرف لما مضى من الزمان في محل نصب مفعول به لفعل محذوف تقديره أذكر، ورد ابن حبان هذا القول، وقال فيه إخراج (إذ) عن بابها.

قال: فعل ماض، ربك: رب: فاعل مرفوع، وهو مضاف والضمير الكاف مضاف إليه، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة الظرف (إذ) إليها، للملائكة: جار ومجرور متعلقان بقال.

اني: حرف مشبه بالفعل، والياء إسمها . جاعل: خبر إن مرفوع بالضمّة.

في الأرض: جار ومجرور، خليفة: مفعول به لجاعل لأنه اسم فاعل. قالوا: فعل ماض مبني على الضم لإتصاله بواو الجماعة، الواو: فاعل، والجملة لا محل لها من الإعراب لأنها إستئنافية.

أتجعل: الهمزة للإستفهام التعجبي، تجعل: فعل مضارع مرفوع، وفاعله ضمير مستتر تقديره أنت، فيها: جار ومجرور.

من: اسم موصول في محل نصب مفعول به، يفسد: فعل مضارع مرفوع، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو، والجملة لا محل لها من الإعراب لأنها صلة الموصول، فيها: جار ومجرور.

ويسفك: الواو حرف عطف، يسفك: فعل مضارع مرفوع بالضمّة

﴿٣٢﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

الظاهرة على آخره، الدماء: مفعول به منصوب بالفتحة، ونحن: الواو
حالية، نحن: ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ، والجملة الفعلية (نسبح) في
محل رفع خبر نحن.
(وتقدس لك)

الواو: حرف عطف، تقدس: فعل مضارع مرفوع بالضمة معطوف على
نسبح .

لك: جار ومجرور.

(قال اني أعلم ما لا تعلمون)

قال: فعل ماض، وفاعله ضمير مستتر تقديره هو.

إني: إن واسمها، أعلم: فعل مضارع مرفوع، وفاعله ضمير مستتر
تقديره انا، عائد إلى الله تعالى.

ما: اسم موصول في محل نصب مفعول به، لا: نافية، تعلمون: فعل
مضارع مرفوع بثبوت النون، والجملة لا محل لها من الإعراب لأنها صلة
الموصول، وجملة (اني أعلم) في محل نصب مقول القول.

الملائكة: جمع ملك وأصله مالك، تركت الهمزة لكثرة الإستعمال،
وأكثر اللغويين على أنه مشتق من الألوكة، وهي الرسالة لأنها تولك في
الفم وتنقل بعناية لسانية زائدة وتحتاج إلى بيان، ولا يعني هذا أن الملائكة
جميعهم رسل، بل هو اسم جنس جاءت الصفة لتلبس كثير منهم
بالرسالة، لقوله تعالى ﴿اللَّهُ يُصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ
النَّاسِ...﴾^(١).

والملائكة أجسام نورانية لطيفة وهو المشهور، لها القدرة على تغيير
أشكالها وهيئاتها بصور مختلفة، وهي دائبة على الطاعة ومسكنها

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿٣٣﴾
السموات ولكنها قد تنزل إلى الأرض لأمر ما، ويكون نزول الملائكة على قسمين:

الأول: القضية الشخصية، بأن ينزل ملك في رسالة، ووظيفة عبادية كما في نزول جبرئيل عليه السلام المتكرر وظهوره للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أحياناً بصورة دحية الكلبي.

الثاني: النزول النوعي المتعدد كما في نزول الملائكة لنصرة المسلمين في معركة بدر وأحد قال تعالى ﴿إِذْ قَوْلُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَكْفِيكُمُ أَنْ يَمْدُكُمْ رَبُّكُمْ بِمَلَائِكَةٍ آتٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ﴾ (١)

ومن وظائف الملائكة العبادية وطاعتهم انهم رسل الله أمناء، فهم يقومون بتبليغ الأنبياء بالوحي من غير تحريف أو سهو أو غفلة، وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم قال: "ما من شيء خلقه الله أكثر من الملائكة..." (٢) الحديث.
وقيل أن الملائكة والجن والشياطين متحدون في النوع ومختلفون بالأفعال.

فالملائكة لا يفعلون إلا الخير.
والجن منهم من يفعل الخير ومنهم من يفعل الشر.
أما الشياطين فلا يفعلون إلا الشر.
ولكن الإتحاد والتباين الجهتي في الفعل لا يدل على الإتحاد في النوع.

والملائكة مع عظيم خلقهم فإنهم لا يأكلون ولا يشربون ولا ينجسون، فغذاؤهم التسييح ونسيم العرش لأنهم دائبون على العباد، منقطعون إلى الله تعالى، سائحون في آفاق آياته.

(١) سورة آل عمران ١٢٤ .

(٢) البحار ١٧٥/٥٦ .

﴿٣٤﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

والجعل: الخلق والإحداث والفعل.
والخليفة: الذي يكون خلفاً لغيره في تدبير الأمور، ثم شاع في العرف التاريخي انه خلف لمن كان قبله، وهو أيضاً نوع من الغيرية.
والسفك: الإراقة والإجراء لكل مايع (وفي الدعاء: وأمطرت بقدرتك الغيوم السوافك)^(١) وسفك الدم: صبه وإهراقه.
والتسييح: التنزيه والتقديس والتبرئة من النقائص، ومعنى نسبح بحمدك: أي ننزهك عما لا يليق بك متلبسين بحمدنا لك.
ومن أسمائه تعالى (القدوس) وهو المنزه عن النقائص والعيوب.
بعد توجيه اللوم على الكفر، وبيان أصل الخلق والتكوين وتشريف الانسان كجزء علة لخلق الأرض وسبب كريم لما فيها من النعم، جاءت هذه الآية بياناً لنعمة عامة وهي خلق الانسان وبداية تكوينه وكلام الملائكة في جنس الانسان، وما يرتجى من الناس في الأهلية للخلافة، ففي الآية وبلحاظ نظم الآيات توبيخ ووعيد لأهل الضلالة والجحود لانهم لم يعملوا لما خلقوا له.

وجاء خلق الانسان وجعله خليفة في الأرض بعد أمور هي:
الأول: تفضل الله تعالى بخلق ما في الأرض للإنسان مطلقاً، لتكون له الأرض سكناً ورزقاً وكنزاً وذخيرة.

الثاني: صيرورة السماء سبع سماوات قال تعالى ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾^(٢).

الثالث: إخبار الله تعالى للملائكة عن خلق آدم وجعله خليفة في الأرض.

ومن الإعجاز أن الآية تضمنت الإخبار وحده، ولم تتضمن الأمر

(١) البحار ٣٤٤/٨٣.

(٢) سورة البقرة ٢٩.

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿٣٥﴾

الإلهي إلى الملائكة بالسجود لآدم عليه السلام.
وجاءت الآية التالية بتفضله تعالى على آدم عليه السلام وجنس الإنسان مطلقاً بتعليم آدم الأسماء كلها، ليكون مؤهلاً لعبادة الله، وللخلافة في الأرض.

وبعد الآيات التي جاءت في ذم الكفار، وذكر النعم الإلهية على الإنسان جاءت آية الخلافة في الأرض، لتكون إخباراً إضافياً بالنعم الإلهية، وذماً للكفار والمنافقين، وتذكيراً لهم بوظيفتهم التي خلقوا لها، وحثهم على الإرتقاء إلى المنزلة التي جعلهم الله فيها من بين الخلائق، إذ أن الخليفة هو الذي يخلف غيره، ويقوم مقامه، ويسكن الانسان الأرض، ويعمرها لا ينافسها أو يزاحمه أي جنس من الخلائق.

وقد فضل الله عز وجل الإنسان على الحيوانات والدواب بأنه يمشي على رجله قائماً، ويتناول طعامه بيديه، وغيره يتناوله بفمه، وشرفه الله بالنطق ليكون آلة مباركة لتلاوة كلام الله، وعمارة الأرض بذكره سبحانه، ووسيلة للهداية ونشر الصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ومن الإعجاز أن تأتي آية الخلافة في الأرض، بعد الإخبار عن فضل الله تعالى بخلق ما في الأرض من أجل الناس جميعاً رحمة بهم، لتكون هذه الآية وما فيها من مضامين الخلافة دعوة للناس للعدل والإحسان، وإجتنب الظلم والتعدي والأخلاق المذمومة.

وبعد إحتجاج الملائكة إنتقلت الآية التالية إلى تعليم الله عز وجل لآدم الأسماء، وذكرت ما أعقب هذا التعليم من التحدي للملائكة، وإبطال إحتجاجها يتخلفها عن العلم بما يعلمه آدم، وفيه إشارة إلى أن الخليفة يحتاج إلا الله عز وجل في باب العلم ونبد الفساد، وفي قوله تعالى ﴿قُلْنَا

يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾^(١).

﴿٣٦﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

حينما جمع ثمرود وقومه الحطب لإحراق إبراهيم وأشعلوا ناراً عظيمة حتى الطير تكاد تقع فيها من شدة لهبها، ووضعوه في المنجنيق مقيداً مغلولاً ورموا به في النار فقال له جبرئيل حين رموه: هل لك حاجة، فقال أما إليك فلا، قال: فسل ربك، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إنما نجا بقوله: حسبي الله ونعم الوكيل^(١).

وفي هذه الواقعة مرآة لإحتجاج الملائكة الواردة في الآية محل البحث ورد الله عز وجل عليهم ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فمن علمه تعالى أنه نجا إبراهيم من النار، وكبث المفسدين، وصاروا هم المقلوبين بالجدال، إلى جانب ما لحقهم من الخزي بسلامة إبراهيم من النار، ومن أعظم الشواهد والمصاديق على قوله تعالى أعلاه نزول الملائكة أنفسهم لنصرة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه ودحر المفسدين وأقطاب الكفر، ليكون هذا الدحر مستديماً وبرزخاً دون بلوغ الطواغيت مراتب السيادة إلى يوم القيامة ببركة بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وجهاد المسلمين، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿لَيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتُهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾^(٢).

إعجاز الآية

بيان موضوع خلق الانسان وما صاحب الخلق من نعم عظيمة الشأن والمنزلة والخلافة في الأرض، وفيها إخبار عن أهلية المسلمين لإقامة الأحكام والسنن السماوية في الأرض ونيلهم لهذه المرتبة العظيمة، وتتضمن إشراقات وإفاضات قدسية لأشرف محاوره وخطاب تلقتة الملائكة بخصوص خلق الإنسان.

(١) الكشف ٥٧٨/٣.

(٢) سورة آل عمران ١١٠.

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿٣٧﴾

وتبين الآية المنزلة العظيمة للإنسان بين الخلائق والتي نالها دفعة واحدة بفضل الله تعالى، ومن إعجاز الآية أن الملائكة لم تسأل عن خلافة الإنسان مطلقاً، أو خلافة آدم بالذات بل سألت عن وجود من يفسد في الأرض ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾.

لقد سأل الملائكة الله عز وجل أن يكون المؤمنون وحدهم سكنة الأرض، وأن تنزه من الكفرة المفسدين الذين ذكرتهم الآيات السابقة، ليكون معنى الآية بلحاظ سياق الآيات ذكر التوبيخ والتقبيح الذي وجهه الملائكة إلى الكفار، والإخبار عن فضل الله عز وجل بخلقهم وإمهالهم وتوجيه اللوم لهم في هذه الآيات لعلمهم يتوبون إلى الله، وعن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم "أطت السماء وحق لها أن تئط ، ما فيها موضع قدم إلا وفيه ملك ساجد أو راكم" (١).

فالملائكة لم يسألوا سؤالاً استنكارياً عن جعل آدم خليفة في الأرض، وهم الذين يفعلون ما يأمرهم الله وليس من عمل عندهم إلا طاعة وعبادة الله ويعلمون أن الأرض ملك لله تعالى، وأنه خلق ما فيها رزقاً للإنسان ﴿بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ﴾ (٢)، كما أن مسكنهم السماء.

ولكنهم سألوا الله عز وجل أن يكون أهل الأرض كأهل السماء في العبادة والصلاح والهداية ليكونوا مثلهم كما ورد في الآية ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ وأن لم يبلغوا ذات الرتبة والخلقة بأن يكونوا عقلاً محضاً، فأرادوا أن تكون الأرض سكناً للموحدين وحدهم، وقد نزل الملائكة لنصرة

(١) بحار الانوار ٥٦/٢١٢.

(٢) سورة آل عمران ١٢٥.

﴿٣٨﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

المسلمين في بدر وأحد فضلاً من عند الله تعالى على المسلمين وهم منزهون من داء الحسد وأسبابه.

ويدل على هذا المعنى المصداق الخارجي بأن الأنبياء والأولياء والمؤمنين والصالحين من الناس يعمرون الأرض بالعبادة وينشرون مفاهيم التقوى، ويتوارثون الإسلام وسنن الإيمان، ويراهم الملائكة في الصلاة اليومية.

وفي قوله تعالى ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾^(١)، ورد عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم: تفضل صلاة الجماعة صلاة أحدكم وحده بخمسة وعشرين جزءاً، ويجتمع ملائكة الليل والنهار في صلاة الفجر، أورده البخاري في الصحيح^(٢).

أي أن الملائكة تشهد عبادة المسلمين، وتوديع الليل واستقبال النهار كل يوم بالصلاة والخضوع والخشوع لله تعالى، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ بأن المسلمين سيتعاهدون الذكر والعبادة إلى يوم القيامة، وإنكم أيها الملائكة ستشهدون عبادتهم في أكثر الساعات سكوناً، فلا تسمعون حينها في الأرض إلا ذكر الله.

فلا بد أن الملائكة يقصدون غير المسلمين، ويريدون بالذم الكفار الذين نعتهم الآيات السابقة بانهم المفسدون.

ويمكن تسمية هذه الآية بآية (الخلافة) وقد ورد لفظ الخلافة في

القرآن مرتين قال تعالى ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾^(٣)، وفي

الجمع بين الآيتين مسائل:

الأولى: أول خليفة في الأرض آدم عليه السلام.

(١) سورة الأسراء ٧٨.

(٢) مجمع البيان ٤٣٤/٦ - صحيح البخاري ١٥٩/١.

(٣) سورة ص ٢٦.

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿٣٩﴾

الثانية: منزلة الخلافة مرتبة تشريفية، ووظيفة شرعية ومنصب يأتي على نحو التعيين من عند الله عز وجل.

الثالثة: الملازمة بين النبوة والخلافة، إذا كان النبي مبسوط اليد، لتكون هذه الملازمة.

الرابعة: لم يذكر لفظ (خليفة) في القرآن إلا مرتين وفي خلافة الإنسان في الأرض، وفيه تشريف وبيان موضوعية وقدسية هذه الخلافة.

الخامسة: موضوع الخلافة في الأرض مناسبة لتثبيت أحكام الدين، وصلاح المجتمعات، ونبد الكفر والشرك والضلالة وجاءت الآيات بصيغة الجمع (خلائف) (وخلفاء) في بضع آيات من القرآن قال تعالى في خطاب للمسلمين ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خُلَافَ الْأَرْضِ﴾ (١).

وفيه بشارة سيادة أحكام الإسلام إلى يوم القيامة في الأرض ناسخ وإن المسلمين خلفوا الأمم السابقة، ويتوارثون الخلافة وتعاهد عبادة الله في الأرض والحكم بما أنزل الله، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (٢).

الآية سلاح

في الآية إكرام لبني آدم من جهتين، من جهة الخلق، ومن جهة موضوع الخلافة في الأرض وإن كان على نحو القضية الشخصية وأنه خاص بالأنبياء، وهي بشارة للمسلمين ودعوة للإلتزام بأحكام الشريعة.

وتبعث الآية في نفس المسلم العزم على تعاهد وأمانة ووظائف الخلافة في الأرض، وتجعله حريصاً على إجتنب أمرين:
الأول: الإفساد في الأرض.

(١) سورة الأنعام ١٦٥.

(٢) سورة آل عمران ١١٠.

﴿٤٠﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

الثاني: سفك الدماء بغير حق.

وتحذر الآية من الظلم والتعدي لأنهما من مصاديق الفساد الذي ذكره الملائكة إذ تقع تحته مصاديق عديدة من الأفعال.

لقد أراد الله عز وجل للناس التنزه عن الكفر والشرك بالإخبار عن خلق الله تعالى للإنسان وجعله خليفة في الأرض، وتتضمن الخلافة معاني العز وقد فاز به المؤمنون بالصلاح والتقوى قال سبحانه ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(١)، وهو من وجوه الشكر الإلهي للمؤمنين لتعاهدهم منصب الخلافة الرفيع في الأرض.

وتدعو الآية المسلمين للإقتداء بالملائكة في عبادتها وانقطاعها إلى الذكر والتسبيح والدعاء، وفي الآية عون للمسلمين للإيمان بالملائكة وهم رسل الله إلى أنبيائه في تبليغ الوحي، ووسائط التنزيل بين السماء والأرض.

الآية لطف

تدعو الآية الناس إلى الصلاح ونبذ الفساد والأخلاق المذمومة بادراكهم لمنزلتهم بين الخلائق والمسؤوليات العظيمة التي تحملها الإنسان إذ أن الخلافة أمانة تحملها لتكون سبيلاً لدخول المؤمنين الجنة، وحجة تدخل الكافر النار يوم القيامة.

وتنقل الآية للمسلمين والناس جميعاً ما جرى بين الله تعالى وبين ملائكته يوم خلق آدم، وهذا النقل من خصائص القرآن لأن ما فيه من القصص والأخبار لا تنحصر بقصص الأنبياء والأمم السالفة، بل تشمل أخبار السماء وعالم البرزخ والآخرة، وما ينفع الإنسان ويجعله يعتبر ويتعظ منه، ليكون يوم خلق آدم يوماً مشهوداً في السماء، وذكر دائماً في الأرض إلى يوم القيامة لفضل الله.

(١) سورة المنافقون ٨.

معالم الإيمان / الجزء السابع _____ ﴿٤١﴾

وهذه الآية من عمومات قوله تعالى ﴿نَحْنُ نُقْصُ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾^(١)، وهي من أشرف وأعظم القصص في تاريخ الإنسانية، لأنها تجمع أموراً:

الأول: الإخبار الإلهي للملائكة بجعل خليفة في الأرض.

الثاني: تشريف الملائكة بهذا الإخبار.

الثالث: بيان إحتجاج الملائكة على جعل آدم خليفة في الأرض ، بسبب ما يفعله بعض من ذريته .

وهو الإحتجاج الوحيد من الملائكة في القرآن، فليس فيه إخبار عن إستنكار الملائكة لأمر إلهي، ويتضمن القرآن أبهى مصاديق الطاعة التي يتحلى بها الملائكة ومنه سجودهم لآدم طاعة لله، قال تعالى ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾^(٢).

وهذه الآية وثيقة تشهد بعظيم منزلة الانسان بين الخلائق وأن الله عز وجل شرفه وأكرمه بأن أخبر الملائكة عن خلقه وإختياره خليفة في الأرض والله عزوجل غني عن الملائكة والخلائق جميعاً.

فجاء بعد أربع آيات الإخبار عن الأمر الإلهي للملائكة بالسجود لآدم، وهو أمانة وقرينة على أن سؤال الملائكة لم يكن عن آدم وخلافته في الأرض إلا أن يقال أن الأمر بالسجود جاء بعد إقامة الحجة عليهم في أهليتهم للسجود له بأمر الله وهو بعيد لسور الموجبة الكلية في فعل الملائكة وهو إمتثالهم للأمر الإلهي مطلقاً، قال تعالى ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾^(٣).

(١) سورة يوسف ٣.

(٢) سورة البقرة ٣٤.

(٣) سورة التحريم ٦.

مفهوم الآية

في الآية بيان لعظيم منزلة الإنسان في الخلائق وإشعار عن أهليته لعبادة الله، ولزوم تنزهه عن الكفر والشرك، ومع الرتبة العالية للملائكة في سلم العبادة واليقين وأنهم سكان العرش والسماء فانهم يتلقون الأمر والإخبار الإلهي بأن الإنسان هو الخليفة في الأرض، وتحذر الآية من الإفساد في الأرض وتدعو الإنسان للإرتقاء إلى مسؤوليات ومهام الخلافة والمنزلة اللاتقة به بين الخلائق.

وفي الآية أمل ورحمة لما تدل عليه بالدلالة التضمنية من إستعداد الإنسان لإحياء الأرض بالعبادة ولو على نحو الموجبة الجزئية الذي يتجلى بأداء الفرائض وتعاهد المسلمين للصلاة والصيام، وأداء مناسك الحج والإتياد التام لأحكام القرآن.

وتبين الآية سراً من أسرار الخلق وأن الله سبحانه يجعل خليفة له في الأرض ولم يجعل خليفة في السماء مع تعددها وعظيم أجرامها وخلقها وإفراد الانسان في موضوع وأحكام الخلافة تشريف خاص له، ودعوة لتقيده بأحكام العبادة ومسؤولية عظيمة لم تلق على عاتق صنف أو جنس من الخلائق، لذا إنبهت الخلائق من موضوع الخلافة على نحو مركب من وجوه:

الأول: وجود خليفة لله تعالى، وحصر موضوع الخلافة في الأرض.

الثاني: أهلية بعض الخلائق لأن يكون خليفة، قال تعالى ﴿لَقَدْ كَرَّمْنَا

بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا﴾ (١).

الثالث: تشريف الإنسان بأعظم مرتبة وعنوان وهو الخلافة.

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿٤٣﴾

الرابع: أهلية الإنسان لهذا الشرف العظيم.

الخامس: عدم التعارض بين الخلافة وبين الوقوف بين يدي الله للحساب والجزاء يوم القيامة لذا ورد قوله تعالى ﴿إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا^(١)﴾، أي يسوى ما عليها من الجبال والقصور والبناء والشجر يفعل بها مرة بعد مرة، وكأن زلازل شاملة للمناطق المأهولة أو حروب مدمرة تأتي على الحرث والنسل والبناء .

وعن ابن عباس دكت الأرض أي مدت يوم القيامة مد الأديم^(٢). فلا يكون أمر إلا أمر الله لتكون المعرفة بالتوحيد يومئذ ضرورية، لجميع الناس، ليس معها شك أو ريب أو شبهة لذا جاءت الآية التي بعد الآية أعلاه ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ أي أمر ربك، وتجلّى الله سبحانه خلقه بعظيم قدرته، وسلطانه، وإختصاص الملك به، وليس من ملك يومئذ لغيره بخلاف عالم الدنيا، ويقف الناس جميعاً للحساب بعد آية البعث والنشور، وإلا فإن الله عز وجل منزّه عن الجسمية والمكان.

السادس: إنسباق الملائكة إلى المقارنة بينهم وبين الإنسان وموضوع الأهلية لدرجة الخلافة ، وهذه المقارنة ليست من بين الأسباب التي أدت إلى تساؤلهم ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾.

وكان الملائكة سألوا الله بما لهم من المنزلة عنده، وإنقطاعهم للعبادة أن ينعم على أهل التوحيد بالأمن والسلامة والقيام بوظائف الخلافة. لقد أخبرت الآية عن قانون يحكم الأرض إلى يوم القيامة وتتفرع عنه عدة مسائل، والواقع والوجدان يشهدان بقيام الإنسان بالتصرف المطلق بشؤون وموجودات الأرض وكأنه المالك لها إلا أن قيد الخلافة يلزمه

(١) سورة الفجر ٢١.

(٢) مجمع البيان ١٠/٤٨٨.

﴿٤٤﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

الرجوع إلى الله تعالى في كيفية التصرف ولزوم عبادته سبحانه كما أكد الملائكة بأن المدار في الخلافة على العباد، والثناء على مقام الربوبية.

وإخبار الملائكة عن أحوال الإنسان السابق لخلقه ونفخ الروح فيه بيان لما يجري في عالم السماوات وإرشاد للمسلمين في معرفة أحوال البشر وما يفعل الكفار وإشارة إلى ما سيلقيه المسلمون من الأذى، ودعوة لهم للصبر والتحمل والجهاد في سبيل الله تعالى، والإرتقاء إلى درجة الخلافة، وما يترشح عنها من الوظائف الشرعية والعبادية والأخلاقية.

وتبين الآية في مفهومها علو مرتبة الملائكة من وجوه:

الأول: تفضل الله تعالى بإخبارهم عن خلق الانسان، وانه سيكون خليفة له في الأرض.

الثاني: تهيئة وإصلاح الملائكة للقيام بإعانة الانسان في خلافته، ومنه القيام بالرسالة بين الله وبين الأنبياء، وتولي وظيفة الوحي، والأمانة في التنزيل ليقوم الخليفة بعمله أحسن قيام، ويدرك الناس وجود الملائكة وأمانتهم وإنقطاعهم إلى العباد، وتولي الملائكة مسؤولية النزول بالوحي عون للمسلمين للإيمان بهم قال تعالى ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ﴾.

الثالث: علم الملائكة بما سيفعله الانسان في الأرض.

الرابع: إنحصار عملهم بالعبادة والتسبيح.

الخامس: طاعة الملائكة المطلقة لله عز وجل .

إفادات الآية

تبين الآية عظيم منزلة الانسان بين أهل السماوات والأرض، وتؤكد فضل الله تعالى في تقديمه رتبة مما يستلزم الإقبال على العبادات والإرتقاء إلى درجة الخلافة بالإتقياد التام لأوامره تعالى وخشية مخالفتها، لأن معصية الخليفة أكثر ضرراً، كما أن عقوبتها أشد وأقسى، ولم تبين الآية موضوعية

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿٤٥﴾

لإختيار الانسان وقبوله للخلافة، وفيه وجوه:

الأول: الإنسان عبد صاغر لله عز وجل.

الثاني: الخلافة تشريف عظيم.

الثالث: جاءت الخلافة إبتداء من الله تعالى، من غير أن يسألها الانسان

فلا بد ان الملائكة سبحانه يصلحه لها.

الرابع: إنها جزء من بديع خلق الله وصنعه تعالى، وشاهد على القواعد

والانظمة والضوابط التي تحكم الخلائق بلطف من الله تعالى.

الخامس: الخلافة كلها خير محض فلا موضوعية لإختيار الانسان فهي

رحمة مزجاة وفضل منه تعالى، وهل من إختبار لآدم في الخلافة .

الجواب نعم، من وجوه:

الأول: جاء الإحتجاج الإلهي على الملائكة بتعليم آدم الأسماء كلها.

الثاني: حفظ آدم للأسماء وتعليمه إياها الملائكة.

الثالث: الحياة الدنيا كلها دار إمتحان وإختبار.

الرابع: الخلافة نعمة من عند الله على آدم والمؤمنين من ذريته، ليس لهم

إلا أن يقبلوها ويتلقوها بالشكر لله سبحانه ، مع إظهار معاني العبودية

والخضوع له تعالى.

الصلة بين أول وآخر الآية

بعد أن جاءت الآيات السابقة في ذم الكفار والمخادعين ، والإخبار عن

النعم الإلهية على الناس، وبديع خلق السموات والأرض، انتقلت الآية

إلى مخاطبة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ وهي أول آية

من القرآن تأتي بهذه الصيغة من الخطاب لبيان عظمة قدرة الله، ويدل

موضوعها على الصلة بين خلق آدم عليه السلام وبعثة النبي محمد صلى

الله عليه وآله وسلم .

فجاءت الآية بموضوع خلق آدم ليكون خليفة في الأرض، وفيه إشارة

﴿٤٦﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

إلى خلافة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ونبوته ولزوم إتباعه وظهور الإسلام لأن الله تعالى هو الذي أراد وجود الخليفة في الأرض، ولا راد لأمره سبحانه.

وتبين الآية أن قصص القرآن لا تنحصر بقصص الأنبياء بل تشمل أخبار السموات والأرض، والصلة بينهما، وذكرت سؤال الملائكة بخصوص الذين يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء دون الخليفة وسائر المؤمنين، أي انهم تلقوا موضوع الخليفة بالقبول والرضا، ولكنهم سألوا الله عز وجل أن تكون الأرض خالصة لأهل الإيمان والتقوى، وأن يكون الأنبياء في الأرض هم أهل الأمر والنهي، وأتباعهم هم أهل الحل والعقد.

وإذ ذكر الملائكة خصلتين مذمومتين لأهل الفساد، فإنهم ذكروا خصلتين حميدتين مما يتصف به الملائكة وهما:

الأولى: مواظبتهم على النطق بالحمد لله.

الثانية: تنزيهه مقام الربوبية عما لا يليق به من النقص.

وعلى المبنى الجديد الذي نذهب إليه في تفسير هذه الآية بأن الملائكة أرادوا الأرض خالصة لأهل الإيمان فيحتمل مدحهم لأنفسهم نوع توسل إلى الله تعالى لقبول مسألتهم هذه، إلا أنه بحاجة إلى دليل من قرآن أو سنة خصوصاً وأن الملائكة ﴿يُفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾^(١)، وهو لا يتعارض مع إحتجاج الملائكة ورغبتهم بأن تكون الخلافة في الأرض علة ووسيلة لعمارتها بالعبادة، وفيه حجة على الإنسان إذ جعلها الله مسخرة له مع إنقطاع الملائكة للعبادة، ليشكر الناس جميعاً الله تعالى على هذه النعمة والفضل العظيم، والملائكة عقل من غير شهوة، منقطعون إلى التسييح والتهيل.

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿٤٧﴾

وأختتمت الآية بقول الله تعالى للملائكة ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ في بيان أنه تعالى أهل للتسييح بحمده والتقديس له، من الملائكة والناس جميعاً، والله سبحانه القادر على كل شيء.

وتبين خاتمة الآية الحكمة الإلهية في خلق آدم وإتخاذه خليفة في الأرض وأنه سبحانه يعلم خفايا وعواقب الأمور، وما فيه إصلاح الأرض وتفضله تعالى بنصرة المسلمين، وتعاهد الإيمان.

ولم تذكر الآية أن الخليفة هو آدم على نحو التعيين أو المعنى الأعم، ولكنه المستقرأ من هذه الآيات وآيات أخرى، قال تعالى ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾^(١).

لقد جاءت هذه الآية والآيات الثمانية التي بعدها في الكلام والاحتجاج الإلهي على الملائكة في خلق آدم، وكل آية منها ذكرت مادة (قال) إلا في آية واحدة ورد القول بصيغة الإلقاء ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾^(٢).

وهذه هي الآية الوحيدة من بينها التي تأتي فيها مادة (قال) ثلاث مرات وهي:

الأول: قول الله تعالى للملائكة بانه جاعل في الأرض خليفة.

الثاني: إستفهام الملائكة بأن الله يجعل في الأرض من يفسد فيها.

الثالث: رد الله تعالى على الملائكة بانه سبحانه يعلم ما لا يعلمون.

وتتصف هذه الآية بأن مضامينها كلها من جنس القول والمخاطبة، وفي موضوع واحد هو خلق آدم، وليس لآدم فيها كلام أو قول، لتأتي الآية التالية وتخبر عن تلقي آدم التعليم من الله، وهو أرقى مصاديق التعليم بين الخلائق، ويدل على شرف ومنزلة آدم عند الله تعالى.

(١) سورة ص ٢٥ .

(٢) سورة البقرة ٣٧ .

التفسير الذاتي

إبتدأت الآية بالخطاب التشريفي للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بقوله تعالى ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ والضمير الكاف يعود للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وفيه، بيان لمنزلة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأن الله عز وجل خصه بقصص الأنبياء والأمم السابقة وأخبر به بما جرى بين الله وبين الملائكة من الحديث والحوار ساعة خلق آدم وبيان وظيفته في الأرض، وفيه مسائل:

الأولى: إنه من مصاديق أحسن القصص التي وردت في القرآن، فمن الحسن الذاتي لتلك القصص شمولها لبدايات خلق الإنسان.

الثانية: فيه دلالة على أن القرآن بيان لكل شئ وأنه يتضمن أخبار السماوات، قال تعالى ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾^(١).

الثالثة: الإخبار عن منزلة الملائكة عند الله عز وجل، وأن ما يجري في الأرض يعلم به أهل السماء، وفي رواية عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم: (إتخذني الله عبداً قبل أن يتخذني نبياً)^(٢).

وهل في لغة الخطاب في الآية إشارة إلى أن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم هو الخليفة في الأرض وأنه الذي يواجه أهل الفساد لتهديط الملائكة لنصرته وإعائته الجواب نعم إلا أنه لا يمنع من إرادة آدم عليه السلام في موضوع الخلافة وكذا الأنبياء الباقين كما في قوله تعالى ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾^(٣).

(١) سورة النحل ٨٩ .

(٢) تاريخ مدينة دمشق ٧٦/٤ .

(٣) سورة ص ٢٦ .

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿٤٩﴾

لقد جاء الخطاب قبل آيات للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾^(١)، ثم عادت هذه الآية بذات الصيغة من الخطاب ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ

وفيه تشريف وإكرام إضافي للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بأن يبين الله عز وجل ابتداء خلق الإنسان، ومن الآيات أن جاء ذكر خلق آدم بعد رزق الناس وأنه أمر مدخر لهم إلى يوم القيامة، وعدم إستثناء أحد من البشر من قوله تعالى في الآية السابقة ﴿خَلَقَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾^(٢)، إذ أن كل إنسان من الأولين والآخرين ينتفع مما في الأرض من النعم والخزائن، ليكون مناسبة للشكر والإتعاظ.

وجاءت الآية السابقة بالإخبار عن خلق كل شئ في الأرض للناس، أما هذه الآية فجاءت بجعل الإنسان خليفة لله عز وجل في الأرض والخلافة نعمة أخرى على الناس جميعاً، وإن كانت خاصة بآدم والأنبياء، ومن يشاء الله من أوليائه، قال تعالى ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾^(٣).

لقد أخبر الله عز وجل عن موضوع الخلافة بحديثه مع الملائكة فلم تقل الآية (ولجعل ربك خليفة في الأرض) بل ذكر الملائكة وردهم على قول الله عز وجل.

لقد ابتدأ ذكر الإنسان في السماء قبل الأرض، فمع أنه خليفة في الأرض جاء إخبار الله عز وجل للملائكة، لبيان منزلة الإنسان بين أهل السموات، وجاء رد الملائكة على قسمين:

(١) سورة البقرة ٢٥.

(٢) سورة البقرة ٢٩.

(٣) سورة ص ٢٦.

﴿٥٠﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

الأول: بيان الفعل السيئ والقيح الذي يفعله الإنسان في الأرض، وهو على شعبتين:

الأولى: الفساد في الأرض.

الثانية: القيام بالقتل وإزهاق الأرواح بغير حق.

الثاني: بيان حسن سمت وفعل الملائكة، وهو على شعبتين:

الأولى: قيامهم بالتسبيح والتحميد، وهم شاكرون لله عز وجل لهدايتهم للتسبيح.

الثانية: تنزيه الملائكة لمقام الربوبية.

وتبين الآية لغة الحوار بين الله وبين أهل السماء، بينما تكون الصلة مع أهل الأرض النبوة والكتاب المنزل في قوس النزول، أما قوس الصعود فيتجلى بالدعاء والإمثال للأوامر الإلهية، وقد أعد الله عز وجل للمؤمنين جنات النعيم خالدين فيها، لقد ابتدأت الآية بقول الله عز وجل ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾.

وأختتمت بقول الله عز وجل مع إتحاد الجهة التي يتوجه لها الخطاب الإلهي وهي الملائكة بأن الله عز وجل أعلم بالمصالح وأسباب دفع المفساد، فجاء نزول هذه الآية من مصاديق علم الله عز وجل الذي جاءت به خاتمة الآية بأن ذكر الحوار الإلهي مع الملائكة كموضوع لإصلاح الناس، وممانع من الفساد، وليس من حصر لأسباب وصيغ تنزيه الأرض من الفساد، وسلامة المجتمعات من القتل بالباطل.

ومن أهمها بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ونزول القرآن وتثبيت أحكام الشريعة في الأرض فالصلاة واقية من المعاصي، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باب مفتوح للإصلاح والإصلاح يتضمن الأحكام الثواب والعقاب، ومنها قوانين القصاص، قال تعالى ﴿وَلَكُمْ فِي

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿٥١﴾

الْقَصَصِ حَيَاةٌ^(١)، والتي تتضمن الزجر المستديم عن القتل، إلى جانب ما جاء به الأنبياء والكتب السماوية من أحكام الجنايات وعقوبات الفساد والنهي عنه والتحذير من مقدماته.

لقد فتح الله عز وجل للناس باب التوبة والإستغفار، وجعل العاقبة للتعوى والصلاح، وهو سبحانه يمد المؤمنين بأسباب النصر والغلبة، وينزل الملائكة الذين إحتجوا على خلافة الإنسان لنصر المؤمنين وتثبيت أحكام التوحيد في الأرض.

وهل في هذا النزول تأديب للأئمة والقادة بأن من يحتاج على عمل وتولي غيره مسؤولية ووظائف الإذن له بالعمل لتعظيمه وإعائته في مسؤوليته، وجعله يعرف بنفسه الأسباب وكيفية العمل والغايات، الجواب لا دليل عليه، وهو قياس مع الفارق.

لقد أنعم الله عز وجل على آدم عليه السلام بالفضل والإكرام بخلافة الأرض مدة حياته وإبتداء من هبوطه من الجنة الذي هو إمتحان وإبتلاء لذريته، لتتغشى الرحمة الإلهية أهل الإيمان منهم، ويكونوا في نعيم دائم.

من غايات الآية

في الآية مسائل:

الأولى: أن الله عز وجل يخاطب الملائكة ، ويخبرهم عن أحوال الخلائق، وتبين الآية موضوعية خلق الانسان وصيرورته خليفة في الأرض وانه أمر يهتم أهل السماء.

الثانية: جاء أمر الله عز وجل على نحو القطع والجزم فلم يخبر الملائكة على نحو السؤال أو الإختبار وهو سبحانه لا يشاور أحداً فيما يفعل، قال

سبحانه ﴿لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾^(١).

وتؤكد لغة القطع يجعل الإنسان خليفة في الأرض على أن الملائكة يتلقون الإخبار بالرضا والتسليم والقبول وأن سؤالهم لا يخص الخليفة بالذات، بل جاء في ذم الكفار والمجرمين الذين يعيشون في الأرض فساداً.

الثالثة: مدح الملائكة، وذكرهم لخصالهم الحميدة في طاعة الله، ليرى الإنسان في أول ساعات خلقه كيف أن الملائكة دائبون في طاعة الله، وهو من أسرار خلق آدم في الجنة، وعدم نزوله إلى الأرض إلا بعد أن رأى عبادة وتسبيح الملائكة، ومخالفته لهم، ولشرائط السكن في الجنة بأكله وحواء من الشجرة التي نهيا عنها.

الرابعة: جاء مدح الملائكة لأنفسهم لبيان فضل الله عليهم في خلقهم لطاعته وعبادته، ليؤكد قولهم انه سبحانه غني عن عبادة الناس له، ويعبده في السماء جميع الملائكة، ولا يحصي عددهم إلا الله سبحانه وكلهم منقطعون إلى العبادة.

الخامسة: أختتمت الآية بالإخبار عن علم الله تعالى المطلق وعجز الملائكة عن بلوغ علمه وإرادته التكوينية بالإحاطة بأسرار خلق الإنسان وعاقبته ونصرة الله للمؤمنين، وبعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم التي تحفظ كلمة التوحيد والعبادة في الأرض إلى يوم القيامة.

وفي خاتمة الآية إشارة إلى بشارة ظهور الإسلام وانتصار جنوده وعلو كلمته، وإزاحة المفسدين ومحق الباطل لما فيها من بعث السكينة في نفوس الملائكة.

التفسير

قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾

لقد تفضل الله عز وجل بإخبار الملائكة باتخاذ خليفة يتخذ الأرض مسكناً ويدير أمور أهل الأرض ويتولى صلاحهم، وقد ثبت أن الله عز وجل غني غير محتاج لغيره، وهو الحكيم الذي اتقن بديع صنعه وقد تقدم بيانه، وفي هذا الإخبار مسائل:

الأولى : يدل على أن الملائكة لا تعلم إلا ما علمها الله، وانها لا تعلم من الغيب إلا أن يشاء الله.

الثانية: تؤدي الملائكة وظائفها أزاء هذا الموضوع وما يجري على الأرض من تغيير أو تبدل أو ما يتعلق بمستحدثات الأمور.

الثالثة: إطلاع الملائكة على العوالم الأخرى من بديع خلق الله تعالى.

الرابعة: إنه مناسبة ولطف لدوام الملائكة على الطاعة بالإستجابة والرضا ساعة الأمر وما يحتمل فيه من الإبتلاء.

الخامسة ينظر الملائكة إلى هذا الخلق الجديد المغاير في الهيئة والفعل إذ أن الناس خلقوا من الطين ، وأنهم مختلفون في أفعالهم بين الصلاح والفساد أو الجمع والخلط بينهما.

وموضوع الآية أعم من آدم وحده وإن دأب أكثر المفسرين على القول بأن الله عز وجل أراد بالخليفة آدم، والعموم لا يتعارض مع المنسوب إلى ابن عباس وابن مسعود^(١).

ووردت كلمة (خليفة) في القرآن مرتين، والثانية قوله تعالى ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ...﴾^(٢). ووردت بلغة الجمع ﴿خُلَفَاءَ﴾ ثلاث

(١) مجمع البيان ٧٤/١

(٢) سورة ص ٢٦.

﴿٥٤﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

مرات^(١) كما وردت ايضاً بلفظ خلائف جمعاً على الأصل مثل كريمة وكرائم أربع مرات^(٢).

ولعل المقصود في الآية محل البحث أهل الإيمان والتقوى، والأنبياء أئمة المتقين، ولفظ الخليفة أعم من النيابة، وإن ورد بما يشبه هذا المعنى في خصوص داود لأنه يحكم بما أنزل الله، أما على المعنى الأعم أي الإنسان مطلقاً فإن الخلافة عنده بما رزقه الله العقل والتمييز به، والقدرة على إتيان الأفعال مع الإبداع وإمكانية الإستحواذ والتملك وروح الإرادة المقترنة بالقصد والإدراك و ولكن الكافر يخرج بالتخصيص من هذه الخلافة بإختياره الكفر والجحود، وعدم تقيدته بشرائط وسنن الخلافة ، والإمتناع بالإختيار لا ينافي الإختيار ، قال تعالى ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خُلَافَ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾^(٣).

وموضوع الخلافة وصدورها من الباري عز وجل دليل على إستدامتها إلى إجل ولا تكون محصورة بذات شخصية معرضة للموت ، وإذا أنعم الله بنعمة على أهل الأرض فإنه أكرم من أن يرفعها ،

نعم يمكن أن تكون خلافة آدم نوعية شخصية (وقال قوم سمي الله تعالى آدم خليفة لانه وذريته خلفاء الملائكة الذين كانوا سكان الأرض، وعن ابن مسعود: خليفة يحكم بين الخلق وهو آدم ومن قام مقامه من ولده، وقيل انه يخلفني في إنبات الزرع وشق الانهار ونحوها)^(٤).

وورد عن الامام علي عليه السلام في حديث: "قال الله تعالى ﴿إني

(١) انظر سورة الاعراف ٧٤، ٦٩، النمل ٦٢.

(٢) انظر سورة الانعام ١٦٥، يونس ٣٩، ٤٤، ٧٣.

(٣) سورة يونس ٧٣.

(٤) التبيان في تفسير القرآن ١/ ١٣٣.

جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً^(١) فكانت الأرض بأسرها لآدم، ثم هي للمصطفين الذين إصطفاهم الله وعصمهم فكانوا خلفاء في الأرض، فلما غصبهم الظلمة على الحق الذي جعله الله ورسوله لهم وحصل وصار في أيدي الكفار على سبيل الغصب، بعث الله رسوله محمد صلى الله عليه وآله وسلم فرجع له ولأوصيائه فما كانوا غصبوا عليه، أخذوه منه بالسيف فصار ذلك مما أفاء الله به أي مما أرجعه الله إليه^(٢)، فالخلافة خاصة مستديمة غير منحصرة بالقضية الشخصية بل هي متجددة في كل زمان بالنبي والرسول.

وعن علي بن ابراهيم بإسناده عن الامام محمد الباقر عليه السلام عن الإمام علي عليه السلام قال: "أن الله تعالى لما اراد أن يخلق خلقاً بيده وذلك بعد ما مضى من الجن والنسناس في الأرض سبعة آلاف سنة فكشف عن اطباق السماوات وقال للملائكة أنظروا إلى أهل الأرض من خلقي من الجن والنسناس، فلما رأوا ما يعملون فيها بالمعاصي عظم ذلك عليهم، فقالوا ربنا انت العزيز القادر وهذا خلقك الضعيف يعيشون برزقك ويعصونك ولا تنتقم لنفسك، فلما سمع ذلك من الملائكة (قال اني جاعل في الأرض خليفة يكون حجة في أرضي، فقالت الملائكة سبحانك تجعل فيها من يفسد فيها كما أفسدت بنو الجان فاجعل ذلك الخليفة منا فإننا لا نعصيك ونسبح بحمدك ونقدس لك.

فقال عز وجل أني أعلم ما لا تعلمون، أريد أن أخلق خلقاً بيدي وأجعل من ذريته انبياء وعباداً صالحين وأئمة مهديين أجعلهم خلفاء على خلقي في أرضي، وأطهر أرضي من النسناس وانقل مرده الجن العصاة عن خلقي وأسكنهم في الهواء وفي أقطار الأرض، وأجعل بين الجن وبين

(١) سورة البقرة ٣٠.

(٢) الوسائل ١٢٨/٢ طبعة حجرية.

﴿٥٦﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

خلقي حجاباً، فقالت الملائكة يا ربنا إفعل ما شئت فباعدهم الله من العرش مسيرة خمسمائة عام فلاذوا بالعرش وأشاروا بالأصابع.

فنظر الرب إليهم ونزلت الرحمة، فوضع لهم البيت المعمور، فقال طوفوا به ودعوا العرش فطافوا به وهو البيت الذي يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ولا يعودون إليه ابداً، فوضع البيت المعمور توبة لاهل السماء ووضع الكعبة توبة لاهل الأرض - إلى أن قال - ثم قبض الله سبحانه طينة آدم وأجرى فيها الطبايع الأربع الريح والدم والمرة والبلغم، فلزمه من ناحية الريح حب النساء وطول الأمل والحرص، ولزمه من ناحية البلغم حب الطعام والشراب والبر والحلم والرفق، ولزمه من ناحية المرة الغضب والسفه والشيطنة والتجبر والتمرد والعجلة، ولزمه من ناحية الدم حب النساء واللذات وركوب المحارم والشهوات^(١).

والآية وثيقة سماوية خالدة تحكي بدايات خلق آدم ﷺ وما رافقه من تعجب الملائكة وطلبهم البيان ليكون مدرسة عقائدية يدرك من خلالها الانسان اكرام الله تعالى له في خلقه، وتولييه عمارة الأرض بالعبادة والصلاح ولزوم قهره للشيطان، في المقارنة الإيمانية التي ذكرها الملائكة بين إفساد الانسان وانقطاعهم إلى العبادة إخبار عن عدم تأثير إغواء الشيطان عليهم بخلاف بني الإنسان.

وهذه الآية مدرسة عقائدية يحتاج الإنسان التزود منها، فالملائكة هم الذين يقومون بنقل الوحي إلى الأنبياء وهم الواسطة بين الله عز وجل وبين الأنبياء، ومن المسائل الكلامية في هذه الآية : ما المراد من الملائكة المخاطبون فيها، وفيه وجوه منها:

الأول : عموم الملائكة، وهو المنسوب إلى المشهور والمختار، لأصالة الإطلاق، وقد عرف الإطلاق بأنه ما دل على شائع في جنسه، واصله

(١) علل الشرائع ١٠٦/١.

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿٥٧﴾

من المعنى اللغوي وهو الإرسال، فكما تكون الدابة في اللغة تارة مرسلة واخرى مقيدة، فكذا الاطلاق يقابله التقييد، فالمطلق يكون له معنى شامل لأفراده ومصاديقه، ومع عدم وجود دليل على التقييد يحمل الكلام على إطلاقه.

الثاني: إنهم الملائكة الذين كانوا محاربين مع إبليس لأن الله تعالى لما أسكن الجن الأرض، فأفسدوا فيها وسفكوا الدماء وقتل بعضهم بعضاً بعث الله إبليس في جند من الملائكة فقتلهم إبليس بعسكره حتى أخرجوهم من الأرض والحقوهم بجزائر البحر ، فقال تعالى لهم ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، رواه الضحاك عن عبدالله بن عباس أي أن الملائكة إستصبحوا فعل الناس ممن سبق آدم عليه السلام. ويناقش من وجوه:

الأول: كيف يحكمون على المعدوم ويقيسونه بالموجود.

الثاني : ارسال الملائكة مع إبليس يحتاج إلى دليل ، وإن كان عابداً متنسكاً في الجنة.

الثالث: جاء قوله تعالى ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ أمراً تأسيسياً، وليس فيه دلالة على تعلقه بخلق سابق في الأرض.

الرابع: ورد في الآية السابقة قوله تعالى ﴿خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾^(١)، في خطاب لبني آدم، وهو مقدمة لخلق الانسان ، ومع هذا فإن الحديث أعلاه ممكن من حيث الدلالة.

الخامس : الخطاب الإلهي موجه إلى جماعة من الملائكة.

السادس : الخطاب لجميع الملائكة ولكن الذي رد جماعة قليلة منهم وهو الأظهر، فلقد أراد الله عز وجل بخلق آدم آية للملائكة ولجميع

﴿٥٨﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

الخلائق، والأكثر من الملائكة تلقوا الأمر بالتسليم ، ولكن جماعة منهم قاموا بالرد إستخباراً.

وكما اختلف في المقصود من الخليفة، وهل هو آدم، أم ذريته، أم الأنبياء، اختلف في عائدة الخلافة ومعناها على أقوال:

الأول : إن آدم عليه السلام خليفة لله في أرضه يحكم بالحق إلا انه تعالى كأن أعلم ملائكته أن يكون من ذريته من يفسد فيها، عن ابن عباس وابن مسعود^(١).

الثاني: آدم خليفة للجن الذين كانوا يسكنون الأرض قبله، نسب إلى ابن عباس.

الثالث: يخلف آدم الله في الحكم بين المكلفين من خلقه، روي عن ابن مسعود وابن عباس والسدي، وقال الرازي وهذا الرأي منا يتأكد بقوله ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾^{(٢)(٣)}.

ولكن الآية تدل على أن الحكم بين الناس أحد افراد ومصاديق الخلافة في الأرض، وقد تكون خلافة آدم أعم من خلافة داود كما يمكن الجمع بينهما ليس بتقييد إطلاق خلافة آدم بموضوع خلافة داود، بل بالجمع وإفادة التعدد لسعة رحمة الله تعالى وللإستقراء من مضمون إحتجاج الملائكة، بالاضافة إلى إرادة ذكر فرد من أفراد خلافة داود وهو الحكم بين الناس بالحق، فهو لايتعارض مع عموم الخلافة، خصوصاً وأن داود كان نبياً ويوحى اليه، كما جاهد في سبيل الله وتولى الملك، والخلافة الشخصية لآدم ظاهرة في أيامه لأن أبنائه منقادون له في الجملة أباً ونبياً ، وأن حدث خلاف هذه القاعدة وقيام قابيل بن آدم بقتل أخيه هابيل ، وهو قضية في

(١) مجمع البيان ٧٤/١.

(٢) سورة ص ٢٦.

(٣) مفاتيح الغيب ١٦٥/٤.

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿٥٩﴾
واقعة لا تضر بأصل القاعدة.

وقاتل داود النبي في أيامه بنفسه وخاض المعارك، وهو لا يمنع من
صدق الخلافة للنص القرآني الثابت ، ولكنه يدل على عدم الإنطباق التام
في أفرادها أو ذكر بعض أفراد الخلافة كما تقدم وهو لأرجح.

الرابع : عني بالخليفة ولد آدم لأن الناس يخلف بعضهم بعضاً، على
القول بأنه المراد من الخلافة، وهو قول الحسن البصري^{(١)(٢)}.

(١) مجمع البيان ٧٤/١.

(٢) والحسن هو الحسن بن يسار البصري يكنى أبا سعيد، وذكر انه مولى زيد بن
ثابت الانصاري واخو سعيد وعمارة، وامهم خيرة مولاة أم سلمة، ويقال أن
أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وآله وسلم كانت تأخذ الحسن إذا بكى
فتسكت به شديداً، فكان يدر عليه وأن الحكمة التي رزق من ذلك، ومات
الحسن سنة مائة وعشرة وله تسع وثمانون سنة.

وروى ابو بكر الهذلي: (أن رجلاً قال للحسن بأن هناك من زعم انك تبغض
علياً عليه السلام فأكب بيكي طويلاً ثم رفع رأسه فقال: لقد فارقكم بالأمس رجل
كان سهماً من مرامي الله عز وجل على عدوه رباني هذه الأمة وشرفها
وفضلها وذو قرابة من النبي صلى الله عليه وآله وسلم قريبة لم يكن بالنومة
عن أمر الله ولا بالغافل عن حق الله ولا بالسروقة من مال الله، أعطى القرآن
عزائمه فيما له وعليه فأشرف منها على رياض موقنة وأعلامه مبينة، ذلك
علي بن أبي طالب يا لكع). وكان الحسن البصري إذا أراد أن يحدث في زمن
بني أمية عن علي قال: قال ابو زينب.

وعن كتاب بن سليم بن قيس الهلالي أن الحسن جليل القدر وعظيم الشأن،
وكان يتقي من زياد بن أبيه وابنه عبيد الله والحجاج، واعتبر من الزهاد
الثنائية. ونقل عن الكشي وغيره أن الحسن البصري كان يلقي الناس بما
يهوون ويتصنع للرياسة، واعتزله واصل بن عطاء، ولما سئل لم تركت
مذهب صاحبك ودخلت فيما لا اصل له ولا حقيقة، قال: أن صاحبي كان
مخلطاً كان يقول طوراً بالقدر وطوراً بالجبر وما اعلمه اعتقد مذهباً دام
عليه.

وقال السيد المرتضى: أحد من تظاهر من المتقدمين بالعدل الحسن بن أبي
الحسن البصري.

﴿٦٠﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

تضاف لها أقوال:

الخامس : الخلافة في الأرض بعنوانها المجرد من غير صفات إعتبارية زائدة.

السادس : الخلافة على الناس في الأرض وما على ظهر البسيطة من الدواب والأشجار والجواهر والنبات.

السابع : نال الانسان الخلاف بالنبوة ونزول الوحي من السماء الذي هو شاهد على الصلة بين الله تعالى والانسان .

ويأتي نزول القرآن ليكون حبلاً متصلاً ودائماً بين الله تعالى والناس ، لذا ورد الخطاب الإلهي للمسلمين بالتمسك بالقرآن ﴿وَاَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾^(١).

وعن التقريب: ثقة فقيه فاضل مشهور، وكان يرسل كثيراً أي يروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من غير ذكر الواسطة والصحابي الذي سمع عنه، والإرسال عنوان لضعف الحديث، وكان يروي عن جماعة لم يسمع منهم ويقول حدثنا، ومرسلات الحسن أمر شائع وربما اعتذروا عنها بالنقطة لأنه سمعها عن علي عليه السلام وسماعه عن علي لتلك الأحاديث يحتاج إلى دليل.

وكان واصل بن عطاء يجلس إلى الحسن البصري فلما ظهر الاختلاف وقالت الخوارج بتكفير مرتكب الكبائر وقالت الجماعة بانهم مؤمنون وأن حكم عليهم بالفسق بسبب سوء فعلهم واثباتهم للكبائر، قال واصل بن عطاء أن الفاسق من هذه الأمة لا مؤمن ولا كافر بين المنزلتين، فطرده الحسن عن مجلسه واعتزل عنه ومن ذلك الحين ظهرت المعتزلة وجلس إلى واصل عمرو بن عبيد.

وذكرت في مدحه وجوه منها انه لم ييخل بما رزقه الله تعالى من العلم والمال لكل من طلبه منه، وانه كان يستغني بعلمه عن الناس ، ولم يأمر احداً بشئ حتى عمله.

(١) سورة آل عمران ١١٠.

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿٦١﴾

الثامن : الخلافة للعبادة والتقوى لكي لا يكون هذا الجرم والخلق العظيم وهو الأرض خالياً ممن يعبد الله ، وجعل الله تعالى الملائكة يعبدونه في السماء ، وللتباين بين السماء والأرض فإن الله سبحانه خلق خلقاً آخر مغايراً للملائكة وهم الناس ليعبدوه في الأرض ، واختلفوا عن الملائكة بانهم من نفس واحدة بالتوالد والتكاثر ، وأن الأرض لهم دار إبتلاء وإمتحان ، وأعد الله للمؤمنين الذين يعملون الصالحات جنات النعيم، وللكفار العذاب الأليم.

والصحيح هو الأول، وهو المتبادر من اللفظ والمنسب إلى الأذهان ولأمر الله تعالى للملائكة بالسجود لآدم، وما أنعم الله تعالى به على الإنسان من السعي والإجتهاد والتصرف في الأرض، مع التقييد بالتقوى والصلاح، وإلحاق الأنبياء والصالحين به في موضوع الخلافة لإفادة ظاهر الآية الإستدامة في موضوع وأحكام الخلافة ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(١).

والأقوى أن الخلافة في الأرض على ثلاث شعب:

الأولى: شخصية وهي خلافة آدم عليه السلام.

الثانية: خاصة وهي خلافة الأنبياء .

الثالثة: نوعية عامة وهي خلافة الانسان مطلقاً إكراماً له لأن الله عز وجل نفخ في آدم من روحه وجعل الانسان مؤهلاً للتكليف والعبادة ولتكون الخلافة حجة.

وهذه الخلافة من الكلّي المشكك فالخلافة الخاصة مختلفة عن النوعية العامة وكل واحدة منهما يصدق عليها انها خلافة ، والثانية في طول الأولى وليس في عرضها.

﴿٦٢﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

لذا ورد قول الملائكة ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ وهم يعلمون عصمة آدم والأنبياء، ويمكن أن يقال أن قول الملائكة لا يتعلق بشخص الخليفة بل بمن سيسكن الأرض، لأن موضوع الجعل الذي إستخبروا وسألوا عنه أعم من الخلافة، فهم لم يعترضوا على أصل الخلافة بل عما يرافقها من المفساد العرضية، أي انهم يسلمون بأمر الخلافة وعظيم حكمة الله عز وجل فيها، ولعلمهم سألوا الرحمة للإنسان باعنته على التخلص من الإفساد في الأرض ليكون مرآة لعالم الملكوت، ولتتنزه الأرض من الخطايا كما تنزهت السماء منها، إنه عالم الرحمة والعفو والفضل الإلهي. ومن الإعجاز إنفراد الإنسان بالخلافة، فالملائكة مع عظيم خلقهم لم يكونوا خلفاء الله في الأرض ولا في السماء.

والخلافة وردت في الآية للدلالة على الإكرام والتشريف وعظيم المسؤولية في تعاهد التوحيد في الأرض، وهي فضل عظيم تغبط الخلائق الإنسان عليه، وموضوع وحكم يملئ على الإنسان عمارة الأرض بالتقوى. ترى هل خلافة الإنسان في الأرض تتعلق بالنشأة الأولى أم تشمل معها النشأة الآخرة، ظاهر الآية انها تتعلق بالأولى أي الحياة الدنيا ولكن هذا لا يمنع من تجلي أسباب الخلافة في الآخرة بإكرام الأنبياء والمؤمنين بالدرجات العلى في الجنة، خصوصاً وأن الجنة ﴿عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾^(١).

ومن مفاهيم الخلافة في الأرض أصالة الإباحة، وعدم وجود حواجز قاهرة دون إنتفاع الإنسان من الأرض، وإستثمار كنوزها، لذا تراها تعطي كل شئ من غير أن تأخذ من الإنسان شيئاً إلا عند إنقطاع أيامه فيها وحلول الأجل فانها تسترده ليدفن فيها وتحفظه إلى يوم النشور. ويحتمل هذا الحفظ وعودة الإنسان الى الأرض عند الموت وجوهاً:

(١) سورة آل عمران ١٣٣.

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿٦٣﴾

الأول: إنه من عمومات الخلافة في الأرض.

الثاني: خلق الله الإنسان من الأرض، ويعيده لها بعد الموت.

الثالث: إنه من اللطف الإلهي بالإنسان حياً وميتاً كما في قتل قابيل

لأخيه هابيل وبعث الله عز وجل غراباً قال تعالى ﴿لِيرِيَهُ كَيْفَ يُؤَارِي سَوَاءَ أَخِيهِ﴾^(١).

الرابع: دفن الإنسان في الأرض مقدمة لبعثه يوم النشور.

الخامس: الدفن مناسبة للحساب الابتدائي في عالم البرزخ.

والصحيح هو الثاني والثالث، قال تعالى ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا

نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾^(٢).

لتكون الإعادة من الإرادة التكوينية ولكنه لا يتعارض مع الوجوه الأخرى إذ تدل مجتمعة على الحكمة الإلهية ومن وجوه الخلافة في الأرض السياحة فيها، فليس من حواجز بين الإنسان وبين بقاع الأرض المترامية الأطراف والارتفاع الأمثل منها، واستخراج كنوزها، لبيان الفضل الإلهي على الإنسان، وأنه سبحانه يعطي بالأوفى والأتم، وإتمام الحجة على الإنسان، وتجلي معاني اللطف الإلهي عليه ليكون مقدمة وسبباً لتوجهه إلى عبادة الله والإخلاص في العبادة.

ال خليفة فعيلة بمعنى فاعل ومن مصاديقها في الآية وجوه:

الأول : صيرورة آدم خليفة للجن الذين كانوا يعمرون الأرض قبله.

(١) سورة المائدة ٣١.

(٢) سورة طه ٥٥ .

﴿٦٤﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

الثاني : الناس خلفاء الجن في الأرض وعمارتها، فلفظ خليفة مفرد والمراد منه الجمع لأنه اسم جنس، كما في قوله تعالى ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾^(١) أي أنهار.

الثالث : إذا مات آدم يخلفه من بعده أبناؤه وذريته، فهو فعيله بمعنى مفعول.

(وأخرج ابن أبي حاتم وابن عساكر عن أبي جعفر الباقر قال : السجل ملك ، وكان هاروت وماروت من أعوانه ، وكان له كل يوم ثلاث لمحات ينظرهن في أم الكتاب ، فنظر نظرة لم تكن له ، فأبصر فيها خلق آدم وما فيه من الأمور فأسر ذلك إلى هاروت وماروت ، فلما قال تعالى : { إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها } قال : ذلك استطالة على الملائكة)^(٢).

علم المناسبة

ورد لفظ خليفة في القرآن بصيغة المفرد مرتين ، وبصيغة الجمع (خلفاء) ثلاث مرات، و(خلائف) أربع مرات كما تقدم، وكلها تتعلق بالإنسان، وهذا الحصر تشريف إضافي، وتوكيد بأن الله عز وجل لم يتخذ خليفة من بين الخلائق إلا الإنسان، وهو من أسرار فلسفة نفخ الله تعالى في آدم من روحه.

ولابد من تدبر الدروس والعبر من هذا النفخ القدسي المبارك، ومنها أنه تأهيل للخلافة في الأرض، والإتصاف بالعقل والقدرة على إتيان الأفضل والأحسن، والتغلب على الشهوة والغضب، وإختيار الصبر والشهادة في سبيله تعالى وإدراك حتمية الرجوع إليه سبحانه.

(١) سورة الحجر ٤٥.

(٢) الدر المنثور ١٠٨/٧.

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿٦٥﴾

وباستثناء الآية محل البحث فإن الآيات الثمانية الأخرى جاءت كلها بصيغة الخطاب للناس، والمفرد جاء لخطاب داود عليه السلام في بيان ودلالة على الخلافة الشخصية من غير تعارض بينها وبين الخلافة النوعية، لأن موضوع الخلافة لا يخرج عن سنن الإمتحان والاختبار لبني آدم في الحياة الدنيا، بل هو من مصاديق الخلافة.

بحث بلاغي

من ضروب البديع (المراجعة) وهو بيان لمحاورة بين المتكلم وغيره بأعذب الألفاظ، وأوجز عبارة كما في قوله تعالى ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلَكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ^(١)﴾.

وجاءت الآية محل البحث لأسمى وأبهى حوار لأنه بين الله وملائكته بخصوص الإنسان وفي موضوع الخلافة إذ يتضمن الإخبار والمشية والإستفهام، وبيان علة الإستفهام والتي تتعلق بذات الموضوع، وثناء الملائكة على أنفسهم بخصوص طاعتهم وعبادتهم لله، فليس من ثناء في حضرة القدس إلا بالطاعة والإخلاص في العبادة، والرد والبيان من عند الله بالحجة والبرهان القاطع، وإبتدأت الآية بالخطاب من الله عز وجل للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ وفيه تشريف وإكرام له، وإشارة إلى أنه خليفة في الأرض .

وتنحل جهة الخطاب بعدد المسلمين والمسلمات وتقديره (إذ قال ربكم للملائكة) في بيان المنزلة العظيمة التي جعلها الله عز وجل للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بين الخلائف وهو خاتم النبيين.

قوله تعالى ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾

جعل من أفعال التحويل وأفعال القلوب، ولكن أصل الجعل حسي يقال: جعل الشيء يجعله جعلاً أي وضعه، وجعله صنعه وجعله صيره، يقال جعل الطين خزفاً أي صيره، والمراد في المقام الوضع.

تري لماذا هذا الإستفهام من الملائكة ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ وهل هو إستفهام إستتكري أم انه إستعلامي وسؤال إستخبار ومعرفة وجه المصلحة؟ الجواب: هو الأخير ، للأصل الثابت أن الملائكة دائبون على الطاعة والتسبيح، ولكنه لا يمنع من القول بأن ما جعله الله لآدم من المنزلة السامية هال وأفرع الملائكة، مع علمهم انه تعالى عالم لا يفعل الا الأفعال المحكمة ، كما انهم يحسون ويشاهدون آياته ومخلوقاته، فقالوا ذلك على وجه الإقرار والإيجاب وإن خرج مخرج الإستفهام.

ولم يكن قولهم ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ إنكاراً ورد خلافاً لأداب الطاعة الملازمة لهم والظاهرة دائماً على أفعالهم بل انه لم يخرج عن صيغ العبودية ، ويؤول على وجه من وجوه الطاعة وفيه سعي لتحصيل الصيغة المناسبة منها، وطلب بيان وسؤال إستفهام كي لا يقصروا في دأبهم على الطاعة والتسبيح، وهو الظاهر عقلاً وسمعاً.

وكلام الملائكة وما فيه من الإستفهام والتعجب: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾^(١) يفيد إرادة المعنى الأعم للخلافة، فكان آدم عليه السلام نبياً، نزل إلى الأرض بتوبته معصوماً منزهاً عن الخطأ، وليس في وجوده في الجنة سفك للدم.
وفي هذا السؤال وعلته مسائل:

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿٦٧﴾

الأولى : إن الملائكة إطلعوا على ما ستفعله ذرية آدم من المعاصي إجمالاً فسألوا رجاء الإطلاع على وجوه الحكمة وأسرار الخلق.

الثانية : روي عن عبدالله بن مسعود وغيره انه لما قال الله تعالى للملائكة ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ قالوا ربنا وما يكون الخليفة، قال تكون له ذرية يفسدون في الأرض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضاً، فعند ذلك قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا.....﴾ الآية أي أنهم سألوا عن الذي يفسد من ذرية آدم.

الثالثة : قال الإمام الرازي: لما كتب القلم في اللوح ما هو كائن إلى يوم القيامة فلعلهم طالعوا اللوح فعرفوا ذلك ^(١)، وأصل الإطلاع على اللوح ليس من الممتع، والله هو الواسع الكريم، الا أن الإطلاع وحده يصلح أن يكون سبباً لهذا القول والإستفهام وتعرضهم للسؤال عن الأسماء، بل بالعكس أن طول الملابس للأمر تجعلهم أكثر ميلاً للقبول.

الرابعة : أنهم قاسوه على حال الجن الذين كانوا قبل آدم عليه السلام في الأرض ، وهو المروي عن ابن عباس ^(٢)، وظاهر كلامهم انه يتعلق بمستقبل الأيام، وخاص بمن يجعله الله خليفة خصوصاً مع علو منزلة الملائكة، ومن المستبعد أن يقيسوا الغائب بحاضر ليس من جنسه، كما أن وجود الجن في الأرض أعم من الخلافة فليس من دليل على خلافة الجن، والأصل هو عدم الخلافة، لأن الخلافة أعم من السكن والإقامة في الأرض.

الخامسة : أن الخليفة للحكم والتنازع وفك الخصومة ، وهذا يعني بالدلالة الإلتزامية وقوع الخلاف والفساد.

السادسة : إن الله تعالى تفضل بإخبار الملائكة أنه إذا كان في الأرض خلق عظيم أفسدوا فيها وسفكوا الدماء.

(١) مفاتيح الغيب ١/٤٤٦.

(٢) مفاتيح الغيب ١/٤٤٦.

﴿٦٨﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

السابعة : إن الله سبحانه (لما خلق الله النار ذعرت منها الملائكة ذعراً شديداً وقالوا : ربنا لم خلقت هذه؟ قال : لمن عصاني من خلقي)^(١)، ولم يكن يومئذ خلق غير الملائكة، فلما قال ﴿ اَنِىْ جَاعِلٌ فِى الْاَرْضِ خَلِيْفَةً ﴾ عرفوا أن المعصية منهم، والنصوص تؤكد أن خلق الجن كان قبل خلق آدم وكان إبليس موجوداً يوم خلق آدم وهو من الجن.

الثامنة : القائل هو إبليس ومن كان معه في محاربة الجن، فإن الله تعالى أسكنهم الأرض وبعد أن افسدوا فيها بعث إليهم إبليس في جند من الملائكة فدمرهم وفرقهم في الجبال والجزائر، نسب إلى ابن عباس^(٢). وأخبرت هذه الآية عن قول للملائكة ثم انهم أعقبوه بالإعتذار والتلطف والتقرب إلى الله عز وجل، وإبليس بادر إلى المعصية حينما شمله خطاب السجود.

التاسعة : أن الملائكة نظروا إلى آدم وهو لا زال جسداً لم تنفخ فيه الروح وأدركوا بالنظر الملكوتي إجتماع العناصر الأربعة في صفات بشرية. وقال بعض الحشوية بأمور:

الأول: جواز صدور الذنب من الملائكة.

الثاني: إعتبروا قولهم هذا إعتراضاً على الله، وعدّوه من أعظم الذنوب.

الثالث: قالوا بأن نسبة بني آدم إلى القتل والفساد من الكبائر لأنه غيبة.

الرابع: مدح الملائكة أنفسهم بقولهم ﴿ وَخَسِىَ نُسُجُ بِحَمْدِكَ ﴾.

(١) الدر المنثور ٦٦/١.

(٢) انظر تاريخ الطبري ١٠٨/١.

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿٦٩﴾

أما الأول فلا دليل على ذنب الملائكة، والقرآن يفسر بعضه بعضاً، وقد وردت الآيات بمدح الملائكة وعصمتهم من الذنب والزلل مطلقاً ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾^(١).

وأما الثاني فإنصيغة الإعتراض لم تثبت في كلام الملائكة لإحتمال الوجوه الأخرى من مقاصد السؤال كما تقدم، ولإستصحاب طاعتهم في المقام.

وأما الثالث فإنه لم تثبت الغيبة في كلامهم لوجوه:
الأول : الناس لم يوجدوا بعد، ولا غيبة لمن لم يوجد إلا أن يدل دليل على الخلاف.

الثاني : من الناس من يكون متجاهراً بالفسق والفساد.
الثالث : إطلعت الملائكة على أفعال الذين يفسدون في الأرض من بني آدم.

الرابع : جاء كلام الأنبياء على سبيل منع حدوث الفساد.
وهل قيد وجود سامع بقصد إخباره منجز في المقام اذ انه ليس من مكلف يسمع القول فيه وجهان، الأقوى عقلاً وشرعاً صحة القيد ولكن السامع أعم من المكلف، والآية أجنبية عن موضوع الغيبة، وخارجة عنه بالتخصص.

وأما الرابع فإن مدح الملائكة لأنفسهم إقرار بعظيم فضل الله عز وجل عليهم، ورضاهم به ولعل في مدحهم لأنفسهم مقدمة لشفاعتهم للذين يلومونهم على مدح أنفسهم.

ولم تعلم الملائكة أن الله سيصطفي نقرأ من خلقه، يتعاهدكم بالنبوة والوحي والتنزيل لتتقاد لهم الأمم، وإن كان ظاهراً من لفظ (خليفة)

﴿٧٠﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

لعمومات ومضامين الخلافة، وإن جاء السؤال عن أهلية الإنسان لمنازلها ولكن الإصطفاء إصلاح له .

وينزل الملائكة على الأنبياء بالبشارة المباركة من عند الله تعالى، كما في البشارة بإسحاق ويحيى وتحديث الأنبياء والأولياء ومنهم مريم مع أنها امرأة، ولكن لها منزلة عظيمة لشأنها وعبادتها، ولولادتها لعيسى عليه السلام ، قال تعالى ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾^(١).

ويتضمن سؤال الملائكة ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ الرجاء بسماع ومعرفة الحكمة الإلهية في تعيين واختيار آدم عليه السلام خليفة في الأرض كي يكون الرد الإلهي حجة عليهم وعلى الخلائق في أهلية آدم خليفة في الأرض، وكأنهم أرادوا السجود لأدم عن إدراك لإستحقاقه للخلافة وللسجود له، مما يعني أن قولهم أتعجل فيها ليس إحتجاجاً، إنما هو سؤال وتوسل لمعرفة علة هذا الجعل، وما فيها من الحجة والأسرار العظيمة، في بديع قدرة الله، وكان تقدير الأمر بالسجود لأدم هو: إسجدوا لمن تعلمون أنه يعمر الأرض بالعبادة والصلاح.

بحث بلاغي

قوله تعالى ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ الهمزة للإستفهام وجاءت هنا للإسترشاد، أي انهم سألوا طالبين الرشاد والهداية والفهم، وقيل انها هنا للتعجب. ومنهم من ضعفه، وقيل للدعاء، وانهم لم يستفهموا لأن الله تعالى قال ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، ولكنه لا يمنع من تعلق كلامهم بفعل الانسان، وليس بأصل الخلافة.

(١) سورة آل عمران ٤٢.

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿٧١﴾

وقيل أن المعنى: (أتجعلهم فيها أم تجعلنا)، وهذا القول بعيد لأن ظاهر الكلام يدل على معرفتهم بأن المراد من الخليفة غيرهم، وهذه المعرفة جزء من علمهم بوظائفهم وعظيم منزلتهم وسمو مقامهم بأن كانت السماء مسكناً لهم.

ولا مانع من اجتماع الأمرين للدلالة على عظيم قدرة الله تعالى، وعجز الملائكة عن الإحاطة ببيد صنع وسعة رحمته وفضله على الإنسان، ليكون حجة على بني آدم في لزوم الطاعة وحسن الإمثال.

وبذا تتجلى في بلاغة القرآن علوم كلامية ومسائل عقائدية تجعل من بلاغته معجزة مستقلة لا تنحصر بالفصاحة والألفاظ فقط، بل تشمل الوجوه المتعددة والمتكثرة والمتفرعة عن بلاغته مما ينفرد به ويفوق قوانين وثوابت وضع الألفاظ أزاء معانيها.

والملائكة دائبون في التسبيح ولا بد أنهم إستبشروا بخلق آدم ﷺ وحصول انعطاف تكويني وتشريعي بتأسيس عبادته تعالى في الأرض وإمتثلوا غبطة بقرب بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وملا الأرض بنداء التوحيد، لذا يحتمل سؤالهم الإصلاح للإنسان أي أن نصب الخليفة لا يليق به إلا بمن تنزه عن الذنوب والخطايا، وانهم سألوا الله عزو جل ذلك للإنسان مطلقاً .

وتقدير الآية: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء فاجعلهم كلهم مؤمنين عابدين مثلنا ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك).

قوله تعالى ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾

لقد أخبرت الملائكة عن طاعتها لله عز وجل عندما نظرت إلى أفعال بني آدم وغلبة الشهوة عند بعضهم، في بيان لعظيم فضله تعالى عليهم وفي الآية مسائل:

الأولى : بيان حسن سمت الملائكة ومواظبتهم على التسبيح بدأب

وتسليم.

الثانية: الإخبار بأن التسييح والتقديس وعموم وجوه الطاعة تستحق الجزاء ومن حق صاحبها أن يتطلع إلى الثواب.

الثالثة: يمكن توجيه المسألة على نحو آخر أيضاً وهو أن الملائكة ذكرت طاعتها لله فهي وسيلة للشفاعة لبني آدم بالتقرب في المسألة بالشكر له تعالى على ما هداهم، وانهم سألوا الله عز وجل الهداية والعصمة لهذا الخليفة في الأرض كي تكون أعمال بني آدم في الأرض مشابهة لأعمال الملائكة في السماء.

الرابعة: تسييح الملائكة فيه وجوه:

الأول: النطق بالحمد لله.

الثاني: الإتيان بالتسييحات سواء التسييحات الأربعة (سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر) أو التسييحة الصغرى (سبحان الله) أو صيغ أخرى للتسييح.

الثالث: الصلاة والإنقياد لله عز وجل.

الخامسة: بعد أن جاء التسييح من الملائكة عنواناً للذكر والثناء على الله، ومتضمناً معاني التنزيه والإجلال، ونفي صفات النقص عنه سبحانه، جاء إستفهامهم، ولا يعني هذا بالضرورة ان الملائكة أرادوا الخلافة لأنفسهم كما قال بعضهم لتسليمهم بأن الله تعالى منزّه عن العبث وانه الحكيم بدليل ما قدموه من الثناء وصدق العبودية ومراتب الذل والخضوع لله تعالى. ويعلم الملائكة أن الله شرفهم وأكرمهم بأن خصهم بالإخبار عن إتخاذه خليفة في الأرض.

السادسة: وكما يمكن أن تكون هذه الكلمات من الملائكة شفاعة لبني آدم فإنها تصلح أن تكون إعتذاراً وأدباً وخضوعاً لمقام الربوبية وتوكيداً، بانهم لم يستفهموا إعتراضاً أو إنكاراً، لقد بادروا إلى الإقرار بصفة العبودية والعجز عن معرفة كنه علمه سبحانه.

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿٧٣﴾

السابعة: لم يذكر الملائكة خلق آدم من الطين، ولم يحتجوا بأن مادة خلقهم أفضل منها بمرتبة أو مراتب، لوجوه:

الأول: لا مدخلة لأصل الخلقة في التفضيل.

الثاني: علم الملائكة بأن الله عز وجل له أن يكرم ويعز من يشاء من خلقه، من غير أثر للأصل.

الثالث: يجهل الملائكة أصل خلقتهم، وأنهم خلقوا من النور.

الرابع: يعلم الملائكة أن أصل خلقتهم لا تختلف في المرتبة عن أصل خلقة آدم.

الخامس: جاء قول الملائكة بعد آيتين ﴿لَا عَلِمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْنَا﴾^(١)، وموضوع المقارنة في أصل الخلقة، والتفضيل بينه وبين أصل خلق آدم مما لا تعلمه الملائكة.

السادس: إنقطاع الملائكة للتسييح والتقديس لمقام الربوبية، كما تدل عليه هذه الآية، وقوله تعالى بعد آيتين حكاية على لسانهم (سبحانك). والصحيح هو الأول والثاني والخامس والسادس.

الثامنة: الإعراف الضمني بتفضيل الإنسان في باب الخلافة في الأرض وعمارتها بالهدى.

التاسعة: ﴿وَمَنْ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ جملة حالية، أي اننا حال تلبس الإنسان بالمعصية، دائبون في التسييح لا نغادر منازل التقديس والتنزيه لمقام الربوبية، وبه يمكن معرفة الإستفهام على التأذي من فعل ذرية آدم حال إشتغال الملائكة بالتسييح والتقديس.

العاشرة: إعلان الملائكة بأن ذكرهم لله تعالى مستمر في كل الأحوال وانه سبحانه تفضل عليهم، وجعلهم منقطعين إلى عبادته، لم يرتكبوا

﴿٧٤﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

معصية، ولم يتلوا مثل الإنسان بالامتحان في الأرض.
وتلك مقدمة للإستعداد والتهيؤ للسجود لآدم.

وفي الآية عبرة وموعظة بخصوص السؤال عن علل الخلق وأسرار الخليقة والحكمة التي تجري في أهل الأرض ، وما يصيبهم من الخير أو الأذى جماعات وأفراداً، لذا ترى أسئلة المسلمين التي وردت في القرآن بلفظ ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ خمس عشرة مرة في ثلاث عشرة آية مدرسة في الهداية والإرتقاء العلمي.

وقيل : كان في الأرض خلق يقال لهم الجان فافسدوا فيها فبعث الله ملائكة أجلتهم من الأرض، وكان هؤلاء الملائكة سكان الأرض من بعدهم، وأن الملائكة حينما قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا...﴾ قاسوا الغائب بالشاهد.

ونسب إلى ابن عباس القول: (كان في الأرض الجن فافسدوا فيها وسفكوا الدماء فاهلكوا فجعل آدم وذريته بدلهم)^(١).

وهو لا يتعارض مع إعتبار الوجوه الأخرى في تفسير الآية مع وجود دليل أو قرينة عليها، وأن قول الملائكة جاء بعد أن أطلعهم الله عز وجل على ما يفعل بنو آدم من المعصية والإقدام على القتل بغير حق.
وقول الملائكة هذا فيه مسائل ودلالات:

الأولى: الإستفهام على وجه التعجب الإستعلامي وسؤال الإستخبار ورجاء البيان ومعرفة المصلحة في خلافة الإنسان لا الإستفهام الإنكاري، خاصة وأن الملائكة تعلم أن الله عز وجل عالم لا يفعل إلا الأفعال المحكمة المتقنة، ومخلوقاته عندهم مشاهدة ومحسوسة بما فيها ذات الملائكة.

الثانية: وعن أبي عبيدة والزجاج انهم قالوا ذلك على وجه الإيجاب وأن خرج مخرج الإستفهام^(٢)، وهو حسن، ولا بد من التحقيق في أسبابه

(١) مجمع البيان ٧٤/١.

(٢) التبيان في تفسير القرآن ١٣٤/١.

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿٧٥﴾

والمقاصد الشريفة منه والمناسبة لمقام الملائكة ، وتشرفهم بحضور خلق آدم ، ونفخ الروح فيه ، وقيامهم بالسجود له ، طاعة وإمتثالاً لأمر الله عز وجل .
الثالثة: الانسان مركب من البدن والروح وقوى الشهوة والعفة ، والصلاح والفساد ، والخير والشر ، ونحوها من الأخلاط المتنافية المتضادة فيه تكوينياً ، فيكون عرضة للفساد وإرتكاب المحرمات ، بينما الملائكة عقل من غير شهوة .

الرابعة: لعل خلق الإنسان هو الوحيد الذي جرت فيه مثل هذه المحاورة لأهمية خلقه ، وما سيحتله من المنزلة في الأرض أن الملائكة تدرك بأن خلق الإنسان فيض من رحمته تعالى .

وفي أهلية آدم والإنسان مطلقاً للخلافة في الأرض وجوه:

الأول: لطاعته الله عن تكليف وإمتحان .

الثاني: جهاده للنفس الشهوية والغضبية .

الثالث: لنفخ الله عز وجل فيه من روحه .

الرابع: لوجود محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، والأنبياء بين الناس ، ولأن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم هو خليفة الله في عموم الأرض بعد بعثته ، وفاز بالإرتقاء وبلوغ المقام المحمود .

وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال : إن الله تعالى إذا أراد أن يخلق خلقاً للخلافة مسح يده على ناصيته^(١) ، وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : (خلق الله ثلاثة أشياء بيده: خلق آدم بيده وكتب التوراة بيده ، وغرس الفردوس بيده) ،^(٢) فقد شرف الله عز وجل آدم بخلق بيده وقال تعالى ﴿فَخَنَّا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾^(٣) ، وهو وحده من هذه

(١) الجامع الصغير ٢٥٥/١ .

(٢) كنز العمال ١٣١/٦ .

(٣) سورة الأنبياء ٩١ .

﴿٧٦﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع
الثلاثة يصدق عليه موضوع الخلافة، ويرتبط التنزيل والخلود في النعيم بآدم
وذريته وتعاهدهم لسنن وأحكام الخلافة.

قوله تعالى ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

في الآية مسائل:

الأولى: أن الله عز وجل يعلم وجوه المصلحة وأسباب الحكمة في إتخاذ
خليفة في الأرض.

الثانية: الآية إشارة إلى عجز الملائكة وقصورهم عن الإحاطة بالغيب.

الثالثة: إن الله تعالى لا يفعل إلا الأصلح والأتم والأكمل، وهو سبحانه
منزه عن القبيح.

الرابعة: إن خلق آدم إمتحان وإبتلاء للملائكة، ومن معهم وليكون
خلقه إستدراجاً وإظهاراً لما يضره إبليس من البغضاء والحسد.

الخامسة: إن الملائكة لم ينظروا أو يقفوا في إستفهامهم إلا عند أهل
الفسوق والشر من بني آدم على فرض إطلاعهم المتقدم عليها.

السادسة: إن الله عز وجل يعلم أن التوبة تدرك ابن آدم، وأن المدار في
الخلافة على بقاء كلمة التوحيد في الأرض عن إختيار، وغلبة للقوى
العقلية على القوى الشهوية والغضبية.

السابعة: إن علم ومعرفة الملائكة لفلسفة الخلافة في الأرض لم تكن تامة
وكاملة ، أي أن جوانب عديدة خفيت عليهم منها ، وهو ظاهر هذه الآية
الكريمة ، لذا يمكن القول بأن أسرار الإرادة التكوينية لا يعلمها إلا الله عز
وجل.

الثامنة: في الآية بشارة ودلالة على سيادة الهداية والرشاد ، وإنتشار
الإسلام.

التاسعة : لا تتعلق الخلافة بالإفساد وانما تتعلق بمعناها الأخص بالأنبياء
والأئمة وأهل الصلاح.

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿٧٧﴾

العاشرة: قد وردت الخلافة في القرآن بهذا المعنى في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾^(١).

الحادية عشرة: في الآية تأديب للناس بعدم السؤال عما غاب عن مدارك أوهامهم وأن يكتفوا برد علمه إلى الله عز وجل مع الإقرار بأن أفعاله تعالى كلها حكيمة وخالية من النقص والعيب.

سجود الملائكة

الملائكة خلق عظيم وكل واحد منهم آية وحجة تدل على عظيم قدرة الله تعالى وبديع صنعه، وليس لهم من عمل إلا العبادة والتسبيح ، قال تعالى ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾^(٢) ولا يتخلل أوقاتهم على مر الأزمان سكون أو قنوط أو وهن أو فراغ، دائبين بإستبشار على العبادة والذكر مع إحساس بالتقصير أزاء مقام الربوبية لما عرفوه من مقتضيات الشكر للخالق.

عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ما في السماوات السبع موضع قدم ولا شبر ولا كف إلا وفيه ملك قائم أو ملك ساجد، فاذا كان يوم القيامة قالوا جميعاً سبحانك ما عبدناك حق عبادتك، إلا أنا لم نشرك بك شيئاً^(٣).

وفي الصحيفة السجادية دعاء في الصلاة على حملة العرش وكل ملك مقرب ، يجسد عظيم خلقهم وكبير وظائفهم والمسالك المنتظمة لأعمالهم وعبادتهم.

وهيئات الملائكة مختلفة وبين بعضها البعض تباين كثير، ومن الملائكة ما

(١) سورة ص ٢٦.

(٢) سورة الأنبياء ٢٠.

(٣) مجمع الزوائد ٥١/١.

﴿٧٨﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

تبلغ عظمتها ما بين السماوات والأرض، كما ورد في حديث الإسراء، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ثم رأينا ملكاً قد إفتقرت رجلاه من الأرضين السفلى، وإفترق رأسه من السماء السابعة العليا، غلظ كل جناح من أجنحته مسيرة خمسمائة عام، وما بين كل جناحين مسيرة خمسمائة عام للراكب المسرع، ومن لدن رأسه إلى منتهى قدميه ممتلئ وجوهاً ونوراً، وفي كل جزء منه وجوه كثيرة يسبح كل لسان في هذه الوجوه بلغة أخرى، لا يشبه وجه وجهاً ولا لغة لغة، ولا عين عيناً.

ليس فيه عين إلا وفيه من البرق والنور ما لا يحصى، وفي جانب منه نور أحمر، وفي جانب نور أصفر، وفي جانب نور أخضر، وفي جانب نور أبيض وليس في جسده وفي أعضائه وريشه وبشرته وشعره جزء إلا وهو يسبح بتسبيح آخر، فيخرج كل يوم من تسبيحه بعدد ما خلق الله من الملائكة يسبحون، لو أراد أن يلتقم السماوات والأرض بلقمة واحدة لأطاق، لا يستطيع أحد من الملائكة أن ينظر إليه من نوره، لا جبرئيل ولا ميكائيل ولا الكروبيون.

وفي وصف إسرافيل ورد عن ابن عباس أنه قال: (قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أن ملكاً من حملة العرش يقال له إسرافيل، زاوية من زوايا العرش على كاهله قد مرقت قدماه في الأرض السابعة السفلى، ومرق رأسه من السماء السابعة العليا^(١)).

هؤلاء الملائكة على عظيم خلقهم ومنزلتهم القريبة من العرش، وتسبيحهم الدائم وطاعتهم المتصلة، توجه لهم الأمر الإلهي بالسجود لآدم ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾^(٢).

(١) الدر المنثور ٣٤٧/٥.

(٢) سورة البقرة ٣٤.

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿٧٩﴾

لقد جاء هذا التشريف العظيم والإكرام البالغ بعد أن تفضل الله سبحانه بخلق آدم بيده ونفخ فيه من روحه، وتدارك الملائكة وإعتذارهم وثبوت قصورهم عن الإحاطة بالغيب وأسرار الحكمة في الخلق، لذا ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: لما أن خلق الله آدم أمر الملائكة أن يسجدوا له، فقالت الملائكة في أنفسها: ما كنا نظن أن الله خلق خلقاً أكرم عليه منا، فنحن جيرانه، ونحن أقرب الخلق إليه، فقال الله: ألم أقل لكم أنني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون، فيما أبدوا من أمر الجان، وكنتموا ما في أنفسهم، فلاذت الملائكة الذين قالوا ما قالوا بالعرش.

(وورد مثله عن علي بن الحسين عليه السلام وزاد فيه: فلما عرفت الملائكة أنها وقعت في خطيئة، لاذوا بالعرش وأنها كانت من عصاة من الملائكة وهم الذين كانوا حول العرش لم يكن جميع الملائكة إلى أن قال عليه السلام: فهم يلوذون حول العرش إلى يوم القيامة^(١).

والسجود لغة الخضوع والتطامن والتذلل، وفي الإصطلاح وضع الجبهة على الأرض عبادة وطاعة لله عز وجل.

وفي سجود الملائكة وجوه :

الأول: كان سجود الملائكة بهيئة نوعية واحدة ، كما هو سجود المسلمين ، بوضع الجباه على الأرض طاعة لله عز وجل .

الثاني: إختلاف سجود الملائكة بعضهم عن بعضهم الآخر.

الثالث: كان سجودهم على المعنى اللغوي وهو الخضوع والإنقياد والتذلل.

الرابع: سجود الملائكة على المعنى الإصطلاحي والشرعي وهو وضع الجبهة على الأرض.

﴿٨٠﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

الخامس: مسمى السجود وما يرمز إليه من حركة أو فعل.
وظاهر الآية انه جاء بالمعنى الشرعي وبما يؤكد الخضوع والإنقياد، إلا انه لا يستبعد إختلاف سجود بعض الملائكة عن بعض لإختلاف هيئاتهم، والمندوحة في بيانهم لمعاني الخشوع والخضوع لله، والإجتهاد فيه.
لقد أدى الملائكة عليهم السلام السجود بأحسن كيفية ، ويدل عليه قوله تعالى (فسجدوا).

ولقدرة الملائكة على التلبس بأي هيئة حسنة يمكن القول أن سجودهم كان متشابهاً، إلا ما خرج بالدليل مثل الملك الذي يقوم بوظيفة كونية تستلزم هيئة مستديمة خاصة، والتشابه في سجودهم تعليم لآدم لكيفية السجود. وإظهار أسمى معاني الخضوع لله تعالى، وورد السجود في القرآن بالمعنى الأعم من وضع الجبهة على الأرض، كما في قوله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ^(١) ، وقوله تعالى ﴿ وَالتَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ^(٢) .

وورد في حديث عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: سجدت الملائكة لآدم ووضعوا جباههم على الأرض تكرمة من الله ^(٣). وفيه بيان لما بلغه تشريف وإكرام آدم من الدرجة والرفعة ووضع الملائكة جباههم على الأرض أي على الوضع الموازي لموضع القدمين، وحيث المستوى الذي يقفون، والظاهر إرادة الجنس في الألف واللام في لفظ الملائكة الوارد في الحديث فيكون عندئذ مجموع الملائكة إلا من خرج بالدليل.

ترى ماذا يعني سجود الملائكة لآدم، إنه طاعة وإنقياد لأمر الله ،

(١) سورة النحل ٤٩.

(٢) سورة الرحمن ٦.

(٣) الجزائري / قصص الأنبياء ٣٩.

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿٨١﴾

فالملائكة لا يعبدون الا الله عز وجل ويندرج سجودهم لآدم ضمن مصاديق عبادتهم لله عز وجل اذ انهم سجدوا له طاعة لله عز وجل وإمثالاً لأمره بعد أن تفضل سبحانه وأراهم الآيات في خلق آدم، وهو أمر يدل على بلوغهم مقامات الكمالات النفسية فمع دأبهم على التسييح والذكر آلاف السنين إنقادوا للسجود للمخلوق الجديد مع ما يحمله معه من أحوال ذريته وسوء فعلهم في الأرض، ولم يكن الإتياد في مثل هذه الحال أمراً هيناً لولا ملكة الطاعة والتزام العباداة .

وفيه درس للمؤمنين وحجة على الناس في ضرورة إتيان الفرائض والعبادات بغض النظر عن العلة أو الحكمة فيها، أو ما يتخللها من مشقة أو جهد.

وفي النصوص مجتمعة ومتفرقة بيان وتفصيل وتوكيد لطاعة الملائكة المطلقة لله سبحانه ، وفي وصف الملائكة والثناء عليهم على نحو الموجبة الكلية والعموم الإستغراقي والمجموعي قال تعالى ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾^(١)، وفيه دفع وهم ، وزجر عن تأويل سجودهم بغير سنن ونواميس الطاعة لله سبحانه ،

وعن يحيى بن أكثم^(٢) أن موسى بن محمد سئل عن مسائل فعرضت على علي بن محمد عليه السلام ومنه قال له: أخبرني أن يعقوب وولده سجدوا ليوسف وهم انبياء فأجاب : أما سجود يعقوب وولده فإنه لم يكن ليوسف

(١) سورة التحريم . ٦.

(٢) يحيى بن أكثم بن محمد التميمي أبو محمد (١٥٩- ٢٤٢) للهجرة يرجع في نسبه إلى اكثم بن صيفي من حكماء العرب. ولاه المأمون قضاء البصرة ثم القضاء في بغداد ثم قدمه في تدبير المملكة وعندما جاء المعتصم عزله عن القضاء حتى رده المتوكل ثم عزله سنة ٢٤٠ واستولى على أمواله. له مصنفات في الفقه وفي الأصول.. وقد ترجم ابن خلكان سيرته الشخصية.

﴿٨٢﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

انما كان ذلك منهم طاعة لله وتحية ليوסף، كما أن السجود من الملائكة لآدم كان طاعة لله وتحية لآدم فسجد يعقوب وولده ويوسف معهم شكراً لله لإجتماع شملهم، ألا ترى انه يقول في شكره في ذلك الوقت ﴿رَبِّ قَدْ أَتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ﴾^(١).

ومما عليه الإجماع انه لا يجوز السجود لغير الله على وجه العبادة لأنه شرك، إذن لابد من تأويل السجود في المقام وتفسيره بما يتناسب وهذه القاعدة الكلية ومنه أن آدم كان قبله لهم.

وكما روي عن الإمام الحسن بن علي في تفسيره عن آبائه عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم قال: لم يكن له سجودهم، يعني الملائكة لآدم، انما كان آدم قبله لهم، يسجدون نحوه لله عز وجل وكان بذلك معظماً مبجلاً ولا ينبغي لأحد أن يسجد لأحد من دون الله، يخضع له كخضوعه لله ويعظمه بالسجود كتعظيمه لله^(٢)، وبه قال أبو علي الجبائي وجماعة.

وقيل أن السجود في المقام كان بمعناه اللغوي أي الانقياد والخضوع لآدم وربما قواه مفهوم خلافة آدم في الأرض، ولكن المتبادر من السجود هو وضع الجبهة على الأرض بالإضافة إلى انه ليس من إنقياد وخضوع في الظاهر بين الملائكة وبين آدم وذريته، فكل له تكليفه ووظائفه والنبي صلى الله عليه وآله وسلم خاتم النبيين وسيد المرسلين، ومع هذا لم تنزل الملائكة لنصرتة في بدر وأحد إلا بأمر من الله عز وجل، وبعد إجهاده في الدعاء.

ترى هل يمكن فهم معنى آخر للسجود غير مذكور قد يستفاد من رفض إبليس السجود لآدم وقيامه باغوائه وإيذائه والتسبب بإخراجه من الجنة بعكس الملائكة اذ واطبوا على إكرام آدم وذريته أي أن معنى السجود هنا

(١) سورة يوسف ١٠١.

(٢) الوسائل ١ / ٣٩٥ طبعة حجرية.

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿٨٣﴾

هو الوفاق وكف الأذى واجتناب المكر؟ هذا ما لم يقل به أحد من علماء الإسلام وليس له دليل أو مدرك وهو خلاف المفهوم والثابت والمتبادر، وإنما طرحت هذا التساؤل هنا على طريقة الاستدلال غير المباشر، ولإقامة الدليل على أن السجود من الملائكة كأن فعلاً وخضوعاً.

لقد كان موضوع سجود الملائكة باب إبتلاء للناس حيث إحتج به المشركون في تعديهم إلى عبادة الأصنام ، وفي إحتجاج النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم على مشركي العرب انه قال لهم: لم عبدتم الأصنام من دون الله؟ قالوا نتقرب بذلك إلى الله.

وقال بعضهم، إن الله لما خلق آدم وأمر الملائكة بالسجود له فسجدوا له تقرباً لله كنا نحن أحق بالسجود لآدم من الملائكة ففاتنا ذلك فصورنا صورته فسجدنا لها تقرباً إلى الله كما تقربت الملائكة بالسجود لآدم إلى الله وكما أمرتم بالسجود بزعمكم إلى جهة مكة ففعلتم ثم نصبتم بأيديكم في غير ذلك البلد محاريب فسجدتم إليها.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله أخطأتم الطريق وضللتم (إلى أن قال) أخبروني عنكم إذا عبدتم صور من كان يعبد الله فسجدتم له أو صليتم ووضعتم الوجوه الكريمة على التراب بالسجود بها فما الذي بقيتم لرب العالمين؟ أما علمتم أن من حق من يلزم تعظيمه وعبادته أن لا يساوي عبيده؟ أرايتم ملكاً أو عظيماً إذا سويتموه بعبيده في حق التعظيم والخشوع والخضوع أيكون في ذلك وضع من حق الكبير كما يكون زيادة في تعظيم الصغير؟ قالوا: نعم.

قال: أفلا تعلمون انكم من حيث تعظمون الله بتعظيم صور عباده المطيعين له تزررون على رب العالمين إلى أن قال والله عزوجل حيث أمر بالسجود لآدم لم يأمر بالسجود لصورته التي هي غيره فليس لكم أن تقيسوا ذلك عليه؟ لانكم لا تدرون لعله يكره ما تفعلون، إذ لم يأمركم به؟.

﴿٨٤﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

ثم قال: أرأيتم لو أذن لكم رجل بدخول داره يوماً بعينه، ألكم أن تدخلوها بعد ذلك بغير أمره؟ أو لكم أن تدخلوا له داراً أخرى مثلها بغير أمره؟ قالوا لا قال فالله أولى أن لا يتصرف في ملكه بغير إذنه فلم فعلتم؟ ومتى أمركم أن تسجدوا لهذه الصور؟^(١).

ولقد جاهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في بيان موضوع السجود وأنه طاعة لله مما دون الفهم الخاطئ له وما يترتب عليه من آثار في عبادات الناس ومعاملاتهم فيما بينهم، وسجودهم بعضهم للبعض الآخر مخالف للشريعة كما أنه يؤدي إلى إتخاذه صيغة معتادة في التودد إلى الملوك والكبراء من باب الأولوية، مما قد ينتج عنه حالة من الكبرياء والتجبر عند المسجود له، وذل وخضوع عند الساجد مقرون بالإنقياد له، ونسيان ضرورة التوجه إلى الباري عز وجل في العبادة، وفي ثمرود وذمه واحتجاج إبراهيم عليه ورد قوله تعالى ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾^(٢).

وكان هذا الجهاد على شعب:

الأولى : تعليم الناس السجود لله وحده إلهاً وخالقاً ومعبوداً .

الثانية: النهي عن السجود لغير الله.

الثالثة : نهى الناس عن السجود للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم،

مع أنه أشرف الكائنات وسيد المرسلين، وفيه مسألتان:

الأولى: التوكيد للأجيال أن السجود لغيره من الناس والخلائق أيضاً لا

يجوز لقاعدة الأولوية، وإنتفاء المقتضي، ووجود المانع.

(١) الوسائل ١ / ٣٨٦.

(٢) سورة البقرة ٢٥٨.

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿٨٥﴾

الثانية: بيان صدق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وإخلاصه في العبودية لله تعالى، وجهاده في إمامة الناس من منازل الخضوع، والخشوع لله تعالى.

بالإسناد عن عبد الرحمن بن كثير عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوماً قاعداً في أصحابه إذ مرّ به بغير، فجاء حتى ضرب بجراحه الأرض ودعا، فقال رجل: يا رسول الله أسجد لك هذا البعير؟ فنحن أحق أن نفعل، فقال: لا، بل إسجدوا لله، ثم قال: لو امرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها، وفي رواية الحسن بن موسى الخشاب زاد أن هذا الجمل يشكو أربابه.

ولقد كانت صلة آدم عليه السلام مع الملائكة صلة ود إيماني خاصة وأن الله عز وجل أنعم على آدم بتعليمه الأسماء كلها، وفي العلل عن وهب قال: لما أسجد الله الملائكة لآدم عليه السلام وأبى إبليس أن يسجد قال له ربه عز وجل: أخرج منها، ثم قال عز وجل: يا آدم انطلق إلى هؤلاء الملائكة فقل السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فسلم عليهم، فقالوا: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته فلما رجع إلى ربه، قال له ربه تبارك وتعالى هذه تحيتك وتحية ذريتك من بعدك فيما بينهم إلى يوم القيامة.

ومن وجوه صلة هذه الآية بالآية التالية ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا...﴾^(١)، اختتام هذه الآية بمشتق لمادة (علم) وإبتدأت بها الآية التالية، وكلها في علم الله عز وجل وتفضله به، لأن علم الملائكة من فضل الله، ومنه علمهم بصيرورة خليفة لله في الأرض، الذي هو علم كسبي فلم يعلموا به إلا باخبار الله لهم به.

ولما قال الله في الرد على الملائكة ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أخبرت

﴿٨٦﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

الآية التالية عن تعليم الله آدم الأسماء .

وفي الصلة بين خاتمة هذه الآية وبداية الآية التالية مسائل:

الأولى: إن الله عز وجل يفضل برزق أهل الأرض العلم.

الثانية: تعليم آدم الأسماء أصل ومادة لإكتساب المعارف، وصيرورة الإنسان قادراً على التمييز بين الصلاح والفساد.

الثالثة: صحيح أن إحتجاج الله عز وجل بعلمه بما لا يعلمه الملائكة أعم موضوعاً من تعليم آدم الأسماء، إلا أن الجمع بين الآيتين يدل على تشريف آدم بالعموم في الأسماء التي تعلمها لمجيء الآية بسور الموجبة الكلية (كل) في قوله تعالى ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾.

الرابعة: تعلم الملائكة أن الله يعلم ما لا يعلمون، ولكن الله تفضل وعرض ذات المسميات على الملائكة ليقيم عليهم الحجة من وجوه:

الأول: دعوة الملائكة للنظر إلى الخليفة من وجوه أخرى عظيمة غير مسألة إفساد بعض ذريته.

الثاني: صيرورة خلق جديد يعلم ما لا يعلمه الملائكة.

الثالث: منع الإفتتان بعلم الإنسان لأن هذا العلم فضل ورشحة من عند الله عز وجل ، وشاهد على بديع صنعه وعظيم قدرته.

الرابع: سينزل الخليفة إلى الأرض متسلحاً بالعلم وهو واقية من إشاعة الفساد.

الخامسة: الصلة والتداخل بين العالم العلوي والسفلي، بين أهل السماء والأرض، ولم تقم هذه الصلة على تفضيل الملائكة على نحو الإطلاق، بل أهل الأرض عندهم الخليفة وهم يعلمون ما لا يعلمه الملائكة إلا بفضل من الله عز وجل.

السادسة: يفيد الجمع بين الآيتين بيان منزلة النبوة والشأن العظيم للنبي عند أهل السموات.

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿٨٧﴾

السابعة: جاء تعليم آدم الأسماء أصلاً ومثلاً لفتح باب التعليم لآدم وذريته من عند الله، ويدل عليه قوله تعالى ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾^(١)، وحينما صعد الإنسان في عالم الأفلاك بالنبوة والإعجاز كما في قوله تعالى في إسرائ النبي محمد ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾^(٢)، وصعد ويرحل الإنسان بالمركبات الفضائية فان الملائكة يستحضرون تعليم الله عز وجل لآدم الأسماء على نحو العموم والإطلاق ويدركون أن هذا الصعود من رشحات نفخ الله الروح في آدم وتعليم الله عز وجل له الأسماء وتجلي مصاديق إحتجاج الله عز وجل عليهم وهي ذات كلمة التنزيه لمقام الربوبية التي ذكرها الملائكة في هذه الآية (ونحن نسبح بحمدك) وذكروها لجوء إلى الله في الآية بعد التالية (قالوا سبحانك).

ومن الإعجاز في المقام ابتداء آية الإسرائ بالتسبيح والتقديس لله وثناء الله على نفسه وبديع صنعه بقوله تعالى ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى﴾.

الثامنة: تقدير خاتمة الآية هو: أني أعلم بخلافة الإنسان في الأرض ما لا تعلمون).

التاسعة: تنبيه الملائكة إلى حقيقة وهي أن الله عز وجل لم يهبط آدم إلى الأرض إلا بعد تعليمه، والعلم واقية من إشاعة الفساد، قال تعالى ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ

(١) سورة العلق ٥.

(٢) سورة الإسرائ ١.

العاشرة: إخبار الملائكة والخلائق بأن فضل الله عز وجل متجدد وغير منقطع وأنه يشمل إيجاد خلق جديد ومدّه بأسباب العيش الكريم والتقوى وتقريبه من منازل طاعة الله.

والصلة بين هذه الآية والآية بعد التالية ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا...﴾ ﴿٢﴾، على وجوه:

الأول: بعد الإستفهام الإنكاري من جهة الملائكة في هذه الآية إتجهوا في الآية أعلاه إلى التسييح والتقديس لمقام الربوبية وبخصوص الموضوع وهو جعل خليفة في الأرض.

الثاني: لقد إنشغل الملائكة بأنفسهم، وكأنهم إستدركوا فعادوا إلى وظيفتهم التي خلقوا من أجلها وجبلوا عليها وهي التسييح والتقديس والإنتقطاع إلى طاعة الله، وفي الثناء عليهم ورد قوله تعالى ﴿يَسْبَحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ ﴿٣﴾.

الثالث: تقدير الجمع بين الآيتين هو: وإذ قال ربك للملائكة أني جاعل في الأرض خليفة قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا) فيدخل إخبار الله عز وجل لهم بجعل خليفة في الأرض فيما علمهم الله مع تلقيهم له بالتسليم.

الرابع: مع أن الكلام في الآية بين الله والملائكة، فإنها ذكرت النبي محمد بلغه الخطاب (وإذ قال ربك) أي وإذ قال ربك يا محمد، وفيه غاية التشريف والإكرام للنبي ،

(١) سورة فاطر ٢٨.

(٢) الآية ٣٢.

(٣) سورة الأنبياء ٢٠.

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿٨٩﴾
وهل المقصود في الخطاب النبي محمد صلى الله عليه وآله
وسلم على نحو التعيين والقضية الشخصية أم يشمل
الخطاب المسلمين بالإلحاق.

الجواب هو الثاني وهو من مصاديق إكرام المسلمين وعمومات
قوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١)، فهم أفضل الأمم
ياشترأكلهم على نحو العموم المجموعي في تلقي الخطاب الإلهي إلى
النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بعلوم الغيب ووقائع خلق
آدم في السماء، ويخرجون للناس بآيات القرآن وأسرار التنزيل
ورشحات الهداية والتقوى وإشراقات الإيمان التي تشع منها على
القلوب، وتتجلى على الجوارح والأركان بأداء المسلمين
الفرائض والواجبات، والحرب على الفساد والقتل بغير الحق،
وهو من علم الله الذي إحتج به على الملائكة في قوله
تعالى ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

قوله تعالى ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ أَنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ الآية ٣١.

الإعراب واللغة

وعلم: الواو حرف عطف، علم: فعل ماض والفاعل ضمير مستتر يعود إلى الله عز وجل.

آدم: مفعول به أول، الأسماء: مفعول به ثان، كلها: تأكيد للأسماء، والضمير مضاف إليه.

ثم: حرف عطف يفيد الترتيب والتراخي.

عرضهم: عرض: معطوف على جملة (وعلم) والفاعل ضمير مستتر يعود إلى الله عز وجل، و(هم) ضمير في محل مفعول به.

على الملائكة: جار ومجرور، فقال: الفاء حرف عطف يفيد الترتيب المعنوي، قال: فعل ماض.

انبئوني: فعل أمر، مبني على حذف النون، لأن مضارعه من الأفعال الخمسة.

الواو: فاعل، النون: للوقاية.

الياء: ضمير متصل في محل نصب مفعول به، باسماء: جار ومجرور.

هؤلاء: اسم إشارة مبني على الكسر في محل جر مضاف إليه.

إن: حرف شرط جازم.

كنتم: فعل ماض ناقص، في محل جزم فعل الشرط.

والتاء: إسمها.

صادقين: خبر كان منصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم، وجواب

الشرط محذوف.

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿٩١﴾

آدم: أبو البشر، وأختلف في اشتقاق إسمه، على أقوال:
الأول: لأنه خلق من أدمة الأرض ولونها، وما فيها من مشربة سواد ،
وكان آدم أسمر اللون.

وفي العلل عن الصادق عليه السلام: أنه سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن آدم لم سمي آدم؟ قال: لأنه خلق من أديم الأرض^(١) وهو المروي عن سعيد بن جبير^(٢).

وعن ابن عباس قال بعث رب العزة عز وجل إبليس فأخذ من أديم الأرض من عذبتها وملحها فخلق منه آدم ومن ثم سمي آدم لأنه خلق من أديم الأرض ، ومن ثم قال إبليس ﴿أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ أي هذه الطينة أنا جئت بها^(٣).

ولم يثبت محيى إبليس بطينة آدم والمشهور بخلافه وورد عن ابن عباس نفسه ما يعارض الحديث أعلاه بالإسناد (عن الضحاك عن ابن عباس قال أمر الله تبارك وتعالى بتربة آدم فرفعت فخلق آدم من طين لازب من حمأ مسنون ، قال وإنما كان حمأ مسنوناً بعد التراب قال فخلق منه آدم بيده قال فمكث أربعين ليلة جسداً ملقى فكان إبليس يأتيه فيضربه برجله فيصلصل فيصوت ، قال : فهو قول الله تبارك وتعالى ﴿مَنْ صَلَّصَ كَالْفَخَّارِ﴾^(٤)، يقول كالشئ المنفرج الذي ليس بمصمت قال : ثم يدخل في فيه ويخرج من دبره ويدخل في دبره ويخرج من فيه ثم يقول لست شيئاً للصلصلة ولشئ ما خلقت ولئن سلطت عليك لأهلكنك ولئن سلطت علي لأعصينك^(٥).

(١) علل الشرائع ٥٩٤/٢.

(٢) انظر تأريخ الطبري ٩١/١.

(٣) تأريخ الطبري ٩١/١.

(٤) سورة الرحمن ١٤.

(٥) تأريخ الطبري ٩٢/١.

﴿٩٢﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

(وهم اسم أعجمي كآزر وغابر ممنوع الصرف للعملية والعجمة ومن زعم أنه فعل مشتق من الأدمة وهي كالسمرة أو من أديم الأرض وهو وجهها فغير صواب لأن الإشتقاق لا يكون في الأسماء العجمية وقيل هو عبري من الأدام وهو التراب ومن زعم أنه فاعل من أديماً الأرض فالهمزة الثانية عنده زائدة بخلاف الأول فعنده الأولى وهي الزائدة فخطأه ظاهر لعدم صرفه وأبعد الطبر في زعمه أنه فعل رباعي سمي به^(١)، ولكن النقاش في الكبرى وهي على شعبتين:

الأولى: إثبات أن آدم اسم أعجمي.

الثانية: كون عجمة الاسم علة تامة للإمتناع عن الصرف وعدم موافقته للأوزان الصرفية، وأخرج ابن سعد وعبد بن حميد عن سعيد بن جبير قال: أتدرون لم سمي آدم؟ لأنه خلق من أديم الأرض^(٢).

وعن ابن سلام انه قيل للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: خلق آدم من الطين كله أو من طين واحد، قال: بل من الطين كله ولو خلق من طين واحد لما عرف الناس بعضهم بعضاً، وكانوا على صورة واحدة، قال: فله في الدنيا مثل؟ قال: التراب فيه أبيض وفيه أخضر وفيه أشقر، يعني شديد الحمرة، وفيه أزرق، وفيه عذب، وفيه ملح، فلذلك صار الناس فيهم أبيض، وفيهم أصفر، وفيهم أسود وعلى ألوان التراب.. الخ^(٣).

الثاني: من الأدم بمعنى الألفة والإتفاق ، في إشارة إلى ما بين الناس من الود، واستثناس بعضهم ببعض.

الثالث: إنه اسم أعجمي لا إشتقاق له كآزر.

الرابع: هو اسم سرياني أصله آدام بوزن خاتام، عُرب بحذف الألف

(١) التبيان في تفسير غريب القرآن ٧٤/١.

(٢) سورة .

(٣) علل الشرائع ٤٧١/٢.

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿٩٣﴾
الثانية.

الخامس : وقال الثعلبي: التراب بالعبرانية آدام فسمي آدم به
(وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال إنما سمي آدم لأنه خلق من
أديم الأرض^(١)).

السادس : وقال الصدوق: اسم الأرض الرابعة أديم وخلق منها آدم
فلذلك قيل من أديم الأرض^(٢).

(وقال الجواليقي: أسماء الأنبياء كلها أعجمية إلا أربعة آدم وصالح
وشعيب ومحمد^(٣))، وآدم عند العجم والهنود هو كيومرث، مما يدل على
الإنفاق بين أهل الملل والنحل على أن الناس لهم أب واحد.
والأسماء جمع إسم، والمعنى أسماء المسميات بحذف المضاف إليه
لدلالته .

والكل: اسم يجمع الأجزاء (الجوهري كل لفظه واحد ومعناه جمع
قال: فعلى هذا نقول: كل حضر، وكل حضروا)^(٤).

والكل خلاف الجزء، وهو سور جامع ، ولفظ عام مركب من أجزاء،
ويفيد الإستيعاب، ويتقوم بأجزائه التي تنتهى بدليل، قوله تعالى ﴿ثُمَّ
عَرَضَهُمْ..﴾.

وعرضت الشيء عرضاً من باب ضرب: أظهرته وأبرزته، وقال
الزجاج: العرض أصله في اللغة: الناحية من نواحي الشيء، فمن ذلك
العرض خلاف الطول^(٥).

(١) الإتيان في علوم القرآن ٥٨/٤.

(٢) علل الشرائع ١٤/١.

(٣) السيوطي / الإتيان في علوم القرآن ٥٨/٤.

(٤) لسان العرب ٥٩١/١١.

(٥) التبيان في تفسير القرآن ١٣٨/١.

﴿٩٤﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع
والإنباء: الإعلام والإخبار وإظهار الأمر، وأكثر القراء همزوا
(انبثوني) ونسب إلى الأعمش ترك الهمز فيه، وهي لغة قريش.

في سياق الآيات

بعد إخبار الله تعالى للملائكة بجعل خليفة في الأرض وبيانهم
لإخلاصهم في طاعته تعالى وإستعراض ما يفعله الإنسان في الأرض من
الفعل القبيح ، جاءت هذه الآية لتؤكد فضل الله تعالى على الناس بتعليم
آدم ومن خلاله جميع أبنائه بالواسطة، وفي الآية توبيخ لأهل الضلالة
الذين لم ينتفعوا من العلم ، ولم يجعلوه في مرضاة الله .

وتبين الآية تفضل الله تعالى بإصلاح الإنسان لخلافة الأرض، بفتح
باب العلم أمامه بتعليم الله تعالى لآدم من غير واسطة ملك في إشارة إلى
إستمرار نزول الوحي على الإنسان إلى جانب إنتفاع الإنسان وإلى يوم
القيامة مما تعلمه آدم من الأسماء.

وفي فضل الله بتعليم آدم الأسماء رد على الملائكة بأن وظيفة الإنسان
ليس الإفساد في الأرض ، وانه يحترز بالعلم الذي علمه الله تعالى به.
وهو سبحانه أعلم بالمصلحة والمنفعة، إنما يأتي الفساد بالعرض من فريق
من الناس ممن يمحذ بالعلم والوحي، ويتخلف عن الإيمان ومبادئ التوحيد،
قال تعالى ﴿أَمْنِ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾^(١).

وعلى ما بيناه بأن سؤال الملائكة لم يكن عن آدم والمؤمنين مطلقاً، بل
جاء يوسلاً لإجتثاث الفساد والمفسدين في الأرض، وعدم إهمالهم،
فجاءت الآية لتؤكد فتح باب التوبة بالكسب والتعلم، فما دام الإنسان
يمتلك آلة التعلم ووسائل إكتساب المعرفة، فإنه يصل إلى إدراك قبح

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿٩٥﴾

الفساد والإفساد، ويمتنع ويكف عنه، ومن أصر على إرتكاب المعاصي يلقى العقاب الأليم في الآخرة.

لقد بينت الآية أن الله تعالى زود الخليفة في الأرض بما يحتاجه، ويأتي تعليم الأسماء مقدمة وتهيئة لنزول الكتب السماوية، ومنها القرآن وهو المهيمن على الكتب كلها.

وتبين الآية التالية أهلية آدم لخلافة الأرض بما علمه الله تعالى، وعجز الملائكة عن معرفة ما إختصه الله به من العلم إلا أن تلقوه من آدم بالواسطة، وأن آدم عليه السلام لم يقم بإخبارهم بالأسماء إلا بعد أمر الله تعالى له ، لبيان طاعته لله تعالى ، وأن التعلم والتعليم ليس من جنس الفساد بل من أسباب القضاء على الفساد.

وتبين الآيات موضوعية الحجة والبرهان في بديع صنع الله وانه تعالى لم يغضب على الملائكة بل بين لهم أموراً هي:

الأول: يتعاهد الله سبحانه الإنسان في الأرض، وأن الذي يكون خليفة في الأرض لا ينقطع عن السماء بل يتلقى التعليم منها، ومنه نزول الملائكة بالوحي من عند الله تعالى، بإعتبار عدم إنحصار صفة الخلافة بآدم عليه السلام وحده، قال تعالى ﴿يَا آدَامُ اسْكُنْ أَهْلَكَ الْجَنَّةَ وَكُنْ لَهُمْ رَحِيماً خَلِيفَةً فِيهَا

الثاني: حاجة الخليفة في الأرض إلى التعلم، ومن وجوها التعليم من عند الله وليس بالكسب، ففضل الله سبحانه بهداية آدم إلى ما يحتاجه.

الثالث: تعليم الأسماء باب تنفتح منه أبواب كثيرة للعلم والمعرفة.

الرابع: إن الله تعالى إذا أعطى يعطي بالأوفى والأتم، إذ علم سبحانه آدم كل الأسماء ليكون التعليم له عوناً وسلاحاً في خلافة الأرض.

الخامس: تقدم آدم على الملائكة رتبة بما علمه الله تعالى، وفيه شاهد على حاجة الملائكة لله تعالى، ولم تقل الآية "وعرضها" ونسبة الضمير إلى

﴿٩٦﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

الأسماء بل ذكر ضمير جمع الغائب المذكور "هم" في إشارة إلى المصاديق الواقعية والمسميات لتلك الأسماء.

وجاءت الآية الثالثة لتبين إقرار الملائكة بعدم علمهم بما أصبح آدم يعلمه بفضل الله، وإعترافهم بالحاجة إلى الله تعالى، وفيه دليل على أن موضوع الخلافة في الأرض يتم بتوفيق منه تعالى، وأنه سبحانه يهدي الإنسان إلى ما فيه عمارة الأرض بالعبادة.

السادس: بينما ذكر الملائكة تسييحهم وتقديسهم لله تعالى، فإن الله عز وجل لم يباهم بتسييح وتقديس آدم له، بل جاء التحدي بالعلم والمعرفة، وتلك آية إعجازية في خلق الإنسان، وأنه نزل للأرض ليعمرها بالعلم، ولتأكي حقيقة وهي أن عبادة الناس لله عن علم وتوظيف للعقل.

وتترشح التقوى والصلاح ومحاربة الفساد من العلم والتحصيل للتباين والتضاد بين العلم والجهل، وبين الصلاح والفساد، والملازمة بين العلم والصلاح من جهة، وبين الجهل والفساد من جهة مضادة، فمتى ما علم الإنسان بالوظائف التي خلق ونزل إلى الأرض من أجلها فإنه يتنزّه عن الفساد، ويتجنب الكفر والنفاق.

ولم يقف الرد الإلهي على الملائكة بقوله تعالى ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ مع ما فيه من الكفاية والحجة والبيان، فإن الله سبحانه توجه إلى آدم وعلمه الأسماء ليعرضها على الملائكة لتكون الحجة في خلق آدم شاملة لخلقه وعمارته للأرض التي تتقوم بالعلم والهداية والصلاح من عند الله.

ولم تذكر الآية السابقة اسم آدم بل أخبرت عن جعل الله خليفة في الأرض ويدل جواب الملائكة ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ بأن الملائكة تعلم أن الخليفة ليس منها.

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿٩٧﴾

وجاءت هذه الآية بذكر اسم آدم، وأول ما ذكر إسمه بالتعلم ومعرفة الأسماء وهي سر من كنوز العرش، مما يدل على وجود صلة بين أول فعل قام به آدم وهو التعلم من الله تعالى، وبين أول سورة نزلت من القرآن على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهي ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾^(١). وأختتمت الآية السابقة بقوله الله تعالى للملائكة ﴿أَنْبِئِ أَغْلَمَ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ بلغة التنبيه وبيان عظيم قدرته وسلطانه تعالى، وإحاطته علماً بالأشياء جميعاً الموجود منها والمعدوم.

وبعد هذه الخاتمة وخطاب الله تعالى للملائكة، إبتدأت هذه الآية بتعليم الله تعالى لآدم الأسماء من غير فاصلة بينهما، مما يدل على إكرام الله تعالى لآدم وأن تعليمه الأسماء من علم الله تعالى بالأشياء وعواقب الأمور.

إعجاز الآية

تبين الآية عظيم منزلة آدم بتعليم الله تعالى له، وموضوع التعليم وحتمية الإنتفاع منه على نحو دائم مبارك، وفي الآية تفضيل وتشريف للإنسان ليس فقط في خلقته، بل في تعلمه وإيمانه وهدايته، والملازمة الشريفة بين أمور:

الأول: خلق الإنسان والنفخ فيه من روح الله.

الثاني: إكرام آدم وديب الحياة فيه بالنفخ فيه من روح الله.

الثالث: سجود الملائكة لآدم إقراراً بأهليته للخلافة في الأرض وتسليماً بموضوعية النفخ فيه من روح الله وعدم وجود فترة وفاصلة بين النفخ والسجود، قال تعالى ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ

ساجدين ﴿١﴾.

الرابع: تعليم آدم الأسماء وما فيه من دلائل المعرفة، ومقومات الخلافة في الأرض وورد في الآية عن ابن عباس أنه قال: عَرَضَ عَلَيْهِ أَسْمَاءَ وَلَدَهُ إِنْسَانًا إِنْسَانًا، وَالْدَّوَابَّ، فَقِيلَ: هَذَا الْحِمَارُ، هَذَا الْجَمَلُ، هَذَا الْفَرَسُ ﴿٢﴾، وفي الحديث أعلاه مسائل:

الأولى: الحديث تفسير ومصدق من مصاديق لقوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ ﴿٣﴾، بلحاظ عظيم منزلة المسلمين في عالم الذر، وإرادة المسلمين كأمة قبل خلق آدم عليه السلام.

الثانية: بقاء نعمة تعليم آدم الأسماء بوراثة النبي لها ويحتمل علم النبي بها وجوهاً.

الأول: بالوحي وإخبار الملائكة.

الثاني: العلم الهبة من عند الله كما في الحديث: عن ابن مسعود: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن روح القدس نفث في روعي: أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ﴿٤﴾، وعن جابر عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم قال: روح القدس جبريل.

الثالث: التعليم بغير واسطة ملك لدلالة حرف التشبيه الكاف في الحديث (كما علم آدم).

الرابع: علم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالأسماء التي

(١) سورة ص ٧٢.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٨٦/١.

(٣) سورة آل عمران ١١٠.

(٤) الدر المنثور ١٥٨/١.

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿٩٩﴾

علمها الله آدم بتأويل آيات القرآن وأسرار التنزيل.

الخامس: لا يعلم كيفية تعليم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الأسماء إلا الله عز وجل ورسوله، بقرينة تمثل المسلمين للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في الماء والطين وهو شرف عظيم لم ينله آدم عليه السلام.

السادس: التعدد في صيغ وكيفية تعلم آدم للأسماء وعدم حصره بكيفية وطريق مخصوص، والله واسع كريم.

الثالثة: دعوة المسلمين لعناية بالسنة النبوية والأخذ من علومها وعدم التفريط بها، وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: لا ألفين أحداً متكئاً على أريكته، يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول: لا ندري... ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه^(١).

الرابعة: وراثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للأنبياء ابتداء من آدم الذي كلمه الله قبلاً.

الخامسة: بيان فضل الله عز وجل وأن نعمة تعليم الأسماء لم تغادر الناس، لأنها من خصائص الخلافة.

السادسة: يمكن إستقراء مسألة من الحديث وهي أن قوله تعالى ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ^(٢)﴾، أعم من أن ينحصر بالقضية الشخصية وخلافة آدم على نحو التعيين، وإذا أنعم الله عز وجل بنعمة فانه أكرم من أن يرفعها، والخلافة في الأرض من أعظم النعم.

السابعة: ترغيب الناس بدخول الإسلام، والتزود من علومه.

(١) الدر المنثور ٢/٣٠٩.

(٢) سورة البقرة ٣٠.

﴿١٠٠﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

ومن إعجاز الآية بيان سعة الكرم الإلهي فإن الله سبحانه علم آدم كل الأسماء، ولم تستطع الملائكة معرفة أي واحد منها، ولا بد أن الملائكة لم يكونوا حاضرين تعليم الله تعالى لآدم الأسماء.

ومن الإعجاز أن الآية السابقة ذكرت أمر الخلافة ، ولم تذكر اسم آدم مما يشير إلى المعنى الأعم فيها، أما هذه الآية فذكرت آدم بالإسم، ولم تذكره إلا بعد أن قدمت تعليم الله تعالى له لتكون له صفة لآدم يعرف بها هي: المتعلم من الله تعالى .

وهذه الخصوصية والصفة وحدها تستحق الإكرام من قبل الملائكة ، والإقرار بأهليته لخلافة الأرض.

ومن الآيات أن الله تعالى لم يعلم آدم شطراً من الأسماء، بل علمه كل الأسماء، وجاءت الآية بتوكيد هذه الحقيقة لبيان عظيم فضل الله تعالى عليه، وإصلاحه للخلافة في الأرض، لينزل إلى الأرض بسلاح العلم، وهذا السلاح هو الذي إنتشر به القرآن وأحكامه إذ أنه مدرسة في العلوم المختلفة، ليكون مصاحباً للإنسان يدعوه للإيمان وإستثمار العلم والإنتفاع منه في الحجة والبرهان وإتيان العبادات، ونيل خير الدنيا والآخرة.

ويمكن تسمية هذه الآية الكريمة بآية (وعلم آدم) ولم يرد هذا اللفظ في القرآن إلا في

هذه الآية، كما انها الآية الوحيدة التي يتكرر فيها لفظ الأسماء بصيغة الجمع ، وقد تكرر لفظ (أسمائهم) بعد آيتين.

الآية سلاح

في الآية إخبار عن كمال إحسان الله تعالى على الناس، وفضل وشرف آدم أبي البشر، وهذا الشرف مركب من أصل الخلقة والإيمان ليكون مدرسة يعرف بها المسلم عظيم قدره عند الله وعند الملائكة ومكائنه السامية التي ينفرد بها بين الخلائق، وهي دعوة سماوية للطاعة، والإقتياد

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿١٠١﴾
للنبوة.

ولم يجعل الله تعالى آدم خاضعاً للملائكة، أو تابعاً لغيره، ومن الآيات أن الانسان ينفرد بصفة الخليفة مع أن الملائكة خلق روحاني عظيم ومنقطعون إلى العبادة، ودعا الله الناس إلى الإيمان بهم، قال تعالى ﴿وَلَكِنْ أَلْبَسْنَاهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ أَمَانَةً﴾ (١)، فإنهم ليسوا خلفاء في السماء، وحصر الخلافة بالإنسان في الأرض تفضيل له، بخصوص مسألة الخلافة .

وتحت الآية الإنسان على السعي في ميادين العلم والتحصيل والإكتشاف، وتكون عوناً له في سعيه.

الآية لطف

لقد أنعم الله عز وجل على الانسان أن خلقه وجعله خليفة في الأرض، وتفضل على الملائكة وأطلعهم على آية خلق الانسان وما جعل له من المنزلة العظيمة بين الخلائق.

ومن الآيات أن الملائكة لم يحتجوا على ذات خلق الإنسان، ولكن جاء الإحتجاج على جعله خليفة في الأرض بخصوص من يفسد فيها وفيه توبيخ للكفار والفاسقين ، فبسببهم جاء الرد الملوكوتي على جعل الإنسان خليفة مع ما شرف الله عز وجل به الأنبياء بالنبوة والتنزيل ، مما يدل على إضرار المفسدين بالناس جميعاً وبجنس الإنسان بين الخلائق ، ولكنه ليس مستديماً والمؤمنون في حرز من شدته ، قال تعالى ﴿لَنْ يَضُرَّكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ (٢).

لقد جاءت الآية وثيقة سماوية تبين أول ساعات خلق آدم وما له من الشأن العظيم بين الخلائق، وفيه دعوة لكل إنسان لمعرفة منزلته ولزوم شكر

(١) سورة البقرة ١٧٧.

(٢) سورة آل عمران ١١١.

﴿١٠٢﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع
الله تعالى على هذه النعمة بالإيمان بالله والتصديق بالنبوة والعمل بأحكام التنزيل.

لقد بدأ اللطف الإلهي بالإنسان قبل أن يخلق، وتلك نعمة عظيمة تدل على سعة رحمة الله وعظيم إحسانه وكرمه، ومن الآيات عدم إنحصار اللطف الإلهي بالإنسان في ذاته وخلقته ونشأته، بل جاء شاملاً لبيان منزلته بين الخلائق بسجود أشرف وأعظم خلق الله له.

ولم يأت السجود على نحو القضية الشخصية، فلم يكن الذي سجد ملكاً واحداً بل الملائكة والمراد من الألف واللام في الملائكة، الجنس والاستغراق لأصالة الإطلاق إلا أن يرد دليل مخصص كما في بعض الأخبار.

وبينت هذه الآية لطف الله تعالى ورحمته بالإنسان بجعله عالماً من أول ما خلقه ليكون العلم مصاحباً له في الحياة الدنيا، وهو حجة عليه في الدنيا والآخرة ويتخذ وسيلة لعبادة الله والتدبر في بديع صنعه تعالى، واجتناب المحرمات التي نهى عنها.

وفي الآية بيان لفضل الله على آدم عليه السلام وذريته فالمراد بالتعليم ليس آدم وحده بل الإنسان مطلقاً، فيشمل حواء وذرية آدم إلى يوم القيامة.

ترى ما هي كيفية تعليم الله عز وجل لأدم عليه السلام ، فيه وجوه:
الأول: القذف في قلبه.

الثاني: جعل الأسماء على اللوح المحفوظ فيقرأها آدم.

الثالث: الوحي، قال تعالى ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾^(١).

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿١٠٣﴾

الرابع: بواسطة ملك غير الملائكة الذين قالوا ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ كما لو كان جبرئيل عليه السلام، وأن الله أكرم جبرئيل بتنزيل القرآن أيضاً.

الخامس: عن طريق الكسب والتعليم.
والصحيح هو الثالث، فإن التعليم يأتي على نحو الوحي، وفيه وجهان:
الأول: الوحي المباشر، وتكليم الله عز وجل لآدم عليه السلام خصوصاً وأنه في الجنة، ونواميس الجنة تختلف عن نواميس الأرض.

الثاني: الوحي والإخبار أو بواسطة حجاب، قال تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾^(١).

والصحيح هو الثاني، فإن وجود آدم عليه السلام وتفضل الله تعالى بالنفخ فيه من روحه لا يمنع من شموله بعمومات الآية أعلاه وأنه تلقى الوحي من عند الله عز وجل، ولكن هذا الوحي لم يكن بواسطة ملك من الملائكة بل هو فضل من عند الله خص به آدم عليه السلام لم يطلع عليه أحد من الملائكة وهو فضل آخر على الإنسان، وإخبار بانعدام الوساطة بين الله عز وجل وبين الإنسان.

ويمكن إستقراء هذا المعنى في قوله تعالى ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى﴾
﴿تَكَلِّمًا﴾^(٢)، أي لم يجعل واسطة ملكوتية بينهما، وقد خص الله عز وجل النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بهذا الشرف العظيم في ليلة الإسراء.

(١) سورة الشورى ٥١.

(٢) سورة النساء ١٦٤.

مفهوم الآية

الآية حجة على الناس جميعاً، وحث على تدبر عظيم منزلة الإنسان بين الخلائق ، وما يترشح عنها من لزوم إتباع الأنبياء ، وتعاهد الفرائض فكما أن آدم أبو البشر فهو نبي أي أن التعليم الجامع عند الأنبياء يتوارثونه ويتخذونه وسيلة للدعوة إلى الله سبحانه، وتبين الآية فضل الله تعالى على الإنسان، وتظهر قرب الملائكة من حضرة القدس وتكليم الله عز وجل لهم.

وفي إخبار الله تعالى للملائكة بتصيير آدم خليفة وتعليمه الأسماء مسائل منها:

الأولى: المسؤوليات الكبيرة التي تنتظره وهو أمر يدل عليه بالدلالة الإلتزامية إستفهام الملائكة وكيفيته إلى جانب مضامين عنوان الخلافة.

الثانية: إفراد آدم وجنس الإنسان بإكرام خاص ومرتبة في العلم لم يبلغها غيرهم.

الثالثة: إقامة الحجة على الملائكة ، وبيان الحكمة الإلهية في جعل خليفة في الأرض.

الرابعة: الإشارة إلى وجود أمة مؤمنة في كل زمان تتعاهد العلم وتتوارث الصلاح والتقوى ، الأمر الذي تجلّى ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتعاهد المسلمين للتزويل لفظاً ورسماً وتلاوة، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١).

الخامسة: لم ينزل الخليفة في الأرض إلا بعد أن تزود بالعلم وعمل به، ويظهر مصداق العمل بتعليم آدم الملائكة الأسماء.

السادسة: بيان حقيقة وهي حاجة الإنسان في الدنيا إلى العلم والمعرفة،

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿١٠٥﴾

وتفضل الله عز وجل بقضاء حاجة الإنسان بتعليم آدم وهو مقدمة وبشارة لنزول الكتب السماوية على الأنبياء.

وتبين هذه الآية بدايات العون الإلهي للخليفة في الأرض وأن الله عز وجل جعل الإنسان خليفة ليتعاهده وذات موضوع الخلافة، ويحفظه ويصلحه لوظائفها ويجعله صالحاً بالتقوى ، وفيه حجة وآية أمام الخلائق الأخرى وأشرفها الملائكة.

وفي الآية بيان لعظيم قدرة الله سبحانه، ودعوة لنبذ الغرور وطرده الزهو بالعبادة، وأن الله تعالى يخلق من العدم ما يكون ذا شأن ومنزلة، لقد أراد الله سبحانه بيان أهلية آدم وجنس الإنسان للخلافة بأنه يمتلك العلم، وهذا التعليم آلة للخلافة.

لقد جاءت الآية بتحد الملائكة وبيان الفقر والحاجة الملازمين للممكن، وكل مخلوق هو ممكن.
وفي الآية مسائل:

الأولى: تتضمن الآية أسرار ووقائع خلق آدم، وتفضل الله تعالى بإخبار الملائكة عن خلقه، وجعله خليفة في الأرض.
الثانية: بيان عظيم منزلة آدم بين الخلائق.

الثالثة: رد الملائكة على جعل آدم خليفة، وكيف أن الإنسان يقتل أحياناً أخاه، ومنهم من يفسد في الأرض، فهؤلاء الذين أخبرت الآيات السابقة عن فسقهم ونقضهم الميثاق وأنهم يفسدون في الأرض قد أخبرت عنهم الملائكة يوم خلق الله تعالى آدم، وفيه إخبار بأن المفسدين مبغوضون في الأرض والسماء.

الرابعة: تضمن رد الملائكة أدب العبودية بمدح أنفسهم في طاعتهم لله تعالى.

الخامسة: إجراء الملائكة مقارنة بينهم وبين بني آدم، وإلخصار هذه المقارنة بالذين يفسدون من بني آدم، مما يدل على إكرام الملائكة للمسلمين

﴿١٠٦﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع
وافتخارهم بهم ويدل بالمفهوم على أن المسلمين أهل لخلافة الأرض،
ويدل قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١)، على أن الملائكة لم يقصدوا
يقصدوا المسلمين الذين يعملون الصالحات ، ويتجنبون سفك الدماء
والفساد في الأرض.

السادسة: توسل الملائكة إلى الله تعالى بالمسألة بأن يكون أهل الأرض
كلهم مسلمين، يسبحون بحمد الله ويطيعون الصلاة ومناسك الطاعة
الأخرى حباً لله تعالى ليكون سؤال الملائكة لنجاة الإنسان من الضلالة
وعذاب النار سابقاً لخلق آدم عليه السلام، ولكن لابد من إيجاد الصلة بين
هذا القصد من الملائكة وبين الرد الإلهي عليهم ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا
تَعْلَمُونَ﴾.

وفي الرد الإلهي وقول الملائكة هذا مفاهيم كلامية منها:
الأول: سعة المغفرة والرحمة الإلهية يوم القيامة.

الثاني: تقلل بعثة الأنبياء ونزول الكتب السماوية من إفساد الإنسان في
الأرض، وحوادث القتل بين الناس، كما في قوله تعالى ﴿وَلَكُمْ فِي
الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(٢)، ويؤدي القصاص إلى زجر الناس عن
القتل، فمتى ما علم الإنسان أنه يقتل بجنايته إذا قتل غيره فإنه يتجنب
القتل والهم به.

الثالث: فتح باب التوبة للإنسان ما دام في الحياة الدنيا، قال
تعالى ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾^(٣).

(١) سورة آل عمران ١١٠.

(٢) سورة البقرة ١٧٩.

(٣) سورة طه ٨٢.

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿١٠٧﴾

الرابع: الخلف والعوض لمن يقتل مظلوماً.

الخامس: بقاء الإسلام وأحكامه في الأرض ليكون منار هدى للناس جميعاً.

السادس: آدم عليه السلام نبي ، وهو أول الأنبياء.

السابع : تفضل الله تعالى بالرد على الملائكة بأنه أحاط بكل شيء علماً، ومن علم الله تعالى أنه خلق الإنسان بأحسن تقويم، ليكون من بديع خلقه، وآية من آيات حسن صنعه وتفضل وجعله خليفة في الأرض ، ومعاني ودلالات هذه الخلافة في الإرادة التكوينية.

إنفاذات الآية

يدل لفظ الخليفة على الإصلاح لهذه المرتبة، ويكون الإصلاح على وجوه وكيفيات مختلفة، وليس هناك أفضل من إصلاح آدم للخلافة إذ أنه جاء من وجوه:

الأول: أن الله عز وجل علمه بنفسه من غير واسطة ملك، ويدل هذا التعليم على أمور:

الأول: كمال هذا التعليم.

الثاني: انه أفضل تعليم في تاريخ الخلائق من جهات:

الأولى: الله عز وجل هو الذي تفضل به.

الثانية: الإحتجاج به على الملائكة.

الثالثة : عدم معرفة الملائكة لمضامينه إلا بعد أن أخبرهم آدم، اي أن هذه الأسماء بقت أنا من الزمان لم يعلمها إلا الله عز وجل وآدم من بين الخلائق، فإذا لم يعلمها الملائكة فمن باب الأولوية أن لا يعلمها غيرهم.

الثاني: العموم والإطلاق في تعلم آدم لتلك الأسماء بلفظ "كلها" وهو سور الموجبة الكلية الشامل للأسماء جميعاً ، وفيه مسائل :

الأولى : هل فيه دلالة على صعود الإنسان إلى أفلاك السماء .

﴿١٠٨﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

الثانية: القدر المتيقن هو تعليم الأسماء، وليس المسميات.

الثالثة: ورد التعليم بخصوص آدم على نحو التعيين . والأرجح هو الأول.

الثالث: تأهيل آدم للخلافة في الأرض قبل أن يهبط إليها.

الرابع: الآية بشارة نزول الوحي على الأنبياء، وتدل في مفهومها على بقاء القرآن وأحكام الإسلام إلى يوم القيامة، فإذا كان آدم تلقى التعليم من عند الله تعالى، وتلقى الأنبياء وهم في الأرض الوحي والتنزيل من عند الله، فإن المسلمين وصفهم الله بخلائف الأرض بقوله تعالى ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾^(١).

وتتجلى بالتعليم والوحي الملازمة بين الخلافة والتعليم وإذا انقطع الوحي ينتقل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى الرفيق الأعلى، فإن المسلمين يتلقون التعليم بآيات القرآن، وما فيه من الأحكام وما بينه النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في سنته القولية والفعلية بإعتبار أنها من مصاديق الوحي والتعليم، قال تعالى ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * أَأَنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾^(٢).

وهل يشمل ما عند المسلمين الأسماء التي علمها الله آدم عليه السلام، أم انه محصور بما بين الدفتين.

الجواب لا تعارض بين الوجهين لأن الأسماء التي تلقاها آدم هي في القرآن بلحاظ كونه ﴿ثِيَابًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾^(٣)، وهو من اللطف الإلهي

(١) سورة يونس ١٤.

(٢) سورة النجم ٣-٤.

(٣) سورة النحل ٨٩.

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿١٠٩﴾
بالمسلمين وفيه عون لهم على التفقه في أمور الدين والدنيا، ومدد إلهي
للإقبال بشوق على العبادات والفرائض.

الصلة بين أول وآخر الآية

لما أختتمت الآية السابقة بقوله تعالى ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ في بيان
بديع صنع الله تعالى، وعظيم قدرته وسلطانه، وأنه ﴿لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ
يُسْأَلُونَ﴾^(١)، ابتدأت هذه الآية بمصداق من مصاديق علم الله تعالى بما
لا يعمل به الملائكة بأن تفضل وعلم آدم الأسماء كلها، وفيه وجوه:
الأول: بيان عظيم فضل الله تعالى على آدم وذريته بأن علمه الأسماء،
ولم يجعله أبكم أو أصم.
الثاني: يدل تلقي التعليم على إمتلاك الخواص والقدرة الفعلية على
الفهم والحفظ.

الثالث: تعليم الأسماء واقية من غلبة أهل الفساد والفجور.
الرابع: جاء تعليم الأسماء على نحو العموم من غير تقييد أو شرط،
وفيه توكيد لفضل الله تعالى على آدم.
الخامس: تبين الآية تأهيل آدم للخلافة في الأرض، وجعله قادراً على
العناية بالمخلوقات الأخرى فيها.

السادس: من منافع تعليم الأسماء لآدم شيوع الرأفة والرحمة بين
الناس في الحياة الدنيا، لأن التعليم وسيلة للتفاهم ومقدمة للعمل النافع.
السابع: جاء ذكر الأسماء لإرادة المعنى الأعم، وبيان معاني وخواص
الأشياء، وهذا التعليم فرع الخلافة وأحد مقوماتها.
الثامن: تعليم الله لآدم الأسماء نوع إختبار وإمتحان.

﴿١١٠﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

وجاءت الآية بصيغة جمع العقلاء (عرضهم) وفي المسميات على الظاهر من يعقل وما لا يعقل، لغلبة من يعقل وليان الكثرة والتعدد في الأسماء والمسميات، وتوكيد بديع خلق الله تعالى، وأختتمت الآية بأن عرض الله تعالى الأشياء والأعيان التي علم آدم أسماءها على الملائكة وأمرهم بأن يخبروه بأسمائها.

والعلم أمر وجودي، والوجود أشرف من العدم .
والعالم أشرف من الجاهل، وتتعدد منافع العلم لتشمل صاحبها وترشح على الغير بفوائد لا حصر لها، وفي كسب العلوم إضاءة للطريق وطرده لظلمة، وبعث للسعي النافع، وهو مصدر للأمل، وواقية من الجهالة والغفلة، قال تعالى ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١).

وتدل الآية ومعاني التعليم على إمتلاك آدم العقل والحواس، من غير تعارض بينهما، ليكون طريقاً وآله للعبادة، وحجة على الذين يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء، ويساعد تعليم الأسماء في نشر الأخلاق الحميدة بين الناس.

وفي تعليم الله لآدم عليه السلام الأسماء وجوه:

الأول: انه لمنفعة آدم عندما كان في الجنة.

الثاني: لمنفعة آدم عندما يهبط إلى الأرض.

الثالث: تعليم آدم الأسماء لمصلحة آدم وذريته في الحياة الدنيا.

الرابع: تعليم آدم الأسماء نفع وسلام لآدم في الحياة الدنيا، وطريق إلى السعادة في الآخرة.

الخامس: جاء تعليم آدم الأسماء للاحتجاج به على الملائكة لقوله تعالى ﴿إِنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾.

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿١١١﴾

السادس: جاء تعليم آدم الأسماء لتكون واقية من الفساد في الأرض.

السابع: إعمار الأرض بالعبادة وذكر الله تعالى .

ولا تعارض بين هذه الوجوه ، وكلها من مصاديق الفضل الإلهي على آدم وذريته ، فالنفع من تعليم الأسماء مطلق ، وهو رحمة ونعمة من عند الله انعم بها على آدم وذريته.

أن أول أمر تلقاه آدم بعد خلقه هو التعليم والمعرفة ، وهو آية في إكرام الله للإنسان ، وحجة عليه في النشاطين .

التفسير الذاتي

ورد ذكر (آدم) في القرآن خمساً وعشرين مرة، كلها في خلقه، وسجود الملائكة له، والأوامر التي جاءت لذريته كما في قوله تعالى ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾^(١).

وهذه الآية أول آية في نظم القرآن يذكر فيها آدم بالأسم، وجاءت بالإخبار عن تعليم الله عز وجل له من غير واسطة، وفيه حجة على الكفار في نزول القرآن، وتعليم الله عز وجل للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والأنبياء من قبله بالوحي والتنزيل.

وقد جاءت الآية السابقة بذكر الخليفة في الأرض، أما هذه الآية فجاءت بذكر آدم عليه السلام على نحو التعيين، وبينهما عموم وخصوص مطلق بلحاظ أن الخليفة أعم من آدم عليه السلام قال تعالى ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾^(٢)، وما ناله داود من الرتبة ناله النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لأنه سيد المرسلين وإمام الناس.

ومن إعجاز القرآن ذكر آدم عليه السلام وإرادته بالذات وليس ذريته

(١) سورة الأعراف ٣١.

(٢) سورة ص ٢٦.

﴿١١٢﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

(بني آدم) ست عشرة مرة في القرآن منها خمس مرات في سبع آيات متتاليات من سورة البقرة، وذكر خمس مرات في سبع آيات متتاليات في سورة طه^(١).

أي أن أربع عشرة آية متعاقبات من سورة البقرة وطه ذكرت قصة آدم عشر مرات، وباقي آيات القرآن ست مرات، وفيه تأكيد لقصة خلق آدم وسجود الملائكة له، ودعوة الناس لإقتباس الدروس والعبر منها، ولم يرد لفظ (عرضهم) وموضوع عرض الأسماء على الملائكة في القرآن إلا في هذه الآية مما يدل على ما لها من الخصوصية وكيف أنها حجة على الملائكة في لزوم إكرام آدم، ومقدمة لتلقي أمر السجود له بالقبول والإمثال، وهو نوع تخفيف عن الملائكة وشاهد على أن مصاديق اللطف الإلهي تشمل الملائكة أيضاً من غير أن يتعارض مع تعاهدهم لمنازل الطاعة لله عز وجل، قال تعالى ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾^(٢).

وجاء لفظ (ان كنتم صادقين) في القرآن سبعا وعشرين مرة، ليس فيها خطاب للملائكة إلا في هذه الآية الكريمة، وفيه بيان لموضوعية خلق آدم في السماوات والأرض، وما لموضوع وأحكام خلافته في الأرض من الشأن في العالم العلوي، والذي يجب أن يقابله بنو آدم بالشكر لله عز وجل بالطاعة والإمثال للأوامر الإلهية، وإكتساب المعارف والعلوم التي تساهم في تثبيت كلمة التوحيد في الأرض، والإنتفاع العام الأمثل من كنوز السموات والأرض التي جاءت قبل آيتين ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جِيعًا﴾^(٣).

(١) أنظر سورة طه ١١٦، ١١٥، ١١٧، ١٢١، ١٢٠.

(٢) سورة التحريم ٦.

(٣) سورة البقرة ٢٩.

من غايات الآية

في الآية وجوه:

الأول: بيان خلق الإنسان وأوانه وانه من العدم، وأن الله عز وجل الذي خلقه وأن الملائكة سابقون لوجود الإنسان.

الثاني: حضور الملائكة خلق آدم عليه السلام.

الثالث: إقتران خلق آدم بالخلافة في الأرض، وأن صفة الخليفة للإنسان ملازمة له، وتدلل على عظيم منزلته بين الخلائق، وفيه غاية التكريم والتشريف.

الرابع: الزجر عن الفساد والمعصية والقتل بغير حق.

الخامس: بيان الضرر العظيم من القتل وسفك الدماء.

السادس: يشمل سفك الدماء المنهي عنه الحروب المدمرة والقتل الجماعي، والتعدي على الأبرياء والعزل وسيبهم وقتلهم.

السابع: صحيح أن الآية جاءت بصيغة المفرد "يسفك الدماء" إلا أن المراد منه الجنس، فتدخل في الآية المعارك والقتال بين الجماعات والفرق والأمم، ويخرج بالتخصص القتال في سبيل الله فإنه ليس من سفك الدماء المذموم والمذكور في هذه الآية.

الثامن: الإخبار الإلهي عن حال الملائكة، وأنهم منقطعون إلى التسبيح وذكر الله والثناء عليه تعالى، فلقد مدحوا أنفسهم في كلام مع الله عز وجل، ونزل به القرآن مما يدل على أنه حق وصدق بالإضافة إلى ورود آيات أخرى تمدح الملائكة، وتبين إخلاصهم في العبادة وإنقطاعهم إلى التسبيح وطاعتهم المطلقة لله تعالى.

التاسع: عدم علم الملائكة بخصائص الإنسان ابتداء وإستدامة فهم لم يعلموا بخلقهم إلى أن أخبرهم الله عز وجل كما أنهم لا يعلمون كل شيء

﴿١١٤﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع
عن الإنسان ووجوه الحسن فيه، قال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(١).

التفسير

قوله تعالى ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ﴾

بعد الإخبار عن صيرورة خليفة لله عز وجل في الأرض على نحو الحصر والتعيين ، جاءت هذه الآية لتبين خلق آدم وأن الله عز وجل علّمه الأسماء، فقول الملائكة لم يكن له موضوعية في خلق آدم وجعله خليفة في الأرض .

والآية تبين أهمية العلم بالنسبة للإنسان وأن فضله ومنزلته تظهر به، وتدل على استعداد الإنسان لقبول العلوم وأنواع المدركات.

وتخبر الآية أن علم آدم والملائكة علم كسبي، وهو مانع من الغرور وتدعو الآية إلى التواضع وإظهار معاني الخشوع والخضوع لله عز وجل.

ومع أن ما ورد في الآية السابقة كاف للإحتجاج على الملائكة وجعلهم يقرون ويسلمون بصيرورة خليفة لله عز وجل من البشر في الأرض إلا أن الله سبحانه لكرمه ولطفه وسعة رحمته وعظيم قدرته تفضل على الملائكة فأبان وأظهر لهم بديع صنعه بوجود خليفة في الأرض وإستحقاق آدم لمراتب الخلافة والأهلية لها.

وهل تلك الأهلية نوعية لما نفخ فيه من روحه تلك النعمة المتوارثة، أم شخصية لأن التعليم تم مباشرة من عنده تعالى، بينما المعرفة نوعية من حيث القدرة البشرية وإمكانية الفهم والتلقي خاصة مع الإطلاع على الأقوال المعتمدة في تفسير تلك الأسماء وضميمة قول الملائكة بالإفساد وسفك الدماء.

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿١١٥﴾

الأقوى أنها نوعية مخصوصة، ومع هذا يبقى الشرف لآدم عليه السلام في المقام لتلقيه التعليم مباشرة والذي هو وحي كريم، ويمكن القول أنه لا تعارض بين الأمرين، فالأهلية كانت نوعية ظهرت بخلافة آدم عليه السلام في أحسن مصاديقها وليس حصراً.

إن تعليم الله تعالى لآدم الأسماء وعد إلهي كريم للإنسان وأمام الملائكة بأن الله تعالى يبقي العلم ملازماً للإنسان في وجوده في الأرض سواء على القول بأن الخلافة شخصية أو نوعية، فنعمة تعليم الأسماء باقية في الأرض، وتتجلى بأمور:

الأول: نعمة العقل عند الإنسان، وقدرته على التمييز بين الأشياء، والخير والشر، والحسن والقيح.

الثاني: بعثة الأنبياء، ونزول الكتب السماوية، وما فيها من العلوم، وهي حصانة لأتباع الأنبياء من الأمم السابقة.

الثالث: نزول القرآن من عند الله كتاباً جامعاً للأحكام، ودستوراً باقياً إلى يوم القيامة، وإماماً يقود الناس نحو الخير والفلاح والفوز في النشأتين، ومن مصاديق قوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١)، تعاهد المسلمين لما علمه الله عز وجل لآدم عليه السلام، وحفظ كلمة التوحيد في الأرض التي هي أسمى مراتب العلم.

خلق آدم

خلق آدم أمر يهم الناس جميعاً لأنه أبوهم مطلقاً، وأصل الإنسانية ومنه تفرعت هذه الأمم وتكاثرت على مر العصور، وهو نوع آية إعجازية تدل على وجود الصانع في ابتداء الخلق وتعاهد النسل وكثرة الذرية ﴿سُرِّبَهُمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾^(١)، ولم يكن خلق آدم منفصلاً عن المخلوقات الأخرى وإنما كان جزءاً من الموجودات التي شاء الله أن تكون بعالم مترابط، ونظام متناسق.

لذلك روي عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم انه قال: إن الله خلق الأرض يوم الأحد والإثنين، وخلق الجبال يوم الثلاثاء، وخلق الشجر والماء والعمران والخراب يوم الأربعاء فتلك أربعة أيام، وخلق الخميس السماء، وخلق يوم الجمعة الشمس والقمر والنجوم والملائكة وآدم^(٢).

إنه أمر يدل على الشأن العظيم خلق آدم ﷺ وإفراده بذكر خاص ومتميز من بين الخلائق.

وورد عن عبدالله بن سلام: فخلق فيها آدم، أي آخر ساعة من يوم الجمعة على عجل، فتلك الساعة التي تقوم فيها الساعة^(٣).

إنه نوع ملازمة بين بداية خلق الإنسان ونهاية وجوده على سطح الأرض وما سخره الله له.

بالإسناد عن سعد بن عباد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: إن في الجمعة خمس خصال: فيه خلق آدم، وفيه أهبط إلى الأرض، وفيه توفي الله آدم، وفيه ساعة لا يسأل العبد فيها ربه شيئاً إلا أعطاه الله

(١) سورة فصلت ٥٣.

(٢) التبيان في تفسير القرآن ١٠٦/٩.

(٣) الطبري / تاريخ الرسل والملوك ٤٧/١.

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿١١٧﴾

إياه، ما لم يسأل إثمًا أو قطيعة، وفيه تقوم الساعة، وما من ملك مقرب ولا سماء ولا أرض ولا جبال ولا رياح ولا بحر إلا وهو مشفق من يوم الجمعة)، وفي الخبر عن سلمان قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يا سلمان أتدري ما الجمعة فيها جمع أبوك آدم^(١).

ولم يكن خلق آدم دفعة واحدة وإن كان الله عز وجل قادراً على ذلك ولكنه كان تدريجياً وعلى مراحل، كما تفضل سبحانه بخلق السموات والأرض في ستة أيام مع قدرته بخلقها دفعة واحدة لحكمته في الخلق، وليتعلم الناس الصبر من غير أن يتعارض هذا التدريج مع قوله تعالى ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٢) فكل مرحلة منها تخلق وتظهر للوجود بالكاف والنون.

وبدأ الخلق التدريجي من ساعة إختيار طينة آدم، وروي عن الامام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: إن القبضة التي قبضها الله عز وجل من الطين الذي خلق منها آدم أرسل اليها جبرئيل عليه السلام أن يقبضها، فقالت الأرض: أعوذ بالله أن تأخذ مني شيئاً، فرجع إلى ربه وقال يا رب تعوذت بك مني، فأرسل اليها إسرافيل فقالت مثل ذلك، فأرسل اليها ميكائيل، فقالت مثله، فأرسل اليها ملك الموت فتعوذت بالله أن يأخذ منها شيئاً، فقال ملك الموت واني أعوذ بالله أن أرجع إليه حتى أقبض منك^(٣).

وتظهر الرواية عزم ملك الموت على انجاز ما أمره الله تعالى به وإعطاءه الأولوية، ولكن ذلك لا يعني قصور الملائكة الذين رجعوا بسبب إستعازة الأرض، وورد في الرواية أن أمر الله تعالى لملك الموت على الحتم، أي أن أمر الله تعالى إلى من تقدمه من الملائكة لم يكن على وجه الحتم

(١) المعجم الكبير ٦/٢٣٧.

(٢) سورة يس ٨٢.

(٣) بحار الأنوار ١١/١٠٣.

﴿١١٨﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

والوجوب، وروي أيضاً عن ابن عباس ، وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قالت الملائكة " أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١)، يعنى من شأن إبليس .

فبعث الله جبرائيل عليه السلام إلى الأرض ليأتيه بطين منها فقالت الأرض أني أعوذ بالله منك أن تنقص مني شيئاً وتشينني فرجع ولم يأخذ وقال يا رب انها عاذت بك فأعذتها فبعث ميكائيل فعاذت منه فأعادها فرجع فقال كما قال جبرائيل.

فبعث ملك الموت فعاذت منه فقال وانا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمره فأخذ من وجه الأرض وخلط فلم يأخذ من مكان واحد وأخذ من تربة حمراء وبيضاء وسوداء فلذلك خرج بنو آدم مختلفين فصعد به قبل التراب حتى عاد طينا لازباً، واللازب هو الذى يلتزق بعضه ببعض ثم ترك حتى تغير وانتن وذلك حين يقول ﴿مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾^(٢) قال منتن^(٣).

وذات الطينة لم يخلق منها آدم عند إقطاعها وانتزاعها من الأرض، إنما مرت بمراحل من التغيير من غير إستحالة أو تحول نوعي أو إستهلاك في مادة أخرى ، ومقدمات للخلق.

(روي أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأحمر، والأسود، والأبيض، وبين ذلك، والسهل، والحزن، والخيث، والطيب، ثم بُلّت طينته حتى صارت طيناً لازباً، ثم تركت حتى

(١) سورة البقرة ٣٠.

(٢) سورة الحجر ٢٦.

(٣) تاريخ الطبري ٩٠/١ .

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿١١٩﴾

صارت حمأً مسنوناً، ثم تركت حتى صارت صلصالاً، كما قال الله تعالى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾^{(١)(٢)}.

وهذا الاختلاف الظاهر بين الناس في أعيان أشخاصهم وما يلحقها من الأعراض هو العلة التكوينية في إختيار طينة آدم من عموم الأرض لحكمة في الخلق، روى الصدوق عن ابن سلام انه قيل للنبي صلى الله عليه وآله وسلم خلق آدم من الطين كله أو من طين واحد؟ قال: بل من الطين كله، ولو خلق من طين واحد لما عرف الناس بعضهم بعضاً، وكانوا على صورة واحدة. قال: فلهم في الدنيا مثل؟ قال: التراب فيه أبيض وفيه أخضر وفيه أصفر وفيه أغبر وفيه أحمر وفيه أزرق، وفيه عذب وفيه ملح وفيه خشن وفيه لين وفيه أصهب، فلذلك صار الناس فيهم لين وفيهم خشن وفيهم أبيض وفيهم أصفر وأحمر وأصهب وأسود على ألوان التراب^(٣).

وبالإسناد عن حبة العرنبي عن علي عليه السلام قال: إن الله عز وجل خلق آدم من أديم الأرض فمنه السباخ ومنه الملح ومنه الطيب، فكذلك في ذريته الصالح والطالح^(٤).

وورد في الخبر أن الماء الذي صب على تلك الطينة كان مختلفاً بالعرض لأمر تتعلق بخلق آدم لأن الله عز وجل أراد له أن يكون في أحسن صورة وهيئة، ومؤهلاً للخلافة في الأرض، وقادراً على العبادة بمصاديقها العقائدية والبدنية والمالية.



(٢) سورة الحجر ٢٦.

(٣) تأريخ الطبري ٩٢/١.

(٣) بحار الأنوار ٣٠٦/٩.

(٤) علل الشرائع ٨٣/١.

﴿١٢٠﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

قال تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾^(١).

ومن الحسن وبديع الخلق التعدد في الهيئة واللون مع وحدة الجنس والسنخية.

والتقويم: الإستقامة وجعل الشيء على أفضل ما يكون من التأليف والهيئة.

وموضوع الآية حجة محل البحث على الإنسان وآية في نفسه وأصل خلقته تملي عليه ضرورة الشكر وإتخاذ دروب الطاعة، وعدم تسخير الأعضاء والأجزاء والجوارح في معصية الله، عن الإمام علي عليه السلام أن الله تبارك وتعالى بعث جبرئيل عليه السلام وأمره أن يأتيه من أديم الأرض بأربعة طينات طينة بيضاء وطينة حمراء وطينة غبراء وطينة سوداء، وذلك من سهلها وحزنها، ثم أمره أن يأتيه بأربع مياه، ماء عذب وماء ملح وماء مر وماء منتن، ثم أمره أن يفرغ الماء في الطين، فجعل الماء العذب في حلقه، وجعل الماء المالح في عينيه، وجعل الماء المر في أذنيه، وجعل الماء المنتن في أنفه.

وفي علته وبيان منافعه جاء عن الامام جعفر الصادق عليه السلام انه قال: انما جعل الماء العذب في الخلق ليسوغ له أكل الطعام، وجعل الماء المالح في العينين إبقاء على شحمة العين لأن الشحم يبقى إذا وضع عليه الماء، وانما الماء المر في الأذنين فلتلا تهجم الهوام على الدماغ ومن ذلك انها إذا وصلت إلى الماء المر في الأذنين ماتت، فلو تعدى الماء المر وصل إلى الدماغ^(٢)، والحديث يبان لسر من أسرار الخلق وإخبار عن آيات بديع صنعه تعالى وتفسير للآية الكريمة أعلاه.

(١) سورة التين ٤.

(٢) توحيد المفضل.

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿١٢١﴾

وفي الحديث: (إن الله خلق آدم بيده ثم سواه قبلاً)^(١)، أي بلا واسطة ومن غير أن يولي أمر خلقه أحداً من الملائكة، انه نوع إكرام للإنسان ولكن الذي يجب أن لا يغفل عنه هو لزوم الشكر لهذا التشريف وإبرازه خارجاً بالإرتقاء في سلم العبادة والطاعة.

إن خلق آدم دليل على وجود واجب الوجود، ففي خلقه من طين برهان على أن الأسباب القريبة لخلقه حادثة وانه حادث يفتقر إلى الحيز والحركة والتغيير كما يؤكد التدرج في مراحل خلق آدم حقيقة أن الله عز وجل فاعل مختار بإعتبار أن المؤثر الموجب يستحيل تخلف أثره عنه، وأن سبق خلق آدم بوجود الأرض والطين يثبت أن آدم ممكن مسبوق بالعدم وليس بقديم، مثله مثل غيره من الخلائق، وورد: أن الله تعالى خلق ألف ألف آدم.

وقد جاءت آيات القرآن لتؤكد أن خلق الإنسان من طين، ليكون أصل الخلقة مدخلاً كريماً لإثبات حقيقة البعث والنشور.

وفي باب علة حرمة أكل الطين ذكر أن آدم خلق منه، قال تعالى ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾^(٢).

وقد يسأل بعضهم عن حال الذين يموتون في الكواكب الأخرى في حال هجرة الناس إليها وكيف يعادون إلى الأرض.

وقد لا تكون تلك الإعادة فورية بعد الموت ويمكن الإستشهاد بأمثلة موجودة منها ما يتعلق بحال الوفاة كالذي لا يدفن عند موته، وخروجه عن المألوف، أو بسبب سنن ملته أو يموت غرقاً ولا يخرج جسده من الماء، كذلك أولئك الذين قد يدفنون في غير الأرض فإنهم لابد وأن يعادون إليها قبل النشور ليكون منها بعثهم بالإضافة إلى وجود الملائكة النقالة الذين

(٢) لسان العرب ٥٣٨/١١.

(٢) سورة طه ٥٥.

﴿١٢٢﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

ينقلون بعض الموتى عند دفنهم، قال تعالى ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾^(١).

أي أن أحكام النشور شاملة لسكان السماوات والأرض ، والانتقال وإتخاذ غير الأرض مسكناً ثم مدفناً لا يمنع من إمتزاج العناصر وإعادة الأجزاء إلى أصولها.

ومن صفات الله تعالى أنه يريد أي أنه عالم بما يشتمله الفعل من المصلحة الداعية إلى إيجاده وبما يخصص إيجاده في وقت دون آخر، وجهة دون أخرى، من غير تأثير بمولدات تلك الإرادة أو الإنفعال بها كما عند الناس إذ ينالهم شوق أو نحوه يبعث إلى تحصيل الفعل لأن علمهم كسبي إنطباعي، أما علم الله تعالى فهو حضوري ذاتي، وسابق للمعلوم.

وقيل لما نفخت الروح في آدم أتته من قبل رأسه، ولعله لوجوه:

الأول: تشريف الرأس لمكان العقل.

الثاني: صلاح الرأس لبداية الحياة وجريانها في البدن.

الثالث: قابلية الرأس لتلقي الروح.

الرابع: لأنه مركز الاحساس العصبي.

وروي بالإسناد عن ابن مسعود وغيره من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه لما بلغ الحين الذي أراد الله عز وجل أن ينفخ فيه الروح، قال للملائكة: إذا نفخت فيه من روحي فأسجدوا له، فلما نفخ فيه الروح فدخل الروح في رأسه عطس، فقالت الملائكة: قل الحمد لله، فقال: الحمد لله، فقال الله عز وجل له: رحمك ربك، فلما دخل الروح في عينيه نظر إلى ثمار الجنة، فلما دخل في جوفه إشتهى الطعام، فوثب قبل أن

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿١٢٣﴾

تبلغ الروح رجله عجلان إلى ثمار الجنة.. الحديث^(١)،
ليكون من الإعجاز في نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ابتداء
ترتيب آيات القرآن بالمد لله بعد البسملة للدلالة على وراثة المسلمين
للأنبياء.

وفي قوله تعالى ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَجٍ﴾^(٢)، ورد عن ابن
عباس انه قال: أراد بالإنسان آدم عليه السلام وانه لما بلغ الروح صدره
أراد أن يقوم.

وفي إشارة إلى سجايا الإنسان وظهور العجلة على سلوكه وانه مجبول
عليها، قيل أن العجل هنا هو الطين بلغة حمير، ولكن معنى العجلة يحمل
على ظاهره من غير نفي لإحتمال وجود ملازمة بين العجلة والخلق من
الطين.

وقد ورد في الخبر انه مما أوحى الله إلى أيننا آدم عليه
السلام: (أن المستنبطين للعلوم عندي أفضل من عمار
الأرض بالصنائع ومن استنبط علماً ودونه في كتاب فهو
بمنزلة آدم الصفي)^(٣).

وورد ايضاً أن الله تعالى قال لآدم عليه السلام: (روحك من روحي
وطبيعتك على خلاف كينونتي)، ولم يذكر السند في كلا الخبرين ولا جهة
الصدور، وهو أمانة ضعف فيهما.

(١) تاريخ الطبري ٩٤/١.

(٢) سورة الأنبياء ٣٧.

(٣) الاسفار ٥/٦.

صفة آدم

لسبق وتقدم زمان آدم عليه السلام يوصف جماله بأن يستحضر موضوع خلق الله تعالى له بيده، كما يتم تشبيه حسن نبي الله يوسف عليه السلام بحسن وبهاء آدم عليه السلام.

ومما لا يختلف فيه المليون حسن وجمال يوسف عليه السلام وفيه كموضوع جرت قصص وأحاديث هي مدرسة في الموعظة، ويعتمد التشبيه الحسي والعقلي عندما يراد وصف جماله عليه السلام وتقريبه إلى الأذهان، والتشبيه باب معروف في البلاغة باعتباره أول طريقة لبيان المعنى والدلالة على الطبيعة.

وهو في الإصطلاح مماثلة بين إثني أو أكثر من خلال الإشتراك بصفة ما، يتحقق منها الغرض وقصد الإفهام، ويجري بين طرفين، المشبه الذي يراد تمثيله وإلحاقه بغيره، والمشبه به الذي يراد أن يلحق به المشبه من خلال الوصف الذي يكون فيه المشبه به أظهر وأقرب إلى الأذهان منه بالمشبه، عندما يراد وصف جمال يوسف عليه السلام يشبه بآدم عليه السلام، بلحاظ البهاء والحسن الذي إمتاز وإتصف به آدم من بين البشر بأن خلقه الله عز وجل بيده، وجعله آية عظمى بين الملائكة وسكان السماوات.

وفي حديث النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم مع فاطمة عليها السلام في وصف علي عليه السلام: وأما ما قلت أنزع عظيم العينين فإن الله خلقه بصفة آدم^(١).

أي أن صفة آدم والتمثيل بها محط فخر وإعتزاز، ولعل في الشبه الظاهري دلالات عرفانية عديدة.

وفي حديث هشام بن العاص قال: بعثت انا ورجل آخر إلى هرقل صاحب الروم ندعوه إلى الإسلام إلى أن قال: فأقمنا ثلاثاً فارسل - أي

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿١٢٥﴾

هرقل - إلينا ليلاً، فدخلنا عليه، فاستعاد قولنا، فأعدناه ثم دعا بشيء كهيفة
الربعة العظيمة مذهبة فيها بيوت صغار عليها أبواب، ففتح بيتاً وقفلاً،
فأستخرج حريرة سوداء فنشرناها فإذا فيها صورة حمراء، وإذا فيها رجل
ضخم العينين، عظيم الألتين، لم أر مثل طول عنقه، وإذا ليست له لحية
وإذا له ظفيران أحسن ما خلق الله، فقال أتعرفون هذا؟ قلنا: لا، قال:
هذا آدم عليه السلام، وإذا هو أكثر الناس شعراً^(١) إلى أن قال: ثم فتح باباً
آخر فاستخرج منه حريرة بيضاء فإذا فيها صورة كصورة آدم كأن وجهه
الشمس، فقال هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا، قال: هذا يوسف عليه
السلام... الحديث^(٢).

ولقد كان آدم عليه السلام طويل القامة بما يفوق كثيراً المتعارف في هذه
الأزمان، بالإسناد عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: "ما بكى أحد بكاء
ثلاثة، آدم ويوسف وداود، فقلت: ما بلغ من بكائهم؟ قال: أما آدم
فبكا حين أخرج من الجنة وكان رأسه في باب من ابواب السماء فبكى حتى
تأذى به أهل السماء، فشكوا ذلك إلى الله فحط من قامته" الحديث^(٣).

وفي رواية وكان يتأذى بالشمس فحط من قامته^(٤)، أي أن النقص في
طوله كان لمنفعته بل وحاجته ويتناسب مع وجوده على سطح الأرض،
وربما كان الطول الزائد ملائماً لأحوال المعيشة والإقامة في الجنة.

وبالإسناد عن أبي بن كعب قال: "قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم: أن أباكم آدم كان طوالاً كالنخلة السحوق، ستين ذراعاً، كثير
الشعر، موارى العورة، وأنه لما أصاب الخطيئة بدت له سوءته فخرج

(٢) تاريخ ابن كثير ٢/٢٥٢.

(٣) تاريخ ابن كثير ٢/٢٥٢ - ٢٥٣.

(٣) تفسير العياشي ٢/١٨٦.

(١) تاريخ العياشي ٢/١٧٨.

﴿١٢٦﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

هارباً في الجنة، فتلقيه شجرة، فأخذت بناصيته، وناداه ربّه، أفراراً مني يا آدم، قال: لا والله ياربّ، ولكن حيأً منك مما قد جنيت، فأهبطه الله إلى الأرض □.. الحديث^(١).

وبالإسناد عن مقاتل بن سليمان عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال سئل عن طول آدم وحواء حين هبطا إلى الأرض، فقال: وجدنا في كتاب علي عليه السلام أن الله تعالى لما أهبط آدم إلى الأرض، أن رجليه كانا بشية الصفا ورأسه دون أفق السماء وأنه شكا إلى الله.

لقد ورد في الحديث أن الله عز وجل خلق آدم على صورته، ولا بد من إعادة الهاء في (صورته) إلى غير الله عز وجل لأنه ليس بجسم ولا يوصف بكيف وإن إشتبه على قوم بهذا الحديث، وهي تعود إلى آدم عليه السلام الذي لم يتدرج في الخلق من نقطة ثم علقه ثم مضغة مروراً بمراحل النمو الأخرى بما فيها سن الطفولة والصبا قال تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾^(٢)، مما يدل على أنه خلق بديع.

وسئل الإمام الرضا عليه السلام: يا ابن رسول الله إن الناس يروون أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: إن الله خلق آدم عليه السلام صورته، فقال: لقد حذفوا أول الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مرّ برجلين يتسابان فسمع أحدهما يقول لصاحبه قبح الله وجهك ووجه من يشبهك، فقال: يا عبد الله لا تقل هذا لأخيك فإن الله تعالى خلق آدم على صورته.

وعن الإمام الباقر عليه السلام: إنها صورة محدثة إصطفاها الله وإختارها على سائر الصور المختلفة فأضافها إلى نفسه كما أضاف الكعبة

(٢) تاريخ الطبري ١/ ١٦٠.

(٢) سورة التين: ٤.

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿١٢٧﴾

والروح إلى نفسه فقال: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾^(١)، وقد ذكرت وجوه وجوه عديدة للحديث، بلغت في الأصول المهمة عشرين وجهاً. كما تظهر الآية الكريمة المنزلة السامية للعلم وما يُنال به من المراتب ذات العز والرفعة وإستحقاق الإكرام، وفي الأسماء التي علمها الله تعالى لآدم أقوال منها:

الأول: إن الله سبحانه علمه جميع الأسماء والصناعات وعمارة الأرضين والأطعمة والأودية، وإستخراج المعادن وغرس الأشجار ومنافعها وجميع ما يتعلق بعمارة الدين والدنيا، وهو المروي عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير^(٢).

الثاني: إن الله تعالى علمه أسماء الملائكة وأسماء ذريته، عن الربيع وابن زيد^(٣).

الثالث: بالإسناد عن ابن عباس قال علم الله تعالى آدم الأسماء كلها وهى هذه الأسماء التى يتعارف بها الناس انسان ودابة وأرض وسهل وبحر وجبل وحمار وأشباه ذلك من الأمم وغيرها^(٤).

الرابع: إن الله تعالى علمه القاب الأشياء ومعانيها وخواصها، وهو أن الفرس يصلح لماذا، والحمار يصلح لماذا^(٥).

الخامس: روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه سئل عن هذه الآية فقال: الأرضين والجبال والشعاب والأودية، ثم نظر إلى بساط تحته فقال:

(١) سورة الحجر ٢٩.

(٢) مجمع البيان ٧٦/١.

(٣) التبيان في تفسير القرآن ١٣٩/١.

(٤) تأريخ الطبري ٩٧/١.

(٥) مجمع البيان ٧٦/١.

﴿١٢٨﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

وهذا البساط مما علمه ^(١)، وعنه عليه السلام أيضاً في الآية قال: أسماء الأودية والنبات والشجر والجبال من الأرض.

وورد عن داود بن سرحان قال: كنت عند الإمام الصادق عليه السلام فدعا بالخنّون فتغدينا، ثم دعا بالطشت والدستشان ^(٢) فقلت: جعلت فداك، قوله تعالى ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ الطشت والدستشان منه؟ فقال: الفجاج والأودية وأهوى بيده كذا وكذا.

السادس: عن ابن عباس قال: علمه اسم كل شئ ^(٣)، وعن الامام الصادق عليه السلام قال: علمه أسماء الأشياء كلها.

وتفيد الآية أن اللغة جاءت بتعليم مباشر من الله تعالى وأنها من أول ما رزق الله عز وجل آدم: (وقال الشيخ الطوسي: وظاهر الآية وعمومها يدل على انه علمه جميع اللغات وبه قال الجبائي والرماني) ^(٤) فأخذ عنه ولده اللغات فلما تفرقوا، تكلم كل قوم منهم بلسان ألفوه وإعتادوه وتطاول الزمان على ما خالف ذلك فنسوه).

وعن الرازي: قال الأشعري والجبائي والكعبي اللغات كلها توقيفية، بمعنى أن الله تعالى خلق علماً ضرورياً بتلك الألفاظ وتلك المعاني) ^(٥).

ولكن ظاهر الآية لا يدل عليه، والقدر المتيقن هو تعليم آدم ما يصح به التعبير عن المعنى من الالفاظ المناسبة وباللغة التي إعتادها الملائكة وما يتخاطبون به، ويمكن أن تكون تلك اللغة هي العربية، وهي لغة أهل الجنان.

(١) تفسير العياشي ٣٤/١.

(٢) الدستشان: محل غسل اليد.

(٣) تأريخ الطبري ٩٧/١.

(٤) انظر مفاتيح الغيب ١٧٦/٢.

(٥) انظر مفاتيح الغيب ١٧٦/٢.

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿١٢٩﴾

وقيل أن اللغات جميعاً انما سمعت من آدم، وعنه أخذت، وهو أمر يحتاج إلى دليل أو أمانة، خاصة وأن الإستقراء التاريخي بخلافه وفيه زيادة عن الحاجة وإن كان كفضل من الله تعالى على عبده ونبيه الذي خلق بيده والناس أمراً غير مستبعد.

وفي الآية إعجاز وهو أن الله عز وجل علم آدم لغة الخطاب وأسماء الأشياء وجعله يعيها ويحفظها، وقال البلخي: ويجوز أن يكون أخبره بها فوعاها في وقت قصير بما أعطاه الله من الفهم والحفظ.

ولكن ليس في الآية ما يدل على أن وقت التعليم كان قصيراً، وفيه أيضاً إشارة إلى أهمية الاسم وموضوعيته في العلوم وفي حقائق الأشياء وأن كان الاسم غير المسمى، فالآية تأسيس لعلم خاص بالأسماء .

ومن الآيات تعدد أسماء القرآن في القرآن، إذ ورد ذكره باسم القرآن والكتاب والفرقان والذكر والروح وغيرها.

بحث أصولي

من النعم الإلهية على الإنسان وضع الألفاظ أزاء معاني خاصة بها، ليكون بينهما إرتباط خاص يترشح عن التخصيص وكثرة الإستعمال والرسوخ في الوجود الذهني، للدلالة على أن هذا الإرتباط رشفة من رشفات نعمة العقل التي أنعم الله تعالى بها على الإنسان.

ومن الآيات في خلق الإنسان إقتران وضع الألفاظ للمعاني بساعة خلقه، وعدم تخلفه عنه، مما يدل على حاجة الإنسان للوضع والإرتباط بين اللفظ والمعنى والعلاقة بينهما، وهذه الحاجة مصاحبة للإنسان إلى يوم القيامة.

فمن فضل الله تعالى على الأجيال المتعاقبة من الناس وضع الألفاظ أزاء معانيها، وتعليم آدم الأسماء كلها، وإن نفذ إبليس من هذه الجهة وأغوى آدم وحواء على الأكل من الشجرة، فلولا لغة التخاطب والتفاهم بينهم قد

﴿١٣٠﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

لايستطيع إبليس إغواء آدم وحواء بذات الموضوع، مما يدل على لزوم تعاهد حفظ نعمة الوضع بذكر الله والعبادة والإحتراز من اغواء الشيطان، ومنع طغيان وشيوع الألفاظ التي يترشح عليها القبح من معانيها.

لقد أراد الله تعالى بتعليم آدم الأسماء أن يكون هذا التعليم مناسبة لذكره ، لذا كانت أول كلمة نطق بها آدم هي ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، فقد ورد عن ابن مسعود وغيره فلما نفخ فيه الروح فدخل الروح في رأسه عطس فقالت الملائكة قل الحمد لله، فقال الحمد لله، فقال الله عزوجل رحمك ربك^(١).

مما يدل على أن آدم تعلم أيضاً من الملائكة معاني الثناء والشكر لله تعالى ومناسبته، ولكن هذا التعليم معارض بما ورد عن ابن عباس أن قول آدم "الحمد لله" كان بإلهام من الله إذ ورد عنه انه قال: فلما تمت النفخة في جسده عطس فقال الحمد لله رب العالمين بإلهام الله فقال يرحمك الله يا آدم^(٢).

وكذا ورد عن محمد بن اسحق قال: انه لما انتهى الروح إلى رأسه عطس، فقال الحمد لله. ومع هذا فإن آدم تعلم من الملائكة، ولا تعارض بين الإلهام والتلقي من الملائكة، وقد يتحدثان وهو من أسرار سكنه في بداية خلقه في الجنة.

ولا تصل النوبة لقاعدة: مع التعارض يكون التساقط) إلا مع وجود مرجح، لأن الأصل هو الإلهام والفضل من عند الله تعالى، ولأن هذه الأخبار ثروة علمية كالوقف لكل المسلمين .

لقد أراد الله عز وجل من وضع الألفاظ إمضاء الجزاء والثواب ، فمع اللفظ والنطق الذي يفيد معنى مخصوصاً عند السامع يأتي الفضل الإلهي ، والوضع من وجوه الإبتلاء والإختبار في الحياة الدنيا، وهو من مقومات

(١) تاريخ الطبري ٩٤/١.

(٢) تاريخ الطبري ٩٥/١.

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿١٣١﴾

الخلافة في الأرض وقد ذكرنا في الجزء الأول نظرية جديدة في الإعجاز القرآني بالملزمة بين اللفاظ القرآن والوجود الذهني^(١).

وأختلف في إبتداء وأصل وضع الألفاظ أزاء معانيها على أقوال:

الأول: إن الله تعالى هو الواضع، وقال به جماعة منهم أبو الحسن الأشعري، وهو على وجوه:

الأول: إن الله تعالى لقن آدم اللغات، ويمكن أن يستقرأ هذا القول من قوله تعالى ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ وأن اللغات تفرعت من آدم، ولكنه لم يثبت، خصوصاً مع تعدد اللغات، ومنها ما ظهر وشاع بعد آدم بأجيال.

الثاني: إن الله تعالى وضع الإلفاظ أزاء معانيها، كما وضع الأحكام على متعلقاتها وضعاً تشريعياً.

الثالث: هداية الله تعالى للناس باظهار تعاهدهم بالألفاظ وثبوت نسبتها وعلاقتها بالمعاني، وهو من اللطف والحكمة الإلهية ومن عمومات قوله تعالى ﴿خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾^(٢)، خصوصاً مع لحاظ المعنى وإرادة الجنس والإستغراق بالألف واللام في (الناس) من غير أن يتعارض مع إرادة القضية الشخصية، وخلق الإنسان في بدنه وجسده ونفقه، إذ أنعم الله تعالى على الإنسان بنعمة النطق، والتفاهم والإستئناس وقضاء الحوائج الفردية والعامة بالوضع والإرتباط الخاص بين الألفاظ ومعانيها، قال الأخطل:

إن الكلام لفي الفؤاد وانما

جعل اللسان على الفؤاد دليلاً^(٣).

الرابع: تفضل الله بوضع الألفاظ أزاء معانيها بالوحي إلى الأنبياء الذي

(١) انظر الجزء الأول ٢٥١.

(٢) سورة التين ٤.

(٣) مفاتيح الغيب ١٦/١.

﴿١٣٢﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

يتضمن البيان وتعيين المعاني المقصودة من الألفاظ بما يمنع اللبس والترديد.

الخامس: يأتي الوضع بالهام من الله تعالى إلى البشر، والمراد من الإلهام أعم من الوحي للأنبياء، بل هو الهداية والتوفيق للجماعة والأمة، وقد أنعم الله تعالى على النحل وعلمها كيفية المعيشة فكانت ولا زالت تعيش بنظام دقيق يقتبس منه القائد والسياسي والمملك مسائل في شؤون التدبير، قال تعالى ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾^(١).

السادس: إيداع اللغة في طباع الناس، وجعلهم مؤهلين بالفطرة للوصول إلى لغة للتفاهم بينهم، والله تعالى لاتستعصي عليه مسألة.

الثاني: الواضع لكل لغة هو شخص من البشر بمبادرة شخصية أو نتيجة للشأن والمقام الخاص له بين قومه إذ يتبعونه في الوضع ويقومون بتثيت الألفاظ أزاء معانيها بالمزاولة والاستعمال، وقيل واضع اللغة العربية هو يعرب بن قحطان ، ومنه إشتق إسمها .

ويجتهد الواضع بوضع ألفاظ مخصوصة أزاء معاني معينة حتى يشيع هذا الوضع وينشره بين قومه، وإذا ما إحتاجوا إلى وضع لفظ أزاء معنى وموضوع آخر رجعوا اليه كما يرجع في هذا الزمان أحياناً إلى المجمع اللغوي والعلمي لإيجاد المناسب من الألفاظ الإصطلاحية أزاء معاني مستحدثة.

الثالث: جاء وضع اللغة بجهود وتعاون نفر من الناس يجمعهم المكان أو النسب إذ جعل الله عز وجل عندهم القدرة على التخاطب وأنعم عليهم بنعمة النطق، ويدركون الحاجة إلى الجماعة والإتحاد وفك الخصومة بلغة للتفاهم بينهم، وقد يقوم أكثر من واحد منهم بإختيار لفظ مخصوص لذات

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿١٣٣﴾

المعنى مما يجعل معه التعدد في الألفاظ ولكن أحد تلك الألفاظ هو الذي يبقى في الإستعمال بسبب وجود راجح وعلقة مناسبة للمعنى، أو أثر منزلة وشأن الذي وضعه، أو كثرة الذين بادروا إلى إستعماله وغيرها من الأسباب.

الرابع : دلالة الألفاظ على معانيها بالذات ومن غير وضع واضح، كدلالة الدخان على النار، وضيء النهار على طلوع الشمس، ولكنه خلاف الواقع وما يحصل من التباين في اللغات خصوصاً عند تعاقب الأجيال.

الخامس : التعدد في الوضع فمن الألفاظ ماتوارثته الأمم من الوحي والتزليل، وهو على وجوه :

الأول : وضع لأسماء الأشياء والمعاني وضعه شخص معين.

الثاني : ما وضع من قبل أشخاص متعاقبين.

الثالث : ما تفاهم وتعاضد على وضعه جماعة.

السادس : التفصيل في الألفاظ ومعانيها، فكان تعليم الله تعالى لآدم عليه السلام لخصوص الأعلام الشخصية، وهذا التعليم قاعدة لإشتقاق الأفعال والحروف.

السابع : جاء الوضع نتيجة الحاجة والتجربة والوجدان، ولم ينحصر بزمان أو شخص أو جيل مخصوص.

الثامن : إن اللغة التي علمها الله تعالى لآدم عليه السلام هي لغة توليدية تتولد عنها اللغات الأخرى، والله واسع كريم، أو أن تلك اللغة أساس للتفاهم وهي قابلة لدخول ألفاظ عليها في ذات المعاني ليس من باب المجاز والنقل، بل للسعة في الوضع بما يحصل معه إستقرار اللغات، فتكون اللغة التي علمها الله لآدم هي اللغة الأم، وتفرعت عنها اللغات الأخرى. وتحتل اللغة التي علمها الله عزوجل آدم عليه السلام من جهة البقاء والأثر وجوهاً:

الأول : بقاؤها موجودة بين لغات الأمم، فهي كل طبيعي ومقسم لا

﴿١٣٤﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

بشرط يتغشى اللغات الأخرى.

الثاني: تفضل الله تعالى وعلم آدم اللغات كلها، ثم أخذت كل أمة واحدة منها، لتكون اللغة عنوان الصلة بين آدم عليه السلام وبين الأمم ويكون نفع وأثر تعليم الله عز وجل لآدم الأسماء ظاهراً على الناس كلهم في اللغات التي يتخاطبون ويتفاهمون بها والتي تم وضعها على نحو تدريجي.

الثالث: إنقراض اللغة التي علمها الله تعالى آدم عليه السلام، وحلت بدلاً لها لغات من وضع البشر.

الرابع: تلقي الأنبياء بالوحي لذات الأسماء التي علمها الله تعالى لآدم عليه السلام فضلاً منه تعالى.

الخامس: بقاء ذات اللغة التي علم الله تعالى الأسماء بها، لتبقى لها قدسية وشأن خاص.

والصحيح هو الخامس، فإذا أنعم الله تعالى نعمة على الإنسان فإنه سبحانه أكرم من أن يرفعها، وتفضل الله تعالى بحفظ هذه اللغة بالقرآن وهو الكتاب الباقي إلى اليوم القيامة .

ومن إعجازه حفظه اللغة التي نزل بها، إذ يشاق ويسعى الناس من مختلف الأجناس لتعلم اللغة العربية باعتبارها لغة القرآن، والتي يحتاجها المسلم عدة مرات في اليوم في صلاته، وليس من لغة يحتاجها الإنسان مثل حاجته إلى اللغة العربية سواء على القول بأن الكفار مكلفون بالفروع وهو المشهور والمختار ، أم ليسوا مكلفين بها، لبروز الحاجة العملية المتجددة للمسلمين لتعلم العربية والتلفظ بها، ومنها تلاوة الآيات على نحو الوجوب في الصلاة اليومية .

والقرآن يمنع من نسيان هذه اللغة بعد تعلمها، وهو مدرسة يومية متجددة لتلقي الدروس في اللغة العربية.

ومن الآيات أن اللغة العربية هي لغة أهل الجنة في الآخرة، وذكر أن

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿١٣٥﴾
اللغة التي تعلم بها آدم الأسماء هي اللغة السريانية، وورد أن أول كلمة
نطق بها آدم هي ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وفي رواية ابن مسعود أن الملائكة لقتته هذه
الكلمة عندما عطس ، وهي كلمة عربية إلا أن يراد من النصوص ذكر
الترجمة والمعنى لها بالعربية، ومع الشك في إرادة ذات اللفظ أو ترجمته
ومعناه، فالأصل هو ذات اللفظ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وباللغة العربية.

لقد جاء تعليم الله تعالى آدم عليه السلام الأسماء بلغة مخصوصة،
وكانت هي لغة التخاطب عندما هبط الأرض، وتوارثها منه أبنائه، إلا أن
كثرة النسل وتعدد الأمصار والتباعد بين الناس والأمم، جعل الأمم تبتدع
لنفسها لغات، وهو لا يتعارض مع أصل اللغة بل أن تعليم الأسماء لآدم
آية من بديع صنع الله، ولعل فيه بشارة عودة الناس إلى التكلم بلغة واحدة
، خصوصاً مع حلول زمان العولمة، لتكون لغة القرآن هي الأرجح لحاجة
الناس إليها وإمكان الإستغناء عن أي لغة إلا العربية، إذ أن حاجة كل
مسلم ومسلمة لها متجددة في اليوم والليلة .

في سياق الآيات

الصلة بين هذه الآية والآيات المجاورة على شعبتين:

الأولى: الصلة بين الآيات السابقة وهذه الآية، وفيها وجوه منها:

الأول: الصلة بين آية ﴿فَسَوَّاهُنَّ﴾^(١)، وبين هذه الآية وفيها مسائل:

الأولى: إبتدأت الآية أعلاه بالضمير (هو) وإبتدأت هذه الآية (وعلم
آدم) والفاعل في الآيتين هو الله عز وجل.

الثانية: بيان تعدد النعم الإلهية على آدم وذريته.

الثالثة: بيان إكرام الله عز وجل لآدم وذريته بأن جعل خلق ما في
الأرض من أجلهم وقبل أن يخلقوا، ثم تفضل وعلم آدم الأسماء كلها.

﴿١٣٦﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

الرابعة: لم تنحصر النعم الإلهية التي تنتظر الإنسان بما في الأرض، بل في السماء أيضاً بأن جاء خلق آدم في السماء وبعلم من سكانها وهم الملائكة.

الخامسة: إن الله عز وجل يعلم بخلق آدم قبل أن يخلقه وأن ذريته ستعمر الأرض لأنه سبحانه جعل الناس ومعاشهم وعبادتهم العلة الغائية لخلق الأرض قبل أن يسوي السماء سبع سماوات ، وفيه نوع إكرام لهم .
السادسة: جمعت الآية أعلاه خلق السموات والأرض، وجاءت هذه الآية في موضوع يخص سكانها معاً.

الثاني: الصلة بين آية ﴿خَلِيفَةً﴾^(١)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: ليس من فترة بين إخبار الله عز وجل للملائكة بجعل خليفة في الأرض وبين تعليم آدم الأسماء.
ويحتمل الجمع بين الآيتين وجوهاً:
الأول: جاء إخبار الله للملائكة بجعل خليفة في الأرض قبل خلق آدم ونفخ الله فيه من روحه.

الثاني: جاء الإخبار عن الخليفة بعد خلق آدم.

الثالث: الملازمة بين خلق آدم وإخبار الله للملائكة بجعله خليفة في الأرض.

الظاهر هو الأول لأن الأمر الإلهي للملائكة بالسجود لآدم جاء متقدماً على خلقه قال تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَبِّ مَسْنُونٍ*فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾^(٢).

(١) الآية ٣٠.

(٢) سورة الحجر ٢٨-٢٩.

معالم الإيمان / الجزء السابع _____ ﴿١٣٧﴾

الثانية: تعليم الله عز وجل آدم الأسماء، من مصاديق خلافته الأرض.
الثالثة: جاءت هذه الآية بذكر (آدم) بالإسم، بينما ذكرته الآية أعلاه بصفة (خليفة) وهو تشریف عظيم لآدم، بأن تسبق صفته إسمه.

الرابعة: التباين الموضوعي بين قول الله وقول الملائكة في الإنسان، فقد نظر الملائكة للفساد وسفك الدماء الذي يفعله شطر من ذرية آدم. فبين الله عز وجل للملائكة تعلم آدم الأسماء ومرتبته في الكسب والتحصيل، وما تدل عليه من إزاحة أسباب الغشاوة وآثار النفس الغضبية والشهوية عند ذريته.

الخامسة: تكرار لفظ الملائكة في الآيتين ، فهم شهود لخلق آدم وإكرامه من الله عز وجل.

الشعبة الثانية: الصلة بين هذه الآية والآيات التالية، وفيها وجوه:
الأول: الصلة بين هذه الآية والآية التالية ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾^(١)، وفيها

مسائل:

الأولى: ذكرت هذه الآية قول الله للملائكة، وذكرت الآية التالية رد الملائكة.

الثانية: بيان لغة الخضوع والخشوع التي يتصف بها الملائكة (قالوا سبحانك).

الثالثة: إشتراك آدم والملائكة بالتعليم من عند الله عز وجل، فهو الذي يتفضل ويعلم أهل السماوات والأرض.

الرابعة: تقدم آدم في العلم مرتبة على الملائكة مع تأخر زمان خلقه عن خلقهم.

الثاني: الصلة بين هذه الآية وآية ﴿أَنبِئُهُم بِأَسْمَائِهِمْ﴾^(٢) وفيها مسائل:

(١) الآية ٣٢.

(٢) الآية ٣٣.

﴿١٣٨﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

الأولى: إتحاد موضوع الآيتين بخصوص أسماء الأشياء التي سأل الله عز وجل عنها الملائكة.

الثانية: بيان الوظائف الغيرية لتعليم آدم الأسماء، وأن منافعها أعم من أن تنحصر بقضية عين شخصية، أو أبناء آدم الصليبين أو ذريته مطلقاً، بل تشمل الملائكة أيضاً.

الثالثة: ثناء الله عز وجل على نفسه وأنه يعلم الغيب ، وتجلي في المقام بقيام آدم بتعليم الملائكة الأسماء.

الرابعة: بيان نعمة العقل وأثر نفخ الروح عند آدم بين حفظ الأسماء وقام بالنطق بها وتعليمها الملائكة.

الثالث: الصلة بين هذه الآية وآية ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾^(١)، وفيها مسائل:

الأولى: بعد تعليم آدم الملائكة الأسماء، جاء أمر الله لهم بالسجود له، وكأن من نواميس السماء سجود المتعلم للمعلم.

الثانية: يحتمل هذا السجود وجهين:

الأول: ترك الملائكة لإنكار جعل خليفة في الأرض.

الثاني: عدم التعارض بين الإنكار والسجود لجهاث:

الأولى: التباين في المتعلق، فالإنكار خاص بشر من ذرية آدم الذين يفسدون في الأرض، وأما السجود فهو خاص لآدم، وجاء إمثالاً لأمر الله عز وجل.

الثانية: جاء إنكار الملائكة لأن الجملة خبرية، بإخبار الله عن جعل خليفة في الأرض، أما السجود فهو جاء لجملة إنشائية وصيغة الأمر من عند الله الذي يحمل على الوجوب.

الثالثة: الآية من عمومات قوله تعالى ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿١٣٩﴾

مَا يُؤْمَرُونَ ﴿١﴾، ولا تعارض بين الوجهين.

الرابعة : بعد تعليم آدم الأسماء وقيامه بتعليم الملائكة بها جاء الأمر الإلهي للملائكة بالسجود لآدم، وفيه بيان لمنافع نعمة العلم، ودعوة الناس للحصول والكسب، والإرتقاء في المعارف الإلهية.

فضل العلم

ورد الفعل (علم) بصيغة الماضي في القرآن أربع مرات، كلها منسوبة في فعلها إلى الله تعالى، ويقع الفعل على الإنسان أي أن التعليم جاء من عند الله تعالى إلى الإنسان وهو على قسمين:

الأول: القضية الشخصية، والذي جاء في تعليم الله تعالى لآدم الأسماء كما في هذه الآية.

الثاني: القضية النوعية، إذ جاء التعليم لجنس الإنسان، وجاءت به الآيات الثلاثة الأخرى وهي:

الأولى: قوله تعالى ﴿الرَّحْمَنُ ۖ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ ﴿٢﴾، وفيه آية بأن الله عزوجل أنزل القرآن على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعلمه إياه، وهو من وجوه تفضيل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم على الأنبياء الآخرين.

والتعليم غير التنزيل، والتعليم التبين وما يصير به الإنسان عالماً، وجاء بعد تعليم القرآن ذكر خلق الإنسان وإخراجه من العدم إلى الوجود (عن ابن عباس: والمراد بالإنسان هنا آدم) ﴿٣﴾.

فمع تقدم زمان خلق آدم على نزول القرآن، فقد جاء في الآية متأخراً

(١) سورة التحريم ٦.

(٢) سورة الرحمن ١-٢.

(٣) مجمع البيان ٩/١٩٧.

عنه، لبيان موضوعية تعليم القرآن.

وهل يفيد الجمع بين الآيتين أعلاه أن المراد من الأسماء في قوله تعالى ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ أنه تعليم القرآن وآياته، الجواب لا دليل عليه، والأخبار بخلافه لأنها تشير إلى أسماء الأشياء والأعيان والأشخاص، نعم يدل الجمع بينهما على إتحاد موضوع التعليم فما علّمه الله تعالى آدم هو في القرآن، لبيان فضل القرآن ونبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعظيم رحمة الله تعالى بالناس.

الثانية: قوله تعالى ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾^(١)، أي أن الله تعالى علم الإنسان الكتابة بالقلم، ولم يرد في القرآن أن الله تعالى علّم انساناً غير تعليمه لآدم وإن كان الوحي والتنزيل كله تعليم، ولعل فيه إشارة إلى تعليم الله تعالى لآدم الكتابة، بلحاظ أن المراد من القلم وسيلة كتابة الإنسان، وليس المراد القلم كألة للكتابة.

بتقدير حذف، والمراد (الذي علم الكتابة بالقلم) لتكون كتابة الإنسان بالقلم نعمة عظيمة لما فيها من البيان والحفظ والتوثيق، بالإضافة إلى أصل خلق الإنسان بحيث يستطيع أن يوظف يده في الكتابة، ويجد الصلة بين لفظ الحرف ورسمه ومعناه.

ففي الوضع تكون هناك علاقة بين وضع الألفاظ وبين معانيها، أما في الكتابة فيضاف أمر ثالث وهو رسم الحروف والكلمات من غير إخلال بالوضع بل هو في طوله.

وفي الكتابة منافع دنيوية وأخروية، وفي المراد من الكاتب في المقام وجوه:

الأول: آدم عليه السلام أول من كتب، عن كعب.

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿١٤١﴾

الثاني: المراد إدريس، وهو أول من كتب، عن الضحاك.

الثالث: كل نبي كتب بالقلم، لأن الكتابة بتعليم من الله تعالى^(١).

وقال الطبري: وكان آدم مع ما كان الله عزوجل قد أعطاه من ملك الأرض والسلطان فيها قد نبأه وجعله رسولاً إلى ولده وأنزل عليه إحدى وعشرين صحيفة كتبها آدم عليه السلام بخطه علمه إياها جبرائيل عليه السلام^(٢).

وقد وردت النصوص عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن آدم كان نبياً، وبالإسناد عن أبي ذر الغفاري قال: دخلت المسجد فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس وحده فجلست إليه فقال يا أبا ذر إن للمسجد تحية وأن تحيته ركعتان فقم فاركعهما فلما ركعتهما جلست إليه. فقلت يا رسول الله إنك أمرتني بالصلاة فما الصلاة قال خير موضوع إستكثر أو إستقل ثم ذكر قصة طويلة قال فيها.

قلت يا رسول الله كم الأنبياء.

قال مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً قال قلت يا رسول الله كم الرسل من ذلك، قال ثلثمائة وثلاثة عشر جمماً غفيراً يعني كثيراً طيباً قال قلت يا رسول الله من كان أولهم قال آدم، قال قلت يا رسول الله وآدم نبي مرسل قال نعم خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه ثم سواه قبلاً.

ونسب الطبري إلى القليل إنه كان مما أنزل الله تعالى على آدم تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وحروف المعجم في إحدى وعشرين ورقة^(٣).

وفيه إشارة إلى أن آدم عليه السلام قد تعلم الكتابة وأنه تلقى من الله الصحف، وذكر الطبري بالإسناد عن أبي ذر الغفاري قال قال لي رسول

(١) مجمع البيان ٥١٥/١٠.

(٢) تأريخ الطبري ١٥٠/١.

(٣) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ٢٢٤-٣١٠ هجرية/تأريخ الرسل والملوك ١٥١/١.

﴿١٤٢﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يا أبا ذر أربعة يعنى من الرسل سريانيون آدم وشيث ونوح وخنوخ وهو أول من خط بالقلم وأنزل الله تعالى على خنوخ ثلاثين صحيفة.

ولكنه ذكر بذات الإسناد وعن أبي ذر الغفاري قال: قلت يا رسول الله كم كتاب أنزله الله عزوجل قال مائة كتاب وأربعة كتب أنزل الله على شيث خمسين صحيفة^(١).

إلا أن يقال أن التنزيل أعم من الكتابة ويكفي فيه القراءة، ولا يتعارض وصف آدم بالسريانية بمعرفته وتكلمه العربية سواء بالجمع بين اللغتين وأن لغة العلم هي العربية، أو أن الوصف غير اللسان، بالإضافة إلى التقارب بين تلك اللغات آنذاك كما يظهر في اسم شيث بن آدم، فقد ورد عن ابن عباس قال ولدت حواء لآدم شيئاً وأخته حزورا فسمى هبة الله إشتق له من هاييل قال لها جبرائيل حين ولدته هذا هبة الله بدل هاييل.

وهو بالعربية شث.

وبالسريانية شاث.

وبالعبرانية شيث.

ولإليه أوصى آدم وكان آدم يوم ولد له شيث ابن ثلاثين ومائة سنة^(٢).

ومن الآيات أن يأتي قوله تعالى ﴿وَعَلَّمَ﴾ مرة في سورة البقرة، وثانية في سورة الرحمن، ويأتي مكرراً في آيتين متعاقبتين في سورة العلق لتتضمن الحث على القراءة وبيان نعمة القراءة على الإنسان، وموضوعية أحكام الدين والقواعد الشرعية، ليكون أصل العلوم كلها من عند الله، مثلما خلق الله تعالى ما في الأرض للناس لقوله تعالى ﴿خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي

(١) تاريخ الطبري ١/١٥٣.

(٢) تاريخ الطبري ١/١٥٢.

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿١٤٣﴾

الأرض^(١). وجعل الآخرة دار الجزاء، فإنه سبحانه علّم الإنسان أمور الدين والدنيا، لينتفع من الدنيا بالعلم، ويتخذ وسيلة لجني الثمار في الآخرة بالإقامة الدائمة في النعيم .

وسخر الله القلم نعمة إضافية، غيرية ، إذ أن القلم ليس جارحة من جوارح الإنسان بل هو آلة خارجية يستعملها الإنسان لتكون بديلاً عن الكلام وأطول منه عمراً، وبه تكتب الوصايا وتحفظ العهود، وتدون الديون والمواثيق وتذكر الآجال، وتختتم الشهادة، وقال أبو تمام في أبيات في وصف القلم عند مدح أحد الأمراء:

لعاب الأفاعي القاتلات لعبه

وأري الجنى اشتارته أيد عواسل^(٢).

والآرى: ما لزق من العسل في جوف الخلية، واشتارته استخرجته، وعواسل: جمع عاسلة، أي مستخرجة العسل، وقال الشريف المرتضى: وأجمع العلماء أن هذه الأبيات أحسن وأفخم من جميع ما قيل في

ولكن الأحسن والأفضل ما بيّن فضل الله تعالى في نعمة القلم على الناس بأن يأتي الشعر حاكياً ومبيناً بعدوبة ونظم وجوهاً من هذه النعمة العظيمة على الناس ، والنقاش في قوله (أجمع العلماء) فلا دليل على ثبوته، كما هو في عدد من إجماعات السيد المرتضى في الفقه التي لا يؤخذ بها لإرادة معنى خاص منها، كما لو كان يريد إجماع علماء زمانه.

لقد أكرم الله تعالى آدم بأن جعله خليفته في الأرض، وأول ما منحه العلم لتتجلى فيه معاني الرحمة والقدرة الإلهية، فالله تعالى يهب خليفته

(١) سورة البقرة ٢٩.

(٢) مجمع البيان ١٠/٣٥٦.

(٣) أمالي المرتضى ٢/١٧٢.

﴿١٤٤﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

أفضل شئ في الوجود، وهو العلم وهو نوع وجود، والموجود أشرف من المعلوم، إذ ينقسم الناس بلحاظ القضية الشخصية إلى قسمين :

الأول: العالم.

الثاني: الجاهل.

ومن البديهيات أن العالم أشرف وأفضل من الجاهل، ولا تنحصر منافع العلم بحامله، بل هو ضياء ينير الطريق للآخرين، ويدراً عنهم ظلمة الجهل، ويحجبهم عن المهالك بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي جعلها الله عز وجل واجباً، وبالأسوة الحسنة وإقتداء الناس بالعالم.

ومن الآيات في خلق الإنسان أن منحة العلم لا تنحصر بآدم عليه السلام، بل هي نعمة أنعم الله تعالى بها على الناس سواء فيما توارثوه من آدم عليه السلام، أو ما تلقاه الأنبياء من عند الله تعالى بالتنزيل والنبوة، قال تعالى ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾^(١)، وقال الله تعالى في يوسف ﴿وكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾^(٢).

فجاء علم يوسف عليه السلام بتأويل الرؤيا ليكون سبباً لخروجه من السجن، ومقدمة لتولييه الحكم واللقاء بالأهل، ومناسبة لنجاة الناس من الموت جوعاً لتكون لهم عبرة وموعظة، وحجة في دعوتهم للإسلام.

وعلم الله تعالى داود صناعة الدرع، قال تعالى ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ﴾^(٣)، والمراد الدرع، وقال قتادة: (كانت صفائح فأول من سردها وحلقها داود ، فجمعت الخفة والتحصين)^(٤)، وعلم الله تعالى سليمان

(١) سورة النساء ٥٤.

(٢) سورة يوسف ٦.

(٣) سورة الأنبياء ٨٠.

(٤) الكشف ٢٤٩/٤.

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿١٤٥﴾

منطق الطير، وفي التنزيل حكاية عن سليمان ﴿وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مَنَطِقَ الطَّيْرِ﴾^(١).

فكان سليمان يفهم المعاني والقصد من صوت الطير وإن ظهر للناس بوتيرة واحدة ليكون كلام النملة وتوثيقه السماوي في القرآن مدرسة في المعارف وبشارة معرفة الإنسان بشرط من كلام الطير لذا جاء القول على لسان سليمان ﴿عَلِمْنَا مَنَطِقَ الطَّيْرِ﴾ ولم تقل الآية (علمناه منطق الطير).

ومن الإعجاز في كلام النملة انها نادت بحرف النداء والتنبيه (يا أيها) وجاء كلامها بصيغة العموم الإستغراقي المتوجه إلى النمل جميعه من غير إستثناء مما يدل على أن النمل يسمع صوتها، وأظهرت الدراسات الحديثة أن النملة تقوم بتضخيم الإشارة الصوتية القادمة إليها كما هو الحال في أجهزة الإستقبال الحديثة.

وإبتدأت كلامها بالأمر لأن الخطر داهم النمل بسرعة وبينت مضمون الأمر وما يكفي للسلامة ﴿ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾^(٢)، ثم نهت وبينت الضرر من عدم الإمتثال للأمر ﴿لَا يَخْطِبَنَّكُمْ﴾ وجاءت بالخاص (سليمان) لبيان مسؤولية ووظائف الملك والقائد وأن ما يفعله جنوده ينسب له، ثم جاء بصيغة العموم ﴿وَجُنُودُهُ﴾ لمنع الإستخفاف بالأمر أو الظن بأن القضية شخصية ، وأخبرت عن إقرارها بعدل سليمان ولكن هذا العدل لا يمنع من تلف النمل تحت حوافز الخيل عند مرور الجيش على وادي النمل، فقالت ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فلم يعلمون بانكم أمة تهلكون لما فعلوه ، لإرادة تنزيه مقام النبوة ورضا عالم الحيوان عن العدل والإنصاف عند الأنبياء وأهل

(١) سورة النمل ١٦.

(٢) سورة النمل ١٨.

﴿١٤٦﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

التوحيد ، وقد يكون معناه أن الجنود لا يلتفتون في سيرهم إلى هلاك النمل، كما هو متعارف عند الإنسان.

وقيل أن سليمان سمع كلام النملة على مسافة ثلاثة أميال، وفيه دليل على أن النمل تتخاطب بلغة مفهومة بينها، وقد أظهرت الدراسات الحديثة كما قيل أن الترددات الصوتية التي تصدر من النمل مختلف من نملة إلى أخرى ومن جنس إلى آخر، وأن هناك إثني عشر ألف نوع من النمل في العالم.

لذا جاءت الآية بذكر الموضع بقوله تعالى ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِي النَّمْلِ﴾ وهو في بلاد الشام، وأخبرت الدراسات بأن النمل يطلق إشارات صوتية خاصة عندما يداهمه خطر، فتطلق النملة تحذيراً، يتلقاه النمل بالفهم والاستجابة، وأن النمل يتكلم بعضه مع بعض أثناء العمل ويقوم بتنقية الأصوات، وفصلها والتمييز بينها.

وتدل الآية على الإرتقاء في موضوع حقوق الحيوان والحشرات في علوم القرآن، وفيه بشارة إلى إكتشاف أسرار في لغة الطير والنمل وتعلم الناس منه المسائل والشواهد التي تدل على بديع خلق الله ، قال سبحانه ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمُّ أَمْثَلِكُمْ﴾^(١)، وعن ابن عباس خير سليمان بين المال والملك وبين العلم، فاختار العلم فأعطي الملك والمال معاً، وطلب سليمان الهدهد لعلمه .

وعن نافع بن الأزرق قال لابن عباس كيف اختار سليمان الهدهد لطلب الماء قال ابن عباس لأن الأرض كالزجاجة يرى باطنها من ظاهرها فقال نافع فكيف بأوقات الفخ يغطي له بأصبع من تراب فلا يراه بل يقع

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿١٤٧﴾

فيه فقال ابن عباس إذا جاء القدر عمي البصر^(١).

وعن الإمام الرازي (عن كميل بن زياد قال أخذ علي بن أبي طالب عليه السلام بيدي فأخرجني إلى الجبابة فلما أصرحت تنفس الصعداء ثم قال يا كميل بن زياد إن هذه القلوب أوعية فخيرها أوعاها فاحفظ ما أقول لك : الناس ثلاثة عالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعا، أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجأوا إلى ركن وثيق ، يا كميل العلم خير من المال ، والعلم يحرسك وأنت تحرس المال والمال تنقصه النفقة ، والعلم يزكو بالإنفاق ، وصنيع المال يزول بزواله ، يا كميل معرفة العلم زين يزان به يكتسب به الإنسان الطاعة في حياته ، وجميل الأحدث بعد وفاته ، والعلم حاكم ، والمال محكوم عليه، عن عمر بن الخطاب: أن الرجل ليخرج من منزله وعليه من الذنوب مثل جبل تهامة فإذا سمع العلم وخاف واسترجع على ذنوبه انصرف إلى منزله وليس عليه ذنب فلا تفارقوا مجالس العلماء فإن الله لم يخلق تربة على وجه الأرض أكرم من مجالس العلماء^(٢).

وقد أثنى الله تعالى على أهل العلم ، قال سبحانه ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٣)، وتفضل الله تعالى وجعل القرآن آية في الحكمة والموعظة وآلة الفهم والتدبر، وسلاحاً يطرد الجهل والغفلة عن الفرد والجماعة، ودعوة سماوية للناس جميعاً لنيل مرتبة العلم بدخول الإسلام، وأداء الفرائض وتلاوة آيات القرآن فمن أهم أفراد العلم هو علم التوحيد، ولايناله إلا من نال مرتبة من العلم كما انه باب

(١) مفاتيح الغيب ١/٤٧٢.

(٢) مفاتيح الغيب ٢/١٩٢.

(٣) سورة الزمر ٩.

﴿١٤٨﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

للإرتقاء في ميادين العلم والمعرفة، قال تعالى ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾^(١)، وتفيد (إنما) الحصر، للدلالة على الملازمة بين العلم وبين الخشية الخشية من الله تعالى.

وقال الرازي والمراد من أولي الأمر العلماء في أصح الأقوال لأن الملوك يجب عليهم طاعة العلماء ولا ينعكس^(٢).

وجاءت نصوص مستفيضة في فضل العلم، وطلبه وعظيم أثره ونفعه في الدنيا والآخرة، وفيه آية تدل على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومنزلة العلم في الإسلام، وبشارة بناء دولة الإسلام على العلم وكسبه وتعلمه وتعليمه.

فمع إنشغال المسلمين في كتائب الدفاع عن الإسلام، وتثبيت الأحكام الشرعية، وتعليم الناس العبادات والفرائض، والتصدي لأهل الريب والشك، فإن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم يدعو إلى العلم ويحث عليه، ويبين منافعه بما يبعث الشوق في النفوس إلى طلبه والإرتقاء في منازل.

وورد عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله : من أحب أن ينظر إلى عتقاء الله من النار فلينظر إلى المتعلمين فوالذي نفسي بيده ما من متعلم يختلف إلى باب العالم إلا كتب الله له بكل قدم عبادة سنة ، وبني الله بكل قدم مدينة في الجنة، ويمشي على الأرض وهي تستغفر له ، ويمسي ويصبح مغفوراً له ، وشهدت الملائكة أنهم عتقاء الله من النار^(٣).

(١) سورة فاطر ٢٨.

(٢) مفاتيح الغيب ١٧٩/٢.

(٣) بحار الأنوار ١/١٨٤.

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿١٤٩﴾

وفي الخبر عنه صلى الله عليه وآله وسلم : من صلى خلف عالم فكانما صلى خلف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم^(١).

وفيه نكتة وهي أن صلاة الجماعة فعل عبادي يومي متكرر يتولى فيها الإمام القراءة عن المأمومين، ولكن إختيار العالم للإمامة شاهد للتسليم له بالإمامة والرياسة، ودليل على الإستعداد لتلقي الأحكام والقبول منه، وقصد العناية بالصلاة، والإلتفات للقراءة الصحيحة، والحرص على سماعها وسلامة الصلاة وأدائها، ونيل الثواب الأتم، وهو عنوان إكرام للعالم لما يحمله من العلم، ودعوة نوعية عامة لطلب العلم، والإرتقاء في مراتبه.

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: فضل العالم على العابد سبعون درجة، بين كل درجتين حضر^(٢) الفرس سبعين عاما، وذلك لأن الشيطان يضع البدعة للناس فيصمرها العالم فيزيلها، والعابد يقبل على عبادته^(٣).

فيمنع العالم طرو التحريف على العبادة وكيفيةها ويكون سبباً في إستدامة العبادة وفق قواعد وأحكام الشريعة، فيتعاهد العلماء مثلاً قول النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم: صلوا كما رأيتموني أصلي^(٤).

ويتولى العالم ضبط وتوارث أحكام الصلاة، وتأليف الكتب وتثبيت القواعد، وتوجيه مستحدثات المسائل، ودرء أسباب الفتنة ومنع الغواية وحينما بعث النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم علياً عليه السلام إلى

(١) الذكرى ٢٦٧.

(٢) حضر الفرس: إرتفاعه في عدوه.

(٣) منية المريد ١٠٠.

(٤) بحار الأنوار ٧٩/٣٣٥.

﴿١٥٠﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع
اليمن قال "فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون
لك حمر النعم"^(١).

وقال عليه السلام العلم أفضل من المال بسبعة أوجه.
أولها : العلم ميراث الأنبياء ، والمال ميراث الفراعنة .
الثاني : العلم لا ينقص بالنفقة والمال ينقص .
والثالث : يحتاج المال إلى الحافظ والعلم يحفظ صاحبه.
والرابع : إذا مات الرجل يبقى ماله والعلم يدخل مع صاحبه قبره.
والخامس : المال يحصل للمؤمن والكافر ، والعلم لا يحصل إلا
للمؤمن.

والسادس : جميع الناس يحتاجون إلى صاحب العلم في أمر دينهم ولا
يحتاجون إلى صاحب المال.

السابع : العلم يقوي الرجل على المرور على الصراط والمال يمنعه^(٢).
ومن الآيات في خلق الإنسان رجوع الناس إلى العالم، وإكرامهم له،
وشفقتهم عليه، وإنصاتهم في الجملة لقوله، ويتجلى هذا الأمر عند
المسلمين رجالاً ونساءً، وتأتي فريضة الصلاة لتكون مناسبة يومية متكررة
لإكرام المسلمين للعلماء، وإخبار الناس جميعاً بمنزلة العالم في الإسلام
وعند المسلمين، وفيه بعث للشوق في قلوب الناس لمعرفة العلوم التي جاء
بها الإسلام، كما أنه يلقي الفزع والخوف في قلوب أعداء الإسلام،
ويعينهم من التعدي على الإسلام بالإفتراء وأسباب الشك والمغالطة، أو
بالسلاح والهجوم على الثغور الإسلامية.

ويحكى أن سليمان مر على بلبل في شجرة يحرك رأسه ويميل ذنبه ،
فقال لأصحابه: أتدرون ما يقول؟ قالوا : الله ونبيه أعلم : قال يقول: أكلت

(١) مسند أحمد ٣٣٣/٥ .

(٢) مفاتيح الغيب ١٨٢/٢ .

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿١٥١﴾

نصف ثمرة فعلى الدنيا العفاء، وصاحت فاختة فأخبر أنها تقول: ليت ذا الخلق لم يخلقوا، وصاح طاووس، فقال يقول: كما تدين تدان، وصاح هدهد، فقال يقول: استغفروا الله يا مذبذبين.

وصاح طيطوى فقال: يقول كل حي ميت وكل جديد بال.

وصاح خطاف فقال: يقول قدموا خيراً تجدوه.

وصاحت رخمة فقال: تقول سبحان ربى الأعلى ملء سمائه وأرضه.

وصاح قمري فأخبر أنه يقول: سبحان ربى الأعلى، وقال الحدأ يقول:

كل شئ هالك إلا الله، والقطاة تقول: من سكت سلم، والبيغاء تقول:

ويل لمن الدنيا همه، والديك يقول: اذكروا الله يا غافلين، والنسر يقول:

يا ابن آدم عش ما شئت أخرك الموت، والعقاب يقول: في البعد من الناس

أنس، والضفدع يقول: سبحان ربى القدوس^(١).

قوله تعالى ﴿كَلَّا﴾

لم يرد ذكر الأسماء على نحو القضية المهمة التي لم يتبين فيها مقدار عدد الأفراد بل جاء تعليم الأسماء على نحو القضية الكلية التي يكون فيها الحكم على الكلي بملاحظة أفراده وشمول جميع الأفراد وليست جزئية، بل على نحو الموجبة الكلية والتي جاء (كل) سوراً لها للدلالة على الإطلاق.

ومن الفاظ سور الموجبة الكلية (كل)، (جميع)، (كافة)، (مطلق) ونحوها. لقد أصبح آدم عالماً من أول خلقه وهو نبي، ويمكن الإستدلال بالآية على أن الأنبياء أعلم البشر، لأن هذا العلم واقية من المعصية، وحرز ومرتبة من مراتب الكمال.

ولقد ورد لفظ (الأسماء) بصيغة الجمع تسع مرات في القرآن، مرتين في هذه الآية وأربع مرات بلفظ (الأسماء الحسنی) لله تعالى، وثلاثة في الشرك وأسماء الأوثان.

﴿١٥٢﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

لقد تحمل آدم بتعلمه الأسماء مسؤولية مؤلفة من قسمين:

الأول: الإخلاص في التوحيد.

الثاني: محاربة الشرك والوثنية والكفر.

فتعليم آدم للأسماء بيان وتعليم للملائكة بالوظيفة المركبة للأنبياء والمؤمنين التي يستحقون معها الخلافة في الأرض.

علم المناسبة

ورد ذكر آدم في القرآن خمساً وعشرين مرة، منها تسع مرات بقوله تعالى ﴿بَنِي آدَمَ﴾، وست عشرة مرة بلفظ ﴿آدَمَ﴾ وفيه مدرسة تبين إكرام الله تعالى (لآدم) من ساعة خلقه، وسجود الملائكة له، وسكنه الجنة هو وحواء.

كما ذكر الله عز وجل آدم مثلاً في البيان والإحتجاج في خلق عيسى عليه السلام، قال سبحانه ﴿إِن مِّثْلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾^(١).

فذكرت الآية محل البحث خلق آدم خليفة في الأرض وإكرامه بتعليم الله تعالى له، وسجود الملائكة له، أما الآية أعلاه فجاءت بذكر أصل خلقه وأنه من تراب.

وجاءت الآيات بتفضل الله تعالى بتحذير آدم وهو في الجنة من إبليس إذ امتنع إبليس عن السجود لآدم فأمره الله تعالى باجتنب إبليس والحذر منه قال تعالى ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ أَنْزِلْ هَذَا عَذُوكَ وَزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ﴾^(٢)، وتلك رحمة وفضل على آدم وحواء، وعلم جديد أنعم الله

(١) سورة آل عمران ٥٩ .

(٢) سورة طه ١١٧ .

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿١٥٣﴾

تعالى به على (آدم) بعد تعليمه الأسماء، فهو لم يعلم أن إبليس عدو له، وأنه يأبى السجود له ، ولكن الله تفضل على آدم وأخبره بعداوته وحذره منه.

ولم يحذره من الملائكة وإن قالوا ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ من وجوه:

الأول: لا يفعل الملائكة إلا ما يأمرهم الله.

الثاني: جاء قول الملائكة بصيغة السؤال.

الثالث: تعلق سؤال الملائكة بخصوص الخلافة في الأرض.

الرابع: إمثال الملائكة لأمر الله تعالى بالسجود لآدم.

وحتى على القول باتخاذة قبلة، فإن الأمر بالسجود والإمثال له، بداية كريمة لأوثق وأحسن الصلات بين الملائكة وآدم، وكأن السجود يتضمن العهد إلى الله تعالى بإعانة آدم وذريته في الخلافة في الأرض ونصرة المؤمنين.

وقد نزل الملائكة مسومين لنصرة المسلمين يوم أحد وتولى الملائكة وظيفة النزول بالوحي بأمانة وصدق وإخلاص وقد حضرت الملائكة كتابة آدم الوصية وشهدت موته (عن ابن عباس أن الله عز وجل لما خلق آدم مسح ظهره وأخرج ذريته كلهم كهيئة الذر فأنطقهم فتكلموا وأشهدهم على أنفسهم وجعل مع بعضهم النور، وأنه قال لآدم هؤلاء ذريتك أخذ عليهم الميثاق ، أنى أنا ربهم لئلا يشركوا بي شيئا ، وعلي رزقهم .

قال آدم فمن هذا الذى معه النور قال هو داود قال يا رب كم كتبت له من الأجل: قال: ستين سنة ، قال كم كتبت لي : قال ألف سنة، وقد كتبت لكل إنسان منهم كم يعمر وكم يلبث قال يا رب زده قال هذا الكتاب موضوع فاعطه أن شئت من عمرك قال نعم وقد جف القلم عن سائر بني آدم فكتب له من أجل آدم أربعين سنة فصار أجله مائة سنة فلما عمر تسعمائة سنة وستين سنة جاءه ملك الموت فلما أن رآه آدم قال ما لك: قد

﴿١٥٤﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

إستوفيت أجلك، قال له آدم إنما عمرت تسعمائة سنة وستين سنة وبقي أربعون سنة.

فلما قال ذلك للملك قال الملك قد أخبرني بها ربي .

قال فارجع إلى ربك فسله فرجع الملك إلى ربه قال ما لك قال يا رب رجعت إليك لما كنت أعلم من تكرمتك إياه قال الله عز وجل ارجع فاخبره أنه قد أعطى ابنه داود أربعين سنة^(١).

وعن ابن اسحاق انه قال: لما كتب آدم الوصية مات صلوات الله عليه واجتمعت عليه الملائكة من أجل أنه كان صفى الرحمن فقببرته الملائكة، وشيئ وإخوته في مشارق الفردوس عند قرية هي أول قرية كانت في الأرض وكسفت عليه الشمس والقمر سبعة أيام ولياليهن فلما إجتمع عليه الملائكة وجمع الوصية جعلها في معراج ومعها القرن الذى أخرج أبونا آدم من الفردوس، لكيلا يغفل عن ذكر الله عز وجل^(٢).

وعن الحسن في المرسل عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لما توفى آدم غسلته الملائكة بالماء وتراً وأحدوا له ، وقالت هذه سنة آدم في ولده^(٣).

وفيه شاهد على إكرام الملائكة لآدم، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٤)، إذ عمر آدم الأرض بالعبادة والتقوى، ونال مرتبة النبوة وما تدل عليه من الشرف العظيم بين الخلائق، وحضرت الملائكة الصلاة عليه وفيه شاهد على تركه العبادة والصلاة سنة ومنهجاً في ذريته، ولتكون آخر ما يودع به الإنسان عند مغادرته الدنيا.

عن ابن عباس قال : لما مات آدم عليه السلام قال شيث لجبرائيل صلى

(١) تاريخ الطبري ١/١٥٦.

(٢) تاريخ الطبري ١/١٥٩.

(٣) تاريخ الطبري ١/١٦١.

(٤) سورة البقرة ٣٠.

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿١٥٥﴾

الله عليهما صل على آدم ، قال : تقدم أنت فصل على أبيك ، وكبر عليه ثلاثين تكبيرة ، فأما خمس فهي الصلاة وأما خمس وعشرون فتفضيلاً لآدم صلى الله عليه وسلم^(١).

قوله تعالى ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾

وفي قراءة ابن مسعود: ثم عرضهن، وفي قراءة أبي: عرضها^(٢)، وعلى هاتين القراءتين يمكن القول بعرض الأسماء على الملائكة؟ المنصرف إلى الذوات والأعيان والجواهر، بغض النظر عن القول بأن الاسم هو المسمى أم غيره ، بعد أن علّم الله عز وجل آدم الأسماء عرض مسمياتها من الذوات على الملائكة وأبرزها إليها في إحتجاج كريم ولتوكيد عجز الملائكة عن إدراك أسرار الخليفة، وما لله عز وجل فيها من الحكمة وحسن التدبير.

ترى ماذا قالت الملائكة أو إدعت حتى خاطبهم الله عز وجل بخصوص أمر خبري لا يحتمل إلا الصدق ، فيه عدة وجوه محتملة ، منها ما يتعلق بالمقام:

الأول: كان الخليفة من الملائكة فهو أهل للخلافة وورثة الأرض ولم يفسد ولم يسفك الدماء بدلالة دأبهم على التسييح والعبادة.

الثاني: إعتقاد الملائكة بالأعلمية والأفضلية على الخلائق، ولم يكونوا يظنون أن هذا الانسان الذي خلقه الله عز وجل بهيئته وحجمه وأصل خلقته من الطين سيتنزع منهم تلك الأولوية.

الثالث: لم يتوقعوا أن الله عز وجل يجعل خليفة في الأرض، وأن أراد ذلك فهم أي الملائكة الأجدر والأنسب، وآدم في خلقه، وذريته في أفعالهم لم يؤثروا في رجائهم وظنهم أو يلغوه.

(١) تاريخ الطبري ١/١٦١ .

(٢) مجمع البيان في تفسير القرآن ١/٧٧ .

﴿١٥٦﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

الرابع: أن الذي قال ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ إثنان من الملائكة لا جميعهم، وليس من المستبعد أن يكون القائل بعضاً من الملائكة، ولغة الجمع في الخطاب ﴿ انبؤني ﴾ تدل على عموم الإستفهام منهم، ويمكن مخاطبة الإثنين بلغة الجمع، والأقرب إرادة مخاطبة جميع الملائكة وإن كان المستفهم منهم إثنين لبيان الحجة وعموم اللطف وسعة الرحمة. وقد تقدم ذكر وجوه أخرى تفيد سعيهم وشفاعتهم للإنسان كما في قوله تعالى ﴿ يَوْمَ يَقُولُ لِبَنِيهِمْ هَلْ آمَنَّا وَتَقُولُ هَلْ مِنْكُمْ زَيْدٌ ﴾^(١).

وعن الإمام الصادق عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: هو إستفهام لأن الله وعد النار أن يملأها فتمتلي النار فنقول لها هل إمتلأت وتقول هل من مزيد على حد الإستفهام، أي ليس في مزيد، قال: قال فنقول الجنة يا رب وعدت النار أن تملأها ووعدتني أن تملأني فبم تملأني وقد ملأت النار؟ قال: قال: فيخلق الله يومئذ خلقاً يملأ بهم الجنة، قال فقال الإمام الصادق عليه السلام طوبى لهم لم يروا هموم الدنيا وغمومها^(٢). أي أن النار تسأل التخفيف والعفو عن الناس ولا تسأل إلا بآذنه تعالى. وبالآية الكريمة إستدل الاشعرية في أن الاسم هو المسمى، لأن الضمير في عرضهم عائد إلى المسميات إتفاقاً، ولم يجر ذكر الأسماء فدل على أنها المسميات.

ولكن الآية تحتمل المعنى الظاهر على وجوه:

الأول: تعليم الألفاظ الموضوعات أزاء المعاني وما يدل على لغة منتظمة.

الثاني: الدلالة على العلم بحقائق الأشياء.

الثالث: انها عنوان للمعرفة والأهلية للإكتساب.

(١) سورة ق ٣٠.

(٢) تاريخ علي بن ابراهيم ٣٢٤/٢.

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿١٥٧﴾

الرابع: تعليم الأسماء وسيلة لإدراك المعقولات والمحسوسات، والقدرة على التمييز بينها.

الخامس: جاء التعليم للتغليب وفق الإصطلاح البلاغي بتغليب الأسماء على المسميات، والمراد منه وضع الألفاظ أزاء معانيها.

السادس: في الكلام حذف للمضاف إليه لدلالة المضاف عليه، ولا يعني أنه نفسه بل أن الحذف في حال ثبوته يدل على المغايرة، ومع ورود الاحتمال وتعدده يبطل الاستدلال.

وعن مجاهد قال: عرض أصحاب الأسماء^(١)، أي أراد الله سبحانه منهم معرفة الأسماء بعرض الأشياء والمسميات.

ويلحظ في الآية أن الله عز وجل علّم آدم تلك الأسماء ثم سأل الملائكة عنها ليكون إنحصار موضوع التعليم بآدم عنوان تفضيل وفرداً من أفراد الإكرام وإستحقاق الخلافة في الأرض.

وفي تلك الذوات ما لا يعقل، ولكن الآية جاءت بتغليب من يعقل وأختلف في كيفية عرضها وإبرازها للملائكة على أقوال:

الأول: إن الله تعالى خلق معاني الأسماء التي علّمها آدم حتى شاهدها الملائكة.

الثاني: صور في قلوبهم هذه الأشياء، فصارت كأنهم شاهدها، أي أنها لم تخلق بعد، إذ أن علم الخلائق تابع والمعلوم متبوع وأن العلم بالممكنات تصوير خارجي لها، ولكن الله تعالى يعلم بها قبل حدوثها كعلمنا بها بعد حدوثها.

الثالث: عرض عليهم من كل جنس واحداً، تعجيزاً وإتماماً للحجة، وهو الأنسب أي أن الله عز وجل عرض على الملائكة الذوات التي علم

﴿١٥٨﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

آدم أسماءها ﴿فَقَالَ انبُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ أَنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾^(١)، سؤال تعجيز وتبكيث لا لتكليفهم ما لا يستطيعون كما ظن نفر من المفسرين وأورد فيه إشكالاً، بل انه رحمة ولطف منه تعالى بالملائكة.

انه برهان يقيني يستلزم القبول موضوعاً وصورة بالمشاهدة والحس والعقل، وآلة للإدراك وباب للرضا والإستجابة، وهو إكرام للملائكة لمواظبتهم على العبادة، فأراد الله عز وجل لهم الإطلاع على ما خفي عنهم كي لا يغادر أي منهم منازل التسليم والرضا.

لقد تخطى آدم عليه السلام من أول ساعة خلق فيها مراتب عديدة في العلم والرفعة وعلو المنزلة، فإستجابت الملائكة مدعته، بينما أصاب قلب إبليس الحسد والأنانية، ولعل عدم إستجابة إبليس في السجود لما للحسد والغیظ والغيرة التي ملأت قلبه من أثر قبيح بسبب ما ناله آدم من الفضل الإلهي والمن الجسيم.

قوله تعالى ﴿فَقَالَ انبُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾

تظهر الآية عجز أعظم الخلائق وأقربها إلى العرش عن معرفة الغيب، ودقائق الأمور وحقائق الأشياء النوعية والصور المجردة إلا أن يشاء الله، فهو سبحانه فاعل كل شيء وهو المعطي لكل خير سواء بالواسطة أو بغير واسطة.

والآية ترغيب بالعلم وإظهار لفضائله، وحث على معرفة ماهية العلوم، وهذا السؤال ليس تكليفاً لأن الله سبحانه لا يكلف بالمحال والمتعذر ولكنه إظهار لموضوعية العلم في التفضيل والتشريف.

وهذه هي الآية الوحيدة التي يأتي فيها لفظ (انبؤني) وجاء الخطاب بصيغة الجمع المستغرقة للملائكة ولغيرهم من الخلائق بالأولوية القطعية،

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿١٥٩﴾

فاذا كان الملائكة يعجزون عن معرفة الأسماء، فمن باب أولى أن تجهلها الخلائق الأخرى، وفيه حجة ملكوتية وتاريخية على تشريف آدم والإنسان مطلقاً، وبيان للفيض الإلهي الذي ينعم به الله على الإنسان.

وهل جاء ذكر الأسماء من باب الحصر أم المثال، الجواب إنه تأسيس للعلوم وبيان لأهلية الإنسان للعلم الوهبي والكسبي، الوهبي خاص بالأنبياء، والكسبي شامل للناس جميعاً.

وفي الآية إخبار بأن الأرض ستعمر بالعلم، والوحي أهم أفراد العلم، أي أن الله عز وجل أخبر الملائكة بأنه سيتعاهد خلافة الإنسان بالوحي والتنزيل، وهو حجة في عدم طرو التحريف على القرآن باعتباره خاتمة الوحي والتنزيل، وإشارة إلى احتوائه قواعد وسنن الخلافة وأن السنة النبوية المباركة تتضمن مفاهيم هذه الخلافة.

وجاءت الآية إختباراً للملائكة لأنهم إحتجوا على جعل الإنسان خليفة في الأرض، ومن الإعجاز مجئ الإختبار بأمور:

الأول: لغة الجمع والتعدد في الأسماء، فلم يأت الإختبار بصيغة المفرد والإتحاد، بل جاء بصيغة الجمع، وفيه مسائل.

الأولى: التخفيف عن الملائكة.

الثانية: بيان تمام الحجة على الملائكة.

الثالثة: إعطاء درس للمسلمين والناس جميعاً، بالتخفيف في المدرسة وميادين العمل ومضامين الإحتجاج وإقامة البرهان بالتعدد والكثرة في وسائل الإختبار ويسر الإختبار، خصوصاً وأن الذي يكتسب من ميادين العمل الأمر الكثير، فحينما يدخل الإنسان ميادين العمل يكتسب المهارة والخبرة، ويصلح نفسه للعمل بطول المزاولة وبالنسبة للملائكة فإنهم يرون الأنبياء يبلغون رسالات الله، والكتب السماوية تنزل أنواراً من السماء لتملأ الأرض بضياء الهدى الذي يجذب الناس إليه، ويشهدون إعمار المسلمين الأرض بالعبادة والتقوى وجهادهم في الأمر بالمعروف والنهي

﴿١٦٠﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

عن المنكر وجلب المصلحة ودفع المفسدة.

الرابعة: قرب ويسر موضوع الاختبار، فليس فيه عمل وجهد كبير، بل هو سؤال عن أسماء لمسميات حاضرة، وجاء موضوع الإمتحان بسيطاً محصوراً بالإخبار عن أسماء أعيان حاضرة وموجودة، فلم يسأل الله تعالى الملائكة عن أمور وأشياء غائبة عن الملائكة بل عن أمور وأشياء ظاهرة للعيان بدليل قوله تعالى ﴿أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾ فمع عظيم منزلة الملائكة وعلو مرتبتهم، وطول أعمارهم، ومعرفتهم بالأمور الكثيرة في السماء والأرض بفضل الله فإن إمتحانهم جاء بسيطاً ومتعددًا في موضوع واحد.

قوله تعالى ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

الصدق خلاف الكذب، ترى ماذا قالت أو إدعت الملائكة كي يخاطبهم الله تعالى عن أمر خبري ويسألهم عن موضوع معين، فيه أقوال ووجوه منها:

الأول: لو كان الخليفة من الملائكة فهو أهل لها، ولم يفسد ولم يسفك الدماء بدلالة دأبهم على التسييح والعبادة.

الثاني: يعتقد الملائكة بانه ليس ممن خلق لله عز وجل أفضل منهم وأجدر بمقام الخلافة فيكون هناك محذوف تقديره إن كنتم صادقين في ظنكم.

الثالث: روي عن ابن عباس وابن مسعود: أن كنتم صادقين في قولكم انه لا شيء مما يتعبد به الخلق إلا وأنتم تصلحون وتقومون به^(١).

الرابع: أنهم يعتقدون بالأعلمية على المخلوقات الأخرى فهم سكان السماوات، وخلقتهنم وهيئاتهم العجيبة الهائلة تساعد عليه.

الخامس: هم الأصلح للخلافة بما امتازوا به من التسييح والتقديس

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿١٦١﴾

خاصة وأن الله عز وجل عنده حسن الثواب.

السادس: لم يتوقعوا صيرورة خليفة في الأرض، وكما أن معرفة الأسماء من علم الغيب فكذلك الأمر (أي كما لم تعلموا أحدهما لا تعلمون الآخر عن ابن عباس^(١))، أي جاء تعليم آدم الأسماء مقدمة لتفضل الله تعالى بسؤالهم عنها، لتكون حجة وبرهاناً.

السابع: ما قاله الأخفش والجبائي وعلي بن عيسى وهو أن المراد ﴿أَنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيما تخبرون به من أسمائهم فأخبروا بها وهذا كقول القائل لغيره (أخبر بما في يدي إن كنت صادقاً)^(٢).

الثامن: الذي قال ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا..﴾ إثنان من الملائكة لا جميعهم كما تقدم ذكره أي أن القائل بعض الملائكة دون جميعهم، ولغة الجمع في الخطاب ﴿إِنِّي نُنِي﴾ لا تدل على المعارضة إذ يمكن مخاطبة الإثنين بلغة الجمع، والأقرب هو مخاطبة جميع الملائكة وأن كان المستفهم منهم إثنين لبيان الحجة وعموم اللطف وسعة الرحمة.

ومما يؤكد هذا القول ما روي عن - الإمام الباقر عليه السلام - أنه سئل عن إبتداء الطواف فقال: "إن الله تبارك وتعالى لما أراد خلق آدم عليه السلام قال للملائكة اني جاعل في الأرض خليفة، فقال ملكان من الملائكة أتعجل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء فوقعت الحجب فيما بينهما وبين الله عز وجل، وكان الله تبارك وتعالى نوره ظاهر للملائكة فلما وقعت الحجب بينه وبينهما علما انه سخط من قولهما فقالا للملائكة: ما حيلتنا وما وجه توبتنا؟ فقالوا: ما نعرف لكما من التوبة إلا أن تلوذوا بالعرش، فلماذا بالعرش، حتى أنزل توبتهما، ورفعت الحجب فيما بينه وبينهما، وأحب

(١) مجمع البيان ٧٧/١.

(٢) مجمع البيان ٧٧/١.

﴿١٦٢﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

الله تبارك وتعالى أن يعبد بتلك العبادة ، فخلق الله البيت في الأرض وجعل على العباد الطواف حوله، وخلق البيت المعمور في السماء^(١).
لقد أصبح آدم عالماً منفرداً مستقلاً ذا نفس مطمئنة، ألهمه الله معرفة الأجناس وأحوال الأشياء ولوازمها وآثارها.

والعلم عبارة عن صورة موجودة بوجود عقلي ومجردة عن مادتها، فليس فيه شر ولا ضرر ولا آفة، وجعله الله سبيلاً إلى ذكره وطاعته، فتعليم آدم الأسماء يعني إحياء ذكر الله تعالى في الأرض، وأن تسبيح الملائكة في السماء يعرضه، وهو مؤازر له من مقام الذل والعبودية في الأرض.

وعلة خلق آدم عليه السلام الإنقطاع إلى التسبيح والتقديس له تعالى، فتسبيح الملائكة لا يتعارض مع خلق الإنسان بل هو إتمام مكاني لعبادته تعالى في الأرض، ويدل عليه قوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٢).

لقد شاء الله أن يخلق الإنسان ليتدبر بإختياره في نظام الملك وعظيم القدرة الإلهية وصفاته الحسنى، لذا علم آدم الأسماء كلها، ويتنافس الناس في مقامات ومراتب العلم بالسياحة في عالم الملكوت، وتغمرهم السعادة بمصاديق المعرفة الإلهية.

إن تعليم الله عز وجل آدم ﷺ الأسماء بشارة دخول الصالحين الجنة، وجاء عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: " يقول الله تبارك وتعالى يوم القيامة : يا معشر العلماء إني لم أضع علمي فيكم إلا لمعرفة بكم قوموا فأني قد غفرت لكم " ^(٣).

أي أن العلم ومعرفة أسمائه تعالى سبيل إلى المغفرة والعفو، وأن خلق

(١) الوسائل ٣٨٦/٩.

(٢) سورة الذاريات ٥٦.

(٣) كنز العمال ١٧٣/١٠.

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿١٦٣﴾
الإنسان لإكرامه وإختباره بعد تشريفه بسلاح العلم والمعرفة.

آدم والملائكة

سيبقى خلق آدم آية في العالمين، ودليلاً على عظيم قدرة الله، وبديع صنعه وحكمته وعلمه لفعله المتقن، وآدم الذي تتجسد فيه آثار الحكمة هو الكائن الصغير من بين مخلوقات الله تعالى العظيمة كالسماوات والأرض والكواكب والنجوم والجبال والبقية إلى يوم القيامة يفوز بخلافة الله عز وجل في الأرض، وتتعاقب الأجيال من ولده على وراثتها.

لقد ثبت في مباحث علم الكلام أن الله تعالى واجب الوجود وأن كل شيء غيره ممكن مسبوق بالعدم، وحادث غير قديم، ومستند إليه تعالى اما مباشرة أو بالواسطة وهو تعالى عالم، كذلك فإن العلم بالعلة يستلزم العلم بالعلول، وهو سبحانه عالم بذاته فيكون عالماً بكل معلوم جزئياً كان أو كلياً، ذاتاً أو عرضاً، له وجود خارجي أو ذهني على خلاف ما ذهب إليه بعض الفلاسفة من إنعدام الوجود الذهني، فإنه تعالى يعلم الخاطرة التي تخطر على قلب الإنسان ثم ينساها، ولكن الله عز وجل لا ينساها، قال تعالى ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾^(١) وهو عالم بها قبل طروها على قلب الإنسان وقبل خلقه وخلق آبائه، وخلق آدم وسجود الملائكة له.

وهو خالق الآيات السماوية، ويعلم حركة المخلوقات والأفلاك ونضدها وأوضاعها وخواصها، والمخلوقات الأرضية وما في موجوداتها ومركباتها كالتركيب العقلي من الجنس والفصل أو التركيب الخارجي كتركيب الجسم من المادة والصورة، أو تركيب المقادير، وإشراكها جميعاً في الإفتقار والحاجة، وهو جزء من بديع صنع وحكمة الله عز وجل، ودليل على ربوبيته ووحدانيته.

﴿١٦٤﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

تفضل الله عز وجل سبحانه بتزيين تلك المعالم بالإنسان هذا المخلوق الصغير جسماً، الكبير بلحاظ الشأن والأهمية ، بما جعل الله عز وجل فيه من خواص عجيبة وخلق منتظم دقيق ووظائف أخلاقية وكونية عظيمة تتعلق بماهية الخلافة في الأرض، وما فيها من وجوه الإبتلاء وأسباب الرفع.

والملائكة أجسام نورانية دائبة على الطاعة والتسبيح، وتسكن السماء وقد ينزل بعض منها إلى الأرض لأمر ما كما في نزول جبرئيل المتكرر وظهوره للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أحياناً بصورة دحية الكلبي^(١).

لقد ثبت أن الله تعالى غني غير محتاج، فوجوب وجوده يعني بالضرورة إستغنائه عن كل شيء فإن كل ما عداه ممكن محتاج بما في ذلك الملائكة، فلماذا إذن هذا الإخبار والخطاب الخاص إلى الملائكة بخلافة آدم، فيه وجوه:

الأول: أهمية موضوع خلق آدم في الخلائق.

الثاني: أن الملائكة لا تعلم إلا ما علمها الله، ومنه أنباء الغيب.

الثالث: أراد الله أن تطلع الملائكة على العوالم الأخرى من بديع مخلوقاته.

الرابع: لتؤدي الملائكة وظائفها أزاء هذا الأمر، وما يجري على الأرض من تغيير.

الخامس: انه سبيل لدوام الملائكة على الطاعة بالإستجابة والرضا ساعة الأمر، وما يحتمل فيه من الإبتلاء.

(١) دحية بن خليفة الكلبي، صحابي، شهد أحداً وما بعدها، عرف بحسن الصورة، الصورة، وكان جبرئيل يأتي إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم في صورته أحياناً، وهو تشریف يدل على الوثاقة، أرسله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى قيصر رسولاً سنة ست في الهدنة فأمن به.

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿١٦٥﴾

السادس: أن يطلعوا على بديع صنع الله تعالى، بخلق مغاير لهم في الهيئة والفعل ومادته وهي الطين.

السابع: فيه لطف بالملائكة ومقدمة لما يأمرُوا به كالسجود لأدم.

الثامن: يستعد الملائكة لعملهم وما يأمرهم الله به بخصوص بني آدم من كتابة الحسنات وتدوين السيئات ونحوها.

التاسع: إنه مقدمة وحجة لنزول الملائكة لنصرة المؤمنين يوم بدر وأحد

قال تعالى ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّلَكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ﴾ (١).

ولم يعرف عن الملائكة إلا الطاعة، ويؤكد القرآن هذه الحقيقة وهي

ظاهرة جليلة في آياته، قال تعالى ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ

خَبِيرَةٍ ﴿٢﴾ ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ

وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣﴾، فإذا كان الملائكة يسجدون لله تعالى خوفاً وخشية

منه ، فلا بد أنهم لم يسألوا عن موضوع جعل خليفة في الأرض إستكاراً،

خصوصاً وأن أمر الخلافة جاء على نحو القطع والإمضاء (اني جاعل)

والله سبحانه لا يستشير أحداً من خلقه في أمره وفعله ﴿لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ

سُئِلَ الْوَزِيرُ (٤).



(۱) سورة آل عمران ۱۲۴.

(۲) سورة الرعد ۱۳.

(٣) سورة النحل ٤٩.

(٤) سورة الأنبياء ٢٣ .

قوله تعالى ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ الآية ٣٢

الإعراب واللغة

قالوا: فعل ماض والواو: فاعل، سبحانك: مفعول مطلق جاء مضافاً منصوباً ويعني نسبحك سبحانك تسييحاً.
وقال الكسائي: هو منصوب لأنه لم يوصف، ويكون منصوباً على أنه نداء مضاف^(١).

لا: نافية للجنس، علم: اسم لا، مبني على الفتح.
لنا: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر لا.
إلا: أداة حصر، ما: اسم موصول بمعنى الذي في موضع الرفع على البدلية من محل لا واسمها.
علمتنا: فعل ماض، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت يعود لله عز وجل، والضمير (نا) مفعول به.
إنك: إن وأسمها، أنت: ضمير فصل.
العليم: خبر إن الأول مرفوع، الحكيم: خبر إن الثاني.
سبحت الله تسييحاً: أي نزهته تنزيهاً، وفي التهذيب، سبحت الله تسييحاً وسبحاناً بمعنى واحد، فالمصدر تسييح، والاسم سبحان يقوم مقام المصدر.

(عن ابن شميل: رأيت في المنام كأن انساناً فسر لي سبحان الله فقال أما ترى الفرس يسبح في سرعته، وقال: سبحان الله السرعة اليه والخفة في

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿١٦٧﴾
طاعته^(١).

ولكن علوم القرآن وأسرار كلماته ومضامينها القدسية أعم وأدق من أن تؤخذ من أخبار عن منام، وفي اللغة وعلم التفسير والتأويل مندوحة وسعة وغنى عن اللجوء إلى توثيق منامات قد تبتعد في بيانها عن الإحاطة بجلالة المعنى القدسي المبارك للفظ القرآني بالإضافة إلى انعدام الثبوت من صحة المنام ومن ثم الوصول إلى تحديد القسم الذي تنتمي إليه من أقسام الرؤيا وهل هي صادقة أم لا، ومن جلالة علوم القرآن وأحكام الشريعة أنها خالية من المنامات وإعتبارها في الحجية، نعم رؤيا الأنبياء وحي، ولفظ سبحان يتعلق باله عز وجل وليس بالمسرع إليه.

وعن الأزهري: قيل أن العرب تقول: سبحان من كذا إذا تعجبت منه وزعم أن قول الاعشى في معنى البراءة أيضاً:
اقول لما جاءني فخرة

سبحان من علقمة الفاخر^(٢)

وسبحان معرفة لانه علم للبراءة كما تقول شتان اسم علم للفرق ولو كان نكرة لانصرف، وقد اجتمع فيه الالف والنون مثل عمران وعثمان مما يمنع من صرفه، ولا يضر باصل القاعدة وروده منوناً نكرة في بيت شعر كما في قول أمية:

سبحانه ثم سبحانا يعود وله

وقبلنا سبح الجودي والحمد جاءني^(٣)

ويقال سبح الرجل "أي قال سبحان الله، وفي التنزيل ﴿كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ

(١) لسان العرب ٤٧١/٢ .

(٢) تفسير الطبري ٤٧٤/١ .

(٣) لسان العرب ٤٧٠/٢ .

﴿١٦٨﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

وَسُبِّحَهُ^(١) ، وأختلف في سبحان هل هو مصدر سبح أم سبح بالتشديد، والأقوى هو الثاني.

ومن صفات الله تعالى (السبوح، القدوس) وهو المنزه عن كل نقص وسوء، والقدوس المبارك، وقيل: ليس في كلام العرب بناء على فعول بضم أوله غير هذين الإسمين الجليلين.

وسبحات وجه الله: أنواره وعظمته وقال جبرئيل عليه السلام: (لله دون العرش سبعون حجاباً لو دنونا من أحدها لأحرقتنا سبحات وجه ربنا^(٢))، وفي حديث: (أن سبحات وجهه النار والنور).

في سياق الآيات

بعد تساؤل الملائكة عن أسرار إختيار الإنسان للخلافة مع عظيم مرتبتها وسوء ما يفعله الإنسان من قبيح الأفعال، وتفضله سبحانه بتعليم آدم الأسماء أظهر الملائكة عجزهم عن درك درجة آدم، والعلة الغائية من خلقه وبادروا إلى تعظيم مقام الربوبية بصيغ التضرع والخشوع.

وبعد أن سأل الملائكة عن خلق إنسان ينشر الفساد في الأرض، ومدحوا أنفسهم بإنقطاعهم إلى عبادة الله تعالى، بينت هذه الآية الكريمة إنشغالهم بالإعتذار وإظهار تخلفهم وقصورهم عما لم يعلمهم الله إياه.

وفي الآية مصداق تقديسهم لمقام الربوبية كما ورد قبل آيتين ﴿وَقَدِّسُ لَكَ﴾ إذ أنهم لم يتكلموا إلا بلغة التسييح والتعظيم والمدح والثناء على الله تعالى، ويحتمل حال الملائكة في الجواب أموراً:

الأول: التشاور فيما بينهم قبل الإجابة.

الثاني: تعدد الأقوال ثم الإتفاق على واحد منها.

(١) سورة النور ٤١.

(٢) بحار الأنوار ٤٥/٥٥.

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿١٦٩﴾

الثالث: الجواب المذكور في القرآن أصح وأهم وأولى صيغ الإجابة بالذكر.

الرابع: جاء جواب الملائكة متحداً من غير ترديد.

والصحيح هو الأخير فليس من تشاور أو أخذ ورد فيما بينهم، ومن الشواهد على قولهم ﴿وَمَخْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ أن هذه الآية كلها حمد وثناء وتسييح وتدل بالدلالة التضمنية على سؤال التعلم ومعرفة وجوه الحكمة، وانهم يسألون الله بالحمد والثناء كما في خاتمة الآية ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ فمن حكمة الله تعالى أن يعلمهم الأسماء على لسان آدم عليه السلام نفسه، لتكون الحجة ظاهرة وبينة، فجاءت الآية التالية بالأمر الإلهي لآدم بأن يعلم الملائكة تلك الأسماء على نحو التعيين.

ولما جاء قول الملائكة قبل آيتين ﴿وَمَخْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ إبتدأوا كلامهم في هذه الآية بكلمة التنزيه التي إرتضاها الله لنفسه (سبحانك) وهو شاهد على إنقطاعهم إلى التسييح، وهذا التسييح وسيلة لطلب مرضاة الله تعالى، وإجتناّب سخطه وغضبه، وفيه تأديب للمسلمين بالإنشغال بالتسييح كمقدمة لطلب الرزق وبلغة للمطلوب.

وفي صلة هذه الآية بالآيات التالية وجوه:

الأول: إبتدأت هذه الآية بلفظ (قالوا) العائد إلى الملائكة وتمجيدهم لله عز وجل وإبتدأت الآية التالية بلفظ (قال يا آدم) والخطاب من الله عز وجل ليقيم آدم في الجنة، ويدل بالدلالة التضمنية على أن الإقامة في الجنة بأمر من الله عز وجل، وفيه ترغيب للناس بالعمل الصالح كطريق

﴿١٧٠﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

إلى الجنة، والإجتهاد بالدعاء والمسألة وسؤال المغفرة، قال تعالى ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(١).

الثاني: تضمنت هذه الآية إقرار الملائكة بعدم إحاطتهم بماهية وأسرار خلافة آدم في الأرض، فجاءت الآية التالية وفيها مسائل:

الأولى: إضافة علوم جديدة لعلم الملائكة من وجوه:

الأول: يخاطب الله عز وجل آدم مثلما يخاطب الملائكة من غير واسطة.

الثاني: يفقه آدم الكلام الذي يكلمه الله عز وجل به، وقوله تعالى ﴿قَالَ

يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ﴾، من الأسماء التي علمها الله عز وجل آدم.

الثالث: تعلم آدم الأسماء وحفظها والرابطة بينها وبين معانيها، وأن كل اسم يصدق على معنى مخصوص.

الرابع: إمثال آدم لأمر الله، وعبادته لتعليم الملائكة.

الثانية: إدراك الملائكة لحقيقة وهي تعليم آدم لأبنائه وتوارث ذريته التعليم وفق ما أمره الله، لأنه علم الملائكة ذات الأسماء التي علمه الله من غير تحريف أو تبديل، وهل فيه شاهد على سلامة القرآن من التحريف بلحاظ مسائل:

الأولى: أهلية الإنسان للتعلم والتعليم.

الثانية: ورود الأسماء التي علمها الله عز وجل آدم الملائكة في القرآن

لعمومات قوله تعالى ﴿وَوَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾^(٢).

الثالثة: تعلم آدم الأسماء نعمة من عند الله، وهو سبحانه أكرم من أن يرفع نعمة يمن بها.

(١) سورة آل عمران ١٣٣، أنظر الأجزاء الثلاثة من هذا التفسير التي جاءت في

تفسير هذه الآية الكريم.

(٢) سورة النحل ٨٩.

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿١٧١﴾
وصحيح أن القرآن سالم من التحريف وعليه الإجماع إلا أن الملازمة
بينه وبين تعلم آدم الأسماء تحتاج إلى دليل، نعم هذا التعلم مقدمة وعون
على حفظه وسلامته من النقص والتحريف.

إعجاز الآية

تؤكد الآية بأن مصدر العلوم ومنبعها من عند الله تعالى فهي من
الخزائن التي ينزل منها الله سبحانه بقدر، وإن قرب المنزلة لا يعني
بالضرورة التفوق العلمي على من هو أبعد لأن الممكنات جميعها حاضرة
عند الله تعالى مستجيبة لأمره، وليس ثمة مسافة، أو قل أن السبق في الخلق
والإيجاد لا يفيد التقدم والإرتقاء في العلوم بل إن التقرب والعلم يأتي
بفضل من الله تعالى وبحكمته ولطفه، سواء على نحو الهبة أو الكسب دفعة
واحدة أو تدريجياً.

وفي الآية بيان عظيم النعمة بخلق آدم، وكيف انه كان سبباً في زيادة
المعارف عند الملائكة وليس هذا عيباً فيها بل هو مناسبة للعلم والتعلم
والإقبال على الطاعة والإمثال لاسيما وأنهم أذعنوا وأقروا وأعلنوا بأن
كل ما عندهم من الله عز وجل.

ومع قلة عدد كلمات الآية فإنها تضمنت ثلاثة أمور على لسان الملائكة:
الأول: مبادرتهم إلى تسبيح الله تعالى، وحتى حينما سألوا عن جعل
الانسان خليفة في الأرض، فإنهم لم يتخلوا عن التسبيح بل ذكروه بلفظ
﴿وَمِنْ نُسْجِ جُحْمِكَ﴾^(١).

الثاني: الإعتراف بأن كل ما عندهم هو من الله تعالى ﴿لَا عَلِمَ لَنَا إِلَّا مَا
عَلَّمَنَا﴾^(٢)، والإقرار بالتخلف عن الإحاطة بأسرار السماوات والأرض.

(١) سورة البقرة ٣٠.

(٢) سورة البقرة ٣٢.

﴿١٧٢﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

الثالث: التسليم بأن تعليم آدم للأسماء، وعجزهم عن معرفتها هو من حكمة الله وأنه لا سبيل إلى معرفة الأسماء إلى بفضل ولطف من عند الله تعالى.

ترى ما هي النسبة والحجة بين معرفة الملائكة لإفساد الإنسان في الأرض وعدم علمهم بالأسماء إلا أن علمهم آدم بها، الجواب من وجوه:
الأول: لم يعلم الملائكة بفساد شطر من بني آدم وسفكهم الدماء إلا أن علمهم الله تعالى به لأنه من عمومات ﴿لَا عَلِمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾، وفيه حجة يجعل الإنسان خليفة في الأرض مع وقوع الفساد، وعدم التعارض بين الخلافة وهذا الفساد لأن أهل الخلافة هم الأنبياء والصالحون وورثة الأنبياء من المسلمين .

أما أهل الفساد فهم الكفار الذين ينذرهم ويمهلهم الله تعالى إلى حين ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ﴾^(١).
الثاني: تعليم آدم للأسماء سلاح لزعزعة الفساد ، ومنع إستحواذه وسلطانه في الأرض.

الثالث: سؤال الملائكة المزيد من العلوم والمعارف عن وظائف الخليفة في الأرض ورجاء البشارة والسكينة بأن الخليفة يعمر الأرض بالعبادة والصلاح والتقوى، قال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٢).

ويمكن تسمية هذه الآية الكريمة بآية (قَالُوا سُبْحَانَكَ).



(١) سورة ص ٢٨.

(٢) سورة الذاريات ٥٦.

الآية سلاح

الآية مناسبة للشكر وإدراك منزلة الإنسان وعظيم شأنه عند الله الأمر الذي يستلزم الشكر بالعبادة والإقرار بالربوبية والتطلع إلى النبوة كمصدر لنزول العلوم، وإلى آيات القرآن كدخائر علمية في الأرض، وتأديب للمسلمين بكيفية التقرب بالإعتذار، وترغيب للمسلمين باللجوء إلى الله. وفي الآية درس للمسلمين بتعلم لغة الإنابة وصيغ الخشوع والخضوع، وإمكان التدارك باللجوء والاستجارة بالله عزوجل.

وتنزه الآية الملائكة، وتبين قانوناً ثابتاً في عالم السماء وهو أن الملائكة يسبحون الله ويقدمونه، وأن جعل خليفة في الأرض لم يؤثر في إقطاعهم إلى العبادة وتعظيمهم لمقام الربوبية، بل يزيدهم خضوعاً وخشوعاً لله، وتسليماً لأوامره.

وأكدت هذه الآية أن الله تعالى إله في الأرض والسماء، وبيده مقاليد الأمور وتدعو الآية في مفهومها المسلمين للإقتباس والتعلم من الملائكة صيغ التوسل والتضرع إلى الله، وهو عون لهم في الإحتجاج والجدال وإستنباط الأحكام من القرآن والسنة بلحاظ أن القرآن كلام الله والسنة النبوية شعبة من الوحي ، قال تعالى ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنْ

الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾^(١).

ويمكن تأسيس قانون وهو كل آية قرآنية تعليم للمسلمين ودرس قائم بذاته ، وسيأتي في أجزاء التفسير أن كل آية تأديب للمسلمين لتكون المنافع والعلوم المترشحة عن الآية القرآنية من اللامتتهي وهو من الإعجاز الغيري للقرآن.

مفهوم الآية

تحت الآية المسلمين على مفاهيم أدب العبودية وعدم الغرور والزهو والعتو بسبب نيل المراتب العالية من الخلافة في الأرض والإرتقاء في منازل العلم الوهبي والكسبي.

وترشد الآية الإنسان إلى الأخلاق الحميدة بالإعتذار بحسن البيان والتدارك الجميل، وتقديم لفظ التقديس والتتزيه "سبحانك" في الخطاب والجواب والإعتذار دعوة للهداية والإيمان ونبذ الجحود والكفر وفيه مسألتان:

الأولى: هل في قول الملائكة (سبحانك) تعليم لآدم.

الثانية: هذا التعليم جزء ومصدق من مصاديق تعليم الله لآدم أم لا. الجواب هو الإيجاب في المسألتين ، وفيه تعليم آخر للملائكة من عند الله، من غير أن يستلزم الدور بين تعلم الملائكة من آدم وتعلمه منهم للتباين في موضوع التعلم ، ويتجلى التعليم في المقام من وجوه:

الأول: بيان حقيقة وهي أن آدم تعلم الأسماء لتكون مقدمة لعبادته لله عز وجل وتتزيه الأرض من الفساد وسفك الدماء.

الثاني: تعلم الأسماء ليس مطلوباً لذاته فقط، بل هو وسيلة ومقدمة وسلاح في أمور الدين والدنيا،

الثالث: معرفة الناس الأسماء حجة عليهم، ووسيلة لتلقي التنزيل. لقد أكدت الآية إنقطاع الملائكة إلى العبادة والذكر، وحاجتهم إلى رحمة الله وإقرارهم بعدم وجود علم عندهم إلا منه تعالى، وفيها زجر عن عبادة الملائكة.

وفي الآية مسائل:

الأولى: إن الله عز وجل تفضل على آدم وعلمه الأسماء، وفيه وجوه:

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿١٧٥﴾

الأول: تلقي آدم عليه السلام التعليم من الله عز وجل من غير واسطة، وتلك آية من الإكرام والتفضيل.

الثاني: العموم في تسمية الأسماء إذ جاءت الآية بالإطلاق ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ فقيدت الآية بسور الموجبة الكلية (كلها).

الثالث: تعقب التعليم لتحدي الملائكة بما عند آدم عليه السلام من العلوم.

الثانية: أصبح الانسان عالماً من أول ساعة خلق فيها.

الثالثة: في الآية حث للإنسان للرجوع إلى الله، وهو الغني الكافي لعباده.

الرابعة: تدل الآية على أن الإنسان كائن محتاج، وأن الله عز وجل هو الكافي له في قضاء حوائجه.

الخامسة: تبين الآية كرم الله تعالى وأنه الغني الذي يكفي عباده حوائجهم.

السادسة: نصرة الله عز وجل للإنسان بالاحتجاج على الملائكة.

السابعة: عجز الملائكة عن معرفة الأسماء التي عرضها الله عز وجل عليهم.

إفادات الآية

الآية من مدارس المعرفة الإلهية، وتأديب جعل الانسان يفنى في ذات الله، ويرجو رحمته ويسعى لنيل درجات العلم والإرتقاء في سلم المعارف والقيم.

وتطرد الآية الغفلة والغرور عن الإنسان، فمع عظمة الملائكة وقربهم من العرش أظهروا عجزهم عن تحصيل ما لم ينعم به الله عز وجل عليهم، مع مجيء خاتمة الآية بالإقرار بإطلاق علمه تعالى وحكمته البالغة ومنها تعليم الخلائق بقدر معين من غير تقييد له بحد محدود بل إنه يتسع

﴿١٧٦﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

بالعمل الصالح والدعاء والسعي والكسب.

ومن الإعجاز أن الملائكة يتعذر عليهم كسب العلوم إلا أن يمن الله عليهم لذا نسبوا جميع ما عندهم إلى ما علمهم الله تعالى، وفيه تأديب للإنسان، وإخبار بأن الإرتقاء العلمي في هذا الزمان إنما هو بإذن وفضل منه تعالى.

وفي الآية تذكير للناس بوجوب إقتران العلم بالتقوى، وترشحها عنه لأنه طريق للهداية والإيمان.

الصلة بين أول وآخر الآية

جاء الجواب بصيغة الجمع الذي يدل على صدوره من الملائكة جميعاً وعدم تخلف واحد منهم عن تنزيه مقام الربوبية، وهل كان إبليس من ضمن القائلين في هذه الآية الأقرب نعم ، للإطلاق وتمام الحجة عليه ، وقد ورد انه من ضمن الملائكة في قوله تعالى ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾^(١).

والأصل هو عدم شمول إبليس في الخطاب إلا مع القرينة الدالة على شموله كما في قوله تعالى ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾^(٢).

ويدل على الأصل وعدم شمول إبليس بلفظ الملائكة بعد إظهاره العناد والإستكبار آيات كثيرة في القرآن، منها قوله تعالى في الذين ماتوا على الكفر ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾^(٣)، وقوله تعالى

(١) سورة البقرة ٣٤.

(٢) سورة الكهف ٥٠.

(٣) سورة البقرة ١٦١ .

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿١٧٧﴾

﴿وَلَكِنْ أَلْبِزْ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ﴾^(١).

وإبليس مع الذين تذكرهم هذه الآية بلحاظ وحدة الموضوع، وهو خلق آدم ثم الأمر الإلهي بالسجود به.

لقد كان كلام الملائكة جواباً على سؤال الله لهم الذي جاء بصيغة الشرط ﴿أَنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وإبتدأوا بتنزيه وتقديس الله تعالى، وانه سبحانه وحده الذي يعلم الغيب، وأن الملائكة لا يعترضون على حكمه في الأرض أو في السماء، قال تعالى ﴿وَرَأَى الْمَلَائِكَةَ خَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾^(٢).

وجاءت الآية بكلام الملائكة هذا لتكون وثيقة تتضمن الإخبار عن أدب العبودية في كلام الملائكة، وفيه إرشاد لآدم عليه السلام وحواء وذريتهما فلذا تضمنت أدعية وخطابات الأنبياء تنزيه مقام الربوبية وتدل عليه آيات كثيرة في القرآن، وقال تعالى في مدح المؤمنين ﴿وَيَتَذَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾^(٣).

وتدل لغة الإطلاق في الآية السابقة ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ على أن كلمة التنزيه والتقديس لمقام الربوبية "سبحانك" مما علمه الله تعالى لآدم، فنطق الملائكة بها للتوكيد على موضوعيتها وحاجة آدم وذريته إلى تعاهد تنزيه مقام الربوبية وليصدق على آدم عليه السلام أنه أخذ وتعلم من الملائكة. إن إفتتاح الملائكة خطابهم وجوابهم بالتقديس لمقام الربوبية أدب في العبودية، ودليل على طاعة أهل السماء لله تعالى، ليرقى المؤمن الذي

(١) سورة البقرة ١٧٧.

(٢) سورة الزمر ٧٥.

(٣) سورة آل عمران ١٩١.

﴿١٧٨﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

يتضرع إلى الله تعالى بالتوسل والدعاء والمسألة إلى مراتب السمو والرفعة.
ويتضمن كلام الملائكة مسألتين:

الأولى: علم الملائكة مما علمهم الله تعالى، وهل يستقرأ منه أن الملائكة لا يستنبطون حكماً مما جعل الله عندهم من العلم، الجواب لا، فالقدر المتيقن منه هو إخبار الملائكة عن عدم معرفتهم بأسماء المسميات التي عرضها الله تعالى عليهم، وهو باب للعلوم.

ولم يقف الملائكة عند الإخبار عن عدم معرفتهم بالأسماء، ولكنهم قيدوا كلامهم بثلاثة أمور:

الأول: ليس عندهم من العلم الا ما علمهم الله تعالى.

الثاني: إن الله تعالى هو "العليم" الذي لا يخفى عليه شيء، ومن علمه تعالى انه يعلم بأنهم لا يعرفون تلك الأسماء.

الثالث: الله تعالى هو الحكيم، وأفعاله كلها تتصف بالحكمة، ومنها جعل آدم خليفة في الأرض.

الثانية: جاءت خاتمة الآية في إقرار الملائكة بإحاطة الله تعالى علماً بكل شيء، وفيها توسل ورجاء بمعرفة تلك الأسماء وسؤال الله تعالى لهم عن الأسماء، وحينما قال الملائكة كلامهم هذا هل كانوا يعلمون أن آدم تعلم تلك الأسماء، لا دليل عليه، والأصل عدم معرفتهم به، بينما جاء الوحي للأنبياء في الأرض بواسطة بعض الملائكة وكان قول الملائكة في هذه الآية مقدمة لنقلهم الوحي، لأن النقل يأتي بعد الإخبار عن عدم العلم به إلا أن يأمر الله تعالى بمعرفة أو نقل الملائكة للوحي وأخبار التنزيل.

وتتضمن مخاطبة الملائكة الله تعالى بلغة العبودية ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾

الرجاء والتوسل للتفضل عليهم بمعرفة تلك الأسماء، فلذا جاءت الآية التالية بتعليمهم الأسماء بواسطة آدم عليه السلام.

وبعد أن أختتمت الآية السابقة بقول الله تعالى إلى الملائكة ﴿أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿١٧٩﴾

هَؤُلَاءِ أَنْ كُتِمَ صَادِقِينَ ﴿١﴾ إبتدأت هذه الآية بقول الملائكة الذي يتضمن إعتذاراً وإخباراً عن عدم معرفتهم بتلك الإسماء، ويستقرأ منه معنى الذي تعلق الشرط به في صدقهم بقوله تعالى ﴿إِنْ كُتِمَ صَادِقِينَ﴾.

ولكن عجز الملائكة لايعني انهم غير صادقين بما يفيد الضد للصدق وهو الكذب، بل فيه أمور:

الأول: بيان سعة علم الله تعالى وعظيم قدرته.

الثاني: ان الله تعالى يفعل ما يشاء.

الثالث: إرادة الصدق بإحراز ما في جعل خليفة في الأرض من الأسرار والمنافع.

الرابع: إقامة الحجة على الملائكة.

فاذا كان الملائكة عاجزين عن معرفة الأسماء التي بحضرتهم، فمن باب الأولوية انهم عاجزون عن معرفة مايفعله الإنسان في الأرض من الصالحات وإعمارها بالتقوى والذكر والتسبيح والتقدير: إن كتتم صادقين بأن الخليفة يفسد فيها ويسفك الدماء).

مع بيان التنافي بين علم آدم بالأسماء وفعل السيئات، لأن العلم برزخ دون الجهالة والغفلة، بالإضافة إلى مجئ العلم من عند الله تعالى، وهو حرز وواقية ويفيد صبغة الثبات في معاني العلم، وتجلي آثاره العملية على الجوارح والأركان.

لقد أراد الله تعالى أن يكون تعليم آدم الأسماء مدرسة فقهية عبادية باقية في الأرض بأحكام وسنن الإسلام وآيات القرآن، لذا فمن خصائص آياته إحاطتها باللامحدود من الوقائع والأحداث وكما أظهرت الملائكة عجزها عن معرفة الأسماء التي علّمها الله عز وجل آدم، فإنها والخلائق الأخرى تعجز عن الإحاطة بكنه آيات القرآن ودلالاتها إلا أن يطلعهم الله تعالى، وتكشف الوقائع عن شطر منها ، وبما يؤكد القدرة الإلهية في جعل

﴿١٨٠﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

خليفة في الأرض، وأن هذا الخليفة لا يفسد في الأرض بل يجتهد في إصلاحها وتنزيهاها من الفساد.

وقد ذكرت مادة (عَلِمَ) في الآية السابقة مرة واحدة بقوله تعالى ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ﴾ أما في هذه الآية فقد جاء ذكرها مرتين بالإضافة إلى ورود اسم الله تعالى (العليم) كما تكرر لفظ (أعلم) في الآية التالية مرتين، كلاهما في علم الله تعالى، وفيه دلالة على أمور:

الأول: هذه الآيات آيات العلم.

الثاني: إقتران خلق آدم بالعلم.

الثالث: بيان إحاطة الله تعالى علماً بكل شيء ، وعجز أهل السماوات عن معرفة أسرار خلق الإنسان، وما في خلافته في الأرض من الحكمة. وجاءت هذه الآية كلها كلاماً للملائكة وخطاب إعتذار منهم إلى الله تعالى، ومن آيات خلق آدم أن تتوجه الملائكة بالإعتذار إلى الله عز وجل صاغرة مذعنة معترفة بتخلفها عن الإحاطة بعلمه تعالى والإقرار بما أنعم به على الملائكة من العلم، وأن كل الذي عندهم رشحة من رشحات فضله وإحسانه، ومنه الإخبار عن جعل خليفة في الأرض، فلولا إخباره تعالى لهم لما علموا بأنه سيكون خليفة في الأرض.

وجاء جواب الملائكة تعظيماً وتنزيهاً وثناء على الله تعالى ، ويتألف من ثلاثة أطراف:

الأول: كلمة التنزيه (سبحانك).

الثاني: إقرار الملائكة بأنه ليس عندهم من العلم إلا ما علمهم الله، وانهم لا يعلمون تلك الأسماء لأنها ليست مما علمهم الله تعالى.

الثالث: الإقرار بأن الله تعالى هو العليم الحكيم، فهو سبحانه وحده العالم بكل شئ، وأن أفعاله كلها حكمة وصواب، وتحتل الآية في مفهومها أموراً:

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿١٨١﴾

الأول: شوق الملائكة لمعرفة الأسماء والمسميات والمعاني المقصودة منها.

الثاني: إنعدام الشوق لمعرفة تلك الأسماء.

الثالث: تفويض الأمر إلى الله تعالى.

والصحيح هو الأول والثالث، فإن الملائكة أخبرت عن إنحصار علمها

بما علمها الله، وأثبتت على الله تعالى من وجهين:

الأول: علم الله تعالى بكل شئ، ومنه هذه الأسماء.

الثاني: إنه تعالى الحكيم الذي يعلم ما في تعلم الملائكة للأسماء من

المنفعة والحكمة.

وتبين الآية مصداقاً من مصاديق الحكمة على وجوه:

الأول: إقامة الحجة بالسؤال التعجيزي.

الثاني: عدم طرح السؤال إلا مع معرفة جوابه.

الثالث: ذكر الجواب، وعدم ترك السؤال كالمعلقة، مادام في الجواب

منفعة وله رجحان.

وهل كان أحد من الخلائق يعلم تلك الأسماء قبل أن يعلمها الله تعالى

آدم، الجواب لا دليل على الإيجاب والأصل هو اختصاص الله تعالى بها،

فمن علم الله تعالى أنه وضع تلك الأسماء ولم يطلع عليها أحداً إلا بعد

أن أخبر بها آدم عليه السلام لتكون في فوزه بالعلم بها قبل الغير منزلة

رفيعة له عليه السلام بين الخلائق، وفيه دليل على تفضيله على من سواه،

ودعوة للإنسان أن يشكر هذه النعمة بتعاقب العلم، ومن أهم مصاديقه

طاعة الله، والتصديق بالكتب السماوية والعمل بأحكام الشريعة.

وتتضمن الآية في منطوقها تنزيه مقام الربوبية، وتدل في مفهومها على

تنزيه الملائكة لأنفسهم، مع التباين في مقامات التنزيه، فتنزيه الله يعني

تعظيمه وتمجيده والإقرار بربوبيته، أما تنزيه الملائكة لأنفسهم فيعني

إقرارهم بالعبودية لله عز وجل وتجديد العجز والحاجة إلى رحمة الله

تعالى، بإخبارهم بأنه ليس عندهم إلا ما علمهم الله تعالى، مما يدل على

﴿١٨٢﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

ثباتهم في منازل الطاعة والخضوع والخشوع لله تعالى، وغبطتهم بما علمهم الله عز وجل.

وهذا التنزيه والإعتراف هو تنزيه آخر في الآية لمقام الربوبية، وثناء على الله تعالى، وإقرار بنعمة التعليم من عند الله، وفيه تأديب لآدم وذريته في الشكر لله تعالى على نعمة التعليم، ورجاء المزيد من فضله بالتقيد بسنن التقوى، قال تعالى ﴿لَنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾^(١).

التفسير الذاتي

لجأ الملائكة إلى الله عز وجل بالتسبيح والتقديس، في مقدمة للإعتذار وإظهار حسن العبودية والخضوع، ويحتمل واو الجماعة في (قالوا) أموراً:

الأول: صدور الكلام من جميع الملائكة.

الثاني: إنحصار القول بعدد من الملائكة.

الثالث: صدور الإستفهام من عدد قليل من الملائكة، ولكن السؤال الإلهي بمعرفة الأسماء توجه للجميع.

الرابع: صدور الإستفهام من عدد خاص من الملائكة، وتوجه السؤال لهم بالخصوص، ولكن التعظيم والتقديس لمقام الربوبية (سبحانك) جاء منهم جميعاً.

والصحيح هو الأول لأصالة الإطلاق، وإرادة العموم المجموعي، إلا أن يقال أن أصل الإستفهام (أتجعل فيها) صدر من عدد من الملائكة فيحتمل الحصر، وقد جاء قوله تعالى ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾ في القرآن ثلاث مرات^(٢).

(١) سورة إبراهيم ٧.

(٢) انظر سورة الفرقان ١٨، سورة سبأ ٤١

من غايات الآية

في الآية مسائل:

الأولى: بيان حاجة الإنسان.

الثانية: فوز الانسان المنزلة العظيمة بين الخلائق بأمر منها:

الأول: نفخ الله في روحه.

الثاني: إنفراده بمرتبة من العلم لم ينلها جنس من الخلائق قبله.

الثالثة: بيان عظيم فضل الله عز وجل على الانسان.

الرابعة: نعمة العلم هي أعظم النعم، ومن كان عنده نصيب من العلم فقد فاز وأحرز مرتبة وسبق وإرتقاء في المعارف، وقد انعم الله عز وجل على المسلمين بالهداية إلى الإيمان والتصديق بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وهو من أعظم مصاديق العلم.

الخامسة: دعوة الإنسان إلى الإنتفاع مما عنده من العلم، وفي إنحصار أو تعدد العلم الذي رزقه الله آدم عليه السلام وجهان:

الأول: إنحصار العلم بآدم عليه السلام.

الثاني: إطلاع آدم عليه السلام وذريته من بعده على العلم الذي علمه الله.

والصحيح هو الثاني، وهو على وجوه:

الأول: إختصاص العلم بالأنبياء على نحو الخصوص بالتوارث بينهم،

فكل نبي يورث العلم إلى النبي الذي من بعده.

الثاني: شمول العلم لأصحاب الأنبياء، إذ يطلع النبي في كل زمان

أصحابه على مضامين العلم، وفيه وجهان:

الأول: يطلع النبي أصحابه على كل ما تعلمه من النبي الذي سبقه.

الثاني: يخبر النبي أصحابه بشطر مما تعلمه من النبي السابق، ويبقى

شطر منه يدخره لنفسه لأنه من مختصات النبوة.

﴿١٨٤﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

الثالث: إطلاع النبي أتباعه المسلمين على ما تعلمه وراثته من الأنبياء السابقين عن آدم عليه السلام.

الرابع: ما علمه الله عز وجل آدم علمه لحواء ولأولاده من بعده الصليبين منهم والأحفاد، ليبقى إرثاً مباركاً في ذرية آدم عليه السلام إلى يوم القيامة، نعم للأنبياء المنزلة الرفيعة في توارثه وحفظه وتعااهده.

ولا تعارض بين هذه الوجوه، لأن العلم من الكلي المشكك الذي يكون على مراتب متفاوتة، وتلك نعمة عظيمة على الناس جميعاً وحجة عليهم في لزوم الإيمان بالله والتصديق بالأنبياء، وجاءت الآية بخصوص تعليم أسماء الأشياء والأعيان والعروض، وفيه دليل على تكامل اللغة عند آدم وإقتران معرفة الحروف والكلمات عنده بالخلق والنفخ فيه من روح الله.

إن معرفة لغة التخاطب أمر صعب وليس باليسير، فلو ولد طفلان ولم يجر مع كل منهما أي كلام أو حديث أو إشارة إلى شيء، وعندما يكبران يجمع بينهما فهما لم يعرفا النطق بأي لغة ولم يسمعا كلاماً مفهوماً، مما يستلزم تعاقب أجيال من ذريتهما كي تكون هناك لغة للتخاطب بينهم، وقد أنعم الله عز وجل على آدم، وجعله يعلم الأسماء كلها وبما يعرف معه لغة مخصوصة، وهو أمر مستقراً من أمور:

الأول: تشريف آدم بالنفخ فيه من روح الله.

الثاني: تعيين آدم بمنصب الخلافة في الأرض، فلا يمكن أن يكون الخليفة جاهلاً للغة التخاطب والتفاهم.

الثالث: التحدي الإلهي بآدم بين الملائكة وعجزهم عن مجاراته بما رزقه الله عز وجل من فضله.

الرابع: لقد أنعم الله تعالى على الإنسان وخلصه من الحاجة إلى لغة الإشارة، لأن وظائف الخلافة تقتضي القيام بالعبادة والتلاوة وتوارث العلم، وهي أمور لا تحصل إلا بالنطق واللغة.

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿١٨٥﴾

الخامس: تعلم آدم الأسماء مقدمة لنهيهِ عن الأكل من الشجرة، وهو حجة عليه حينما أكل منها، وإن كان التسبيب والوزر على الشيطان الذي أغواه وأغراه وكذب وإفترى عليه.

السادس: حينما أنكر الملائكة خلافة الإنسان في الأرض لم يذكروا عجزه عن معرفة الكلام واللغة، ومع هذا إكتفوا بدم الإنسان لإفساده في الأرض وسفكه الدماء، والجواب من وجوه:

الأول: إعتنى الملائكة بأكثر أفعال بني آدم قبحاً.

الثاني: علم الملائكة بأن الناس سيتعملون لغة للتخاطب.

الثالث: معرفة الملائكة أن الله عز وجل سيعلم آدم وذريته لغة أو لغات للتخاطب.

الرابع: إمتلاك آدم لغة للتخاطب، لأن الله عز وجل خلقه بتمام الخلقة.

ولم تذكر هذه الآية إلا تعليم الأسماء، ويدل هذا التعليم بالدلالة التضمنية على أن آدم عليه السلام يتحدث لغة مخصوصة قبل أن يعلم الأشياء.

والصحيح هو الثاني والرابع، فالظاهر أن تعليم اللغة متقدم زماناً، وهو مقدمة لتعلم آدم عليه السلام الأسماء، وورد في الخبر أن أول كلمة قالها آدم هي الحمد لله.

التفسير

قوله تعالى ﴿سُبْحَانَكَ﴾

سبحان كلمة تنزيه وتقديس لله عز وجل من كل ما لا ينبغي له من الصفات وما يتعلق بالمقام وفق القرائن، ففي الآية الكريمة يكون المعنى تنزيه الله تعالى وتعظيمه والإقرار والإعلان بأن الغيب لا يعلمه غيره، وأن الملائكة لم يقصدوا في الإستفهام سوى التعظيم والتقديس والتسليم

للقدرة الإلهية المطلقة.

فهذه الآية تبين أن إستفهامهم ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا ﴾ لم يكن على سبيل الإنكار، وأن سؤالهم كان على وجه التعجب فيما لا يعلمونه من عظيم قدرته تعالى وما تعنيه إرادته في تعيين خليفة له في الأرض.

ومن صفات الله تعالى انه يريد أي عالم بما يشتمله الفعل من المصلحة الداعية إلى إيجاده وهو المخصص لإيجاده في وقت دون آخر وحال دون آخر، من غير تأثر بمولدات تلك الإرادة أو الإنفعال بها كما عند الناس اذ يحصل عندهم شوق أو نحوه يبعث إلى تحصيل الفعل لأن علمهم كسبي إنطباعي، أما علم الله تعالى فهو حضوري ذاتي وسابق للمعلوم، وعلم الناس والملائكة لاحق وتابع للمعلوم ووجوده صورة وجسماً.

نعم يمكن القول أن تعظيم الملائكة لله عز وجل بقولهم ﴿سُبْحَانَكَ﴾ مناسبة للتدارك والإعتذار والبيان وتجديد الإخلاص في العبودية والخضوع لأمره تعالى والقبول بالحادث من الأمر النازل، وفيها بالدلالة التضمنية تطلع ورجاء لمعرفتها، وتفضل الله سبحانه بالإخبار عنها.

وأختلف في قول الملائكة ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ هل هو خطأ وتقصير، وجاءت هذه الآية لبيان ندمهم وتوبتهم، وانهم أظهروا الإقرار بالعجز والحاجة إلى فضل الله للتزود بالعلم وهو أشرف وجوه الرزق، وظاهر بعض الأخبار يدل على إعتذارهم وندمهم وهو أعم من الذنب بمعناه الإصطلاحي، وفيه نوع تقرب إلى الله وتعظيم لمقام الربوبية.

ويبدو أن نوااميس وأحكام السماء تتصف بالدقة والإرتقاء في منازل العبودية والخضوع وكأنه من "حسنات الأبرار سيئات المقربين" ^(١)، ولا بد من حمل الآية على الوجه الأحسن لأصالة الصحة، وعدم إعتبار

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿١٨٧﴾
الشك، ولورود الآيات التي تفيد تنزيه الملائكة مطلقاً، ومنها قوله تعالى
﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾^(١).

إن الله تعالى يقيم الحجة على أشرف مخلوقاته، ويظهر لها حاجتها
المستديمة له، وفي الآية دعوة للناس جميعاً لتحصيل العلم والإجتهاد في
طلبه وإكتسابه.

عن أنس: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إن أول من لبي
الملائكة قال الله {إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد
فيها ويسفك الدماء} قال : فزادوه فأعرض عنهم ، فطافوا بالعرش ست
سنين يقولون: لبيك لبيك اعتذاراً إليك ، لبيك لبيك نستغفرك ونتوب
إليك.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن عساكر عن ابن سابط: إن النبي
صلى الله عليه وسلم قال: دحيت الأرض من مكة، وكانت الملائكة تطوف
بالييت فهي أول من طاف به ، وهي الأرض التي قال الله {إني جاعل في
الأرض خليفة} وكان النبي إذا هلك قومه ونجا هو والصالحون أئاماً هو
ومن معه ، فيعبدون الله بها حتى يموتوا فيها، وأن قبر نوح، وهود،
وشعيب، وصالح، بين زمزم وبين الركن والمقام^(٢).

قوله تعالى ﴿لَا عَلِمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْنَا﴾

إقرار بالحاجة والإفتقار إلى رحمة الله تعالى وفضله للزوم الإمكان
لما هيئتها وعدم انفصال الإمكان عن الإحتياج، ولازم اللازم لازم، ولم
ينحصر إحتياج الملائكة إلى واجب الوجود بوجودهم بل يشمل بقاءهم
وجوانبه المختلفة ومنه علمهم الإكتسابي والذي لا تستطيع الملائكة التوصل

(١) سورة النحل ٥٠.

(٢) الدر المنثور ١/٦٧.

إلى فرد منه إلا بما ينعم به الله عليهم.
ومنه تفضل الله تعالى بإخبارهم بالخليفة في الأرض وأهليته لإستحقاق تلك الخلافة بما فضله الله تعالى به.

ويمكن الإستدلال أيضاً بأن سؤال الملائكة ليس إستكارياً لانهم لم يستمروا بالإحتجاج ولم يذكروا مثلاً أن تعليم آدم جاء بفضل الله تعالى وانه لا يمنع من سفك الدماء، وربما وجه بعض البشر والملا منهم العلم للفساد والشر، والملائكة دائبون في التسييح بهذا العلم أو بدونه ولكنهم أدركوا أن الذي تعلمه آدم كاف للقضاء على الفساد في الأرض، فهذه الآيات بشارة سيادة العدل والحكم بالحق، وإعلاء كلمة التوحيد في الأرض، وإخبار بأن العلم واقية وحرز من الفساد وإستدامته.

لقد إنشغل الملائكة بكيفية الرد الكريم والإعتذار الجميل وهو دعوة للمسلمين بطاعة أوامر الله تعالى لما فيها من المصلحة، وإجتنب نواهيه لعلمه بما فيها من المفسدة.

وإحتج الأشاعرة بالآية الكريمة على أن المعارف مخلوقة لله تعالى، أما المعتزلة فقد إعتبروا الواسطة في التأويل فقالوا أن المراد لا علم لنا إلا من جهته أما بالتعليم واما بنصب الدلالة.

والخلاف بينهم صغروي ، ودلالات الآية أعظم ، وهي مناسبة للإعتبار والإتعاظ وليس الإختلاف الذي يشغل الأذهان، ومن وجوه الإعتبار أن الملائكة توجهت مع العلم إلى التدارك والإعتذار، ولجأت إلى التسييح والتقديس لمقام الربوبية.

وتتعلق الآية الكريمة بحال الملائكة في السماء والقدر المتيقن هو إدراك المغيبات.

وفي الآية إقرار بالنعم وإعتراف من الملائكة بأن ما عندهم من العلم هو فضل من الله تعالى فلم يكتفوا بالقول ﴿لَا عَلِمَ لَنَا...﴾. ولعل فيها وفيما

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿١٨٩﴾
بعدها من التعظيم والثناء سؤالاً للعلم بتلك الأسماء.

بحث بلاغي

ترد (ما) إسماء وترد حرفاً، وإذا وردت إسماء فقد تكون معرفة وقد تكون نكرة، وإذا أمكن مجيء (الذي) في محلها فهي معرفة، أما إذا حسن مجيء (شيء) محلها فهي نكرة، وقد يصلح الأمران معاً. وهي هنا معرفة، وقد تكون خبرية أو إستفهامية، وفي المقام جاءت خبرية لأنها جاءت بعد (إلا)، وتدل الآية على ضبط الملائكة لما علموه، وانهم متأكدون من أن هذه الأسماء ليست مما علمهم الله سبحانه، ولم يترددوا في الجواب أو يجتمعوا فيتشاوروا للتذكر وإستحضار كل ما علموه، ولم يجعلوا لإحتمال النسيان نصيباً بل أكدوا عدم علمهم بها، مما يدل على شرف الملائكة، وعظيم خلقهم، وحسن أدبهم في حضرة القدس، الأمر الذي يؤكد بالدلالة الإلتزامية على شرف الإنسان بما رزقه الله من النعم، والمنزلة الرفيعة التي جعله الله فيها بين الخلائق، ومنها انه علمه ما لم يكن عند الملائكة.

قوله تعالى ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾

العليم على وزن فعيل للمبالغة، لقد أثبت الملائكة العلم المطلق لله تعالى بعد أن أعلنوا إقرارهم بالعجز والإحتياج، وأن الأشياء تستند إلى الله عز وجل، وأنه مختار في مخلوقاته، ويعمل من يشاء خليفة ويعلم من يشاء، ويحجب فضله عمن يشاء لأنه فاعل مختار لا يفعل إلا مع القصد وكل فاعل مختار عالم.

والنتيجة انه تعالى عالم، ومن أسمائه تعالى (العليم) و(الحكيم).
والحكمة لها معنيان:

الأول: معرفة الأشياء وتفاصيل الأمور وجزئياتها.

الثاني: صدور الأمر على الوجه الأتم والأكمل، والحكيم هنا فعيل

بمعنى فاعل.

وعلى المعنى الأول فالله سبحانه ذو الحكمة الذي أحاط بكل شيء علماً، وعلى المعنى الثاني فهو سبحانه الذي يفعل ما هو غاية الكمال والإتقان والإحكام.

ويتضمن هذا الثناء والتعظيم في بعض مفاهيمه إقراراً بإستحالة وقوع الفعل المتقن من الملائكة إلا بتوفيق من الله تعالى، وبأن خلق آدم وجعله خليفة في الأرض من الإتقان والحكمة واللفظ الإلهي، كما تخبر الآية بالدلالة التضمنية على ما يكون للإنسان وخلافته من شأن في عالم التكوين والتشريع.

بحث روائي

في تفسير العياشي عن الامام الصادق عليه السلام قال: لما أن خلق الله آدم أمر الملائكة أن يسجدوا له، فقالت الملائكة في انفسها: ما كنا نظن أن الله خلق خلقاً اكرم عليه منا فنحن جيرانه ونحن أقرب الخلق اليه، فقال الله: ألم أقل لكم اني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون، فيما أبدوا من أمر الجان، وكنتموا ما في أنفسهم فلاذت الملائكة الذين قالوا ما قالوا بالعرش.

وفي خبر محمد بن سنان عن الرضا عليه السلام أن الملائكة لما إستغفروا من قولهم أتجعل فيها من يفسد فيها وعلموا أنهم أذنبوا فندموا ولاذوا بالعرش وإستغفروا فأحب الله أن يتعبد بمثل ذلك العبادة فوضع في السماء الرابعة بيتاً بحذاء العرش يسمى الضراح، ثم وضع في سماء الدنيا بيتاً يسمى المعمور بحذاء الضراح ، ثم وضع البيت بحذاء البيت المعمور ثم أمر آدم عليه السلام فطاف به وتاب عليه وجرى ذلك في ولده إلى يوم القيامة^(١).

قوله تعالى ﴿ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ أَنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ الآية ٣٣

الإعراب واللغة

قال: فعل ماضٍ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو يعود إلى الله تعالى.
يا آدم: يا: حرف نداء، آدم: منادى مفرد مبني على الضم.
انبئهم: فعل أمر مبني على السكون، والفاعل ضمير مستتر تقديره انت،
يعود إلى الله عز وجل، الهاء: مفعول به، والجملة الفعلية في محل نصب
مقول القول.

باسمائهم: الباء: حرف جر، أسماء: اسم مجرور، والجملة في محل
نصب المفعول الثاني، والضمير الهاء: مضاف إليه.

فلما: الفاء: عاطفة على جملة محذوفة والتقدير فأنبئهم بأسمائهم
وحذفت للبلاغة والوضوح والإيجاز غير المخل.

لما: ظرفية وتسمى الحينية وتتضمن معنى الشرط، انبأهم: فعل ماضٍ،
والفاعل ضمير مستتر تقديره هو يعود لآدم، والجملة في محل جر بإضافة
الظرف إليها، والضمير الهاء مفعول به.

باسمائهم: جار ومجرور متعلقان بأنبئهم، والضمير (الهاء) في محل جر
مضاف إليه.

قال: فعل ماضٍ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو يعود إلى الله تعالى،
والجملة لا محل لها من الإعراب لأنها جواب شرط غير جازم.

ألم: الهمزة، للإستفهام التقريري، لم: حرف نفي وقلب وجزم.

أقل: فعل مضارع مجزوم بلم، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنا.

﴿١٩٢﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

لكم: جار ومجرور متعلقان بأقل، اني: أن وأسمها.
أعلم: فعل مضارع مرفوع، والجملة الفعلية خبران، وجملة أن وما في
حيزها في محل نصب مقول القول.

غيب: مفعول به منصوب بالفتحة، وهو مضاف، السماوات: مضاف
إليه مجرور بالكسرة نيابة عن الفتحة لأنه ملحق بجمع المؤنث السالم،
والأرض عطف على السماوات.

وأعلم: الواو حرف عطف، أعلم: عطف على أعلم الأولى، ما: اسم
موصول في محل نصب مفعول به.

تبدون: فعل مضارع مرفوع، وجملة تبدون لا محل لها لأنها صلة
الموصول، و(ما) عطف على (ما) الأولى.

كتتم: كان وأسمها، تكتمون: جملة فعلية في محل نصب خبر كتتم.
أنبئهم بضم الهاء، لأن هاء الضمير في الأصل تكون مضمومة وقد
كسرها قوم عند سبقها بكسرة أو ياء كما في بهم وعليهم، وبقي آخرون
على ضمها حتى في هذه الحالة حملاً على الأصل، وروي أن ابن عامر
كسر الهاء في أنبئهم، ربما على القياس إتباعاً لكسرة الباء، وعدم الإلتفات
إلى الهمزة كحاجز ساكن.

والغيب: هو كل ما غاب عنك، وفي الإصطلاح ما خفي على الناس
وجهلوا أمره من أسرار السماوات والأرض وقصص الأمم السالفة.
وبدا الشيء يَبْدُو بَدَواً وَيَبْدُو بَدَواً وَيَبْدَأُ وَيَبْدَأُ وَيَبْدَأُ الأخرى عن سيويه ظهر
وَأَبْدَيْتُهُ أَنَا أَظْهَرْتُهُ^(١).

الكتمان: الإخفاء، ونقيض الإعلان، يقال كتّم الشيء يكتّمه كتماً.
تبدون: تظهرون وتعلنون.

في سياق الآيات

هذه الآيات بيان لعظيم فضل الله تعالى في خلق الإنسان والحجة في تعليمه وإعداده وجعله في منزلة يغطه عليها الخلائق فليس من فترة بين الخلق والتعليم وما يعنيه من الرفعة، وفيه تويخ لأولئك الذين لم يتخذوا العلم طريقاً للإقرار بالربوبية.

ويكون مضمون نظم هذه الآيات على وجوه:

الأول: إخبار الله تعالى للملائكة بأنه سيجعل خليفة له في الأرض.

الثاني: رد الملائكة بالسؤال عن الفساد الذي يحدثه ابن آدم في الأرض، وما فيه من الأذى للملائكة وهم منقطعون للعبادة والتسبيح، وذكر الملائكة أمرين:

الأول: الفساد في الأرض.

الثاني: سفك الدماء.

ولقد أراد الملائكة القول بأن وظيفتهم هي العبادة المحضة وأنهم لا يفعلون إلا ما يأمرهم الله وأنهم لم يعترضوا على جعل خليفة في الأرض، لأن هذا ليس من شأنهم، وهم خلق مطيعون لله تعالى، ولكنهم سألوا عن عاقبة المفسدين، فجاء الجواب من عند الله ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

الثالث: لم يترك الله تعالى كلام الملائكة من غير رد، بل أجابهم بما فيه حجة عليهم إلى يوم القيامة.

الرابع: تفضل الله عز وجل بتعليم آدم الأسماء كلها، وجاء هذا التعليم قبل أن يصبح آدم خليفة في الأرض.

الخامس: تفضل الله وعرض المسميات على الملائكة لإتمام الحجة والسؤال عن أسمائهم.

السادس: إظهار الملائكة عدم معرفتهم بالأسماء، لأنها ليست مما علمهم الله تعالى، مع التحميد والتمجيد لمقام الربوبية.

﴿١٩٤﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

السابع: الأمر الإلهي لآدم بإخبار الملائكة عن الأسماء.

الثامن: قيام آدم بإخبار الملائكة عن الأسماء، وفيه شاهد على أمور:

الأول: قدرة آدم على حفظ الأسماء وهل ذكرها آدم أم ترك أو نسي بعضاً منها، الجواب هو الأول، لأصالة الإطلاق، وظاهر الآية الكريمة وما فيها من لغة العموم.

الثاني: إمتلاك آدم للذاكرة وإستحضار الأسماء.

الثالث: إستجابة آدم لأمر الله تعالى بالإجابة، وذكر الأسماء للملائكة،

لأن الآية تقول ﴿فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ﴾.

الرابع: بيان أهلية آدم للخلافة في الأرض، وتلقي الوحي والتنزيل.

التاسع: مجيء البيان من الله تعالى إلى الملائكة عقب تعليم آدم لهم الأسماء والإخبار عن إحاطته سبحانه علماً بكل شيء ما ظهر وما بطن، والموجود والمعدوم.

العاشر: توجه الأمر الإلهي إلى الملائكة بالسجود لآدم عليه السلام، فمن الآيات أن السجود لم يأت متصلاً مع الإخبار عن جعله خليفة في الأرض، فلم تقل الآيات "اني جاعل في الأرض خليفة فاسجدوا له" بل جاءت الآيات بأمور ومقدمات ومسائل في الإرادة التكوينية، وفيه إشارة إلى أن موضوع الخلافة أعم من شخص آدم عليه السلام وأن الأمر بالسجود لم يأت الا بعد البيان وإقامة الحجة على الملائكة، وهو لطف من الله تعالى بهم وبآدم، ولكن إبليس لم ينتفع من هذا اللطف بسبب عناده وجحوده.

الحادي عشر: إستجابة الملائكة لأمر الله بالسجود لآدم عليه السلام إلا إبليس الذي إستكبر جاحداً.

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿١٩٥﴾

الثاني عشر: الإخبار عن الفضل الإلهي على آدم بالسكن هو وزوجته في الجنة، وهل هناك شواهد على إستحقاق آدم السكن في الجنة، فيه وجوه:

الأول: تلقي آدم معرفة الأسماء من عند الله تعالى من غير واسطة ملك.

الثاني: قيامه بتعليم الملائكة الأسماء.

الثالث: إمثاله لأمر الله تعالى بتعليم الملائكة الأسماء.

الرابع: عدم سقوط بعض الأسماء منه.

الخامس: الأمر الإلهي بسجود الملائكة له.

السادس: قيام الملائكة بالسجود لآدم طاعة لله تعالى.

السابع: إمتناع إبليس عن السجود لآدم عليه السلام.

الجواب انه لا دليل على موضوعية اي واحد منها لإستحقاق سكن آدم وحواء في الجنة، بل جاء سكنهما فيها لطفاً وكرماً من عند الله تعالى، وفي سكنه مع الملائكة موعظة وعبرة له وللملائكة ، ومقدمة لسكن المؤمنين الدائم في جنة الخلد.

لقد جاء هذا التعليم على قسمين:

الأول: تعليم الله تعالى الأسماء لآدم، وفيه مسائل:

الأولى: حاجة آدم لتعلم الأسماء.

الثانية: أهلية آدم لإكتساب المعارف.

الثالثة: يحتمل تعلم آدم للأسماء وجهين:

الأول: انه جاء على نحو دفعي ومرة واحدة.

الثاني: جاء التعليم على نحو تدريجي، كنزول القرآن نجوماً.

والصحيح هو الأول من وجوه:

﴿١٩٦﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

الأول: عمومات قوله تعالى ﴿إِنَّا أَمَرْنَا إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(١).

الثاني: جاءت الآيات في مقام الإحتجاج على الملائكة في بيان منزلة آدم عليه السلام، وما له من الشأن العظيم.

الرابعة: جاءت الآيات بإفادة صيرورة آدم خليفة في الأرض، وتبين الآية فضل الله تعالى على الخلائق بواسطة الخليفة، لأن تعلم آدم الأسماء وسيلة للعدل ونشر مفاهيم الرأفة.

الخامسة: تعليم الأسماء حجة ومناسبة للإحتجاج على الملائكة.
السادسة: من رحمة الله تعالى أن آدم لم ينزل إلى الأرض إلا بالعلم والمعارف الإلهية.

الثاني: تعليم آدم الأسماء للملائكة وفيه مسائل:
الأولى: الآية شهادة على نيل آدم للمعارف التي تؤهله لمنزلة الخلافة في الأرض.

الثانية: معرفة أهل السماوات بمنزلة آدم عليه السلام.
الثالثة: في الآية ثناء على الملائكة لأنهم يتلقون التعليم ممن لم تمر مدة على خلقه، وهو ليس من أهل السماء بل خلق ليكون خليفة في الأرض، وفيه دعوة للناس لتلقي التعليم وإن كان من البعيد والبلد النائي (لذا ورد عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إطلبوا العلم ولو بالصين)^(٢).
الرابعة: إعطاء الملائكة درساً للناس بأن يتلقوا المعارف، ولو من الأدنى منهم.

الخامسة: إقرار الملائكة بأهلية آدم للخلافة في الأرض.

(١) سورة يس ٨٢.

(٢) كنز العمال ١٣٨/١٠.

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿١٩٧﴾

السادسة: لما كان الملائكة يخشون من أهل الفساد في الأرض كما في قوله تعالى ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾^(١)، جاءت هذه الآية للدلالة على أثر العلم في تنزيه الأرض من إستدامة الفساد.

السابعة: تدل الآيات على مطابقة الأسماء للمسميات.

وإذ أكدت الآيات علم آدم بالأسماء فإنها لم تشر إلى تعلم الملائكة لها، ولكن الآية تدل عليه لكفاية تلقي الملائكة للأسماء في حفظهم لها ومطابقتها لمسمياتها لعظيم قدرهم، ولإتصافهم بالحفظ، قال تعالى ﴿وَأَن عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ﴾^(٢).

الأول: الصلة بين آية (فسواهن)^(٣)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: تفضل الله عز وجل بخلق وتعيين رزق آدم وذريته قبل خلق آدم بقرينة أن خلق السموات جاء متأخراً زماناً عن خلق الأرض ومادة الرزق فيها ، وأن خلق آدم وسجود الملائكة له كان في الجنة.

الثانية: من غيب السماوات والأرض التي يعلمها الله علة خلق الأرض وأقوات الناس فيها، إذ أن مقدمات موضوع الخليفة في الأرض سابقة لخلق آدم عليه السلام.

الثالثة: أختتمت الآية بالإخبار عن إحاطة الله علماً بكل شيء، وجاءت هذه الآية بالإخبار عن علم الله عز وجل عن أمور:

الأول: علم الله بغيب السماوات.

الثاني: علم الله عز وجل بغيب الأرض وما يكون من شأن آدم وذريته، ويدل بالدلالة التضمنية على الرد على إدعاء الملائكة بأن

(١) سورة البقرة ٣٠.

(٢) سورة الانفطار ١٠.

(٣) الآية ٢٩.

﴿١٩٨﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع
الإنسان يفسد في الأرض ويسفك الدماء، والإشارة إلى جانب الصلاح
والهداية في الأرض.

الثالث: ما يعلن الملائكة.

الرابع: ما يخفيه الملائكة في نفوسهم بخصوص آدم أو مطلقاً.

الخامس: من علم الله عز وجل تعليم آدم الملائكة الأسماء، ومجيء
هذا التعليم ، ويحتمل الذي يخفيه الملائكة وجوهاً:
الأول: الذي يتفق عليه الملائكة فيما بينهم بخصوص آدم عليه
السلام.

الثاني: ما يستحي الملائكة من إظهاره.

الثالث: ما ينوون قوله .

الرابع: يعلم الله برد الملائكة قبل أن ينطقوا به.

لقد جاءت الآيات بمدح الملائكة والثناء عليهم، وهم منقادون لأمر
الله عز وجل، وجاءت الآية لإقامة الحجة على الملائكة وأن الله عز
وجل يعلم بردهم وقولهم قبل أن يقولوه، وفيه تأديب لأهل السماء
والأرض وبيان لإكرام الله عز وجل لآدم.

الثاني: الصلة بين آية ﴿خَلِيفَةً﴾^(١)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: يفيد الجمع بين الآيتين أن خلق الملائكة قبل آدم، ومع هذا
صار آدم معلماً للملائكة.

الثانية: آدم هو الخليفة في الأرض.

الثالثة: إحتج الملائكة، بأن الخليفة يفسد في الأرض ويكثر من القتل
بغير الحق، فجاءت هذه الآية لتبين إتصاف وقيام آدم بأسمى وظيفة
وهي التعليم وتعليم الملائكة بالذات، ومن خصائص التعليم إحداث

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿١٩٩﴾
تغيير عند المتعلم، وهو في المقام أعم من موضوع التعليم لمعرفة المتعلم وأهليته للخلافة في الأرض.

الثالث: الصلة بين آية ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ﴾^(١)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: جاء تعليم آدم الأسماء لنفسه وللملائكة مما يدل على أن خلقه رحمة وخير محض.

الثانية: يفيد الجمع بين الآيتين تعلم آدم للأسماء، وقيامه بتعليمها، وهو مقدمة وشاهد لتلقي الأنبياء الوحي، وقيامهم بتبليغه من غير زيادة أو نقصان، ودعوة للناس للتصديق بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وما يأتي به من القرآن من الوحي من عند الله عز وجل.

الثالثة: إن إبليس رأى آدم وهو يقوم بتعليم الملائكة، وفيه دعوة له لتلقي الأمر بالسجود لآدم بالقبول.

الرابع: الصلة بين الآية السابقة ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾^(٢)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: تقديم الثناء على الله عند الجواب مطلقاً، والإعتذار خاصة.
الثانية: جاء التحدي للملائكة، أما آدم فقد علمه الله عز وجل الأسماء ابتداءً وفضلاً من عنده.

الثالثة: ابتداء مرحلة جديدة وهي تلقي الملائكة التعليم بواسطة آدم، وهو لا يتعارض مع قوله تعالى في الآية السابقة ﴿لَا عَلِمْنَا إِلَّا مَا عَلَّمَنَا﴾^(٣)، بل هو في طوله، ويتضمن تشريف آدم، وهل فيه أمانة على صعود

(١) سورة البقرة ٣١.

(٢) الآية ٣٢.

(٣) سورة البقرة ٣٢.

﴿٢٠٠﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

الإنسان إلى الكواكب الأخرى وإنتفاعه من سلطان العلم في الإنتفاع منها، الجواب لا، فإن القدر المتيقن هو الصلة بين الملائكة والإنسان.

الشعبة الثانية: الصلة بين هذه الآية والآيات التالية، وفيها وجوه:

الأول: الصلة بين هذه الآية والآية التالية آية ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾^(١)، وفيها

مسائل:

الأولى: بعد بيان علم آدم وأهليته للخلافة في الأرض جاء الأمر الإلهي للملائكة بالسجود لآدم.

الثانية: يدل سجود الملائكة لآدم على طاعتهم لله وإنقيادهم لأوامره.

الثالثة: قيام الحجة على إبليس، فهو أبى السجود مع رؤية العلم عند آدم، وقيام الملائكة بالإمتثال للسجود له.

الثاني: الصلة بين هذه الآية وآية ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ﴾^(٢)، وفيها مسائل:

الأولى: لم يسكن آدم في الجنة إلا بعد سجود الملائكة له.

الثانية: لزوم حذر آدم من إبليس لأنه أبى السجود له.

الثالثة: بعد سجود الملائكة لآدم في الآية السابقة جاء إخبار هذه الآية عن حواء وأنها تسكن مع آدم في الجنة.

الرابعة: يدل حرف العطف الواو في (وقلنا) على مجئ الأمر بسجود آدم في الجنة بعد سجود الملائكة له.

الثالث: الصلة بين هذه الآية وآية ﴿فَازْهَبَا﴾^(٣)، وفيها مسائل:

(١) الآية ٣٤.

(٢) الآية ٣٥.

(٣) الآية ٣٦.

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿٢٠١﴾
الأولى: يفيد الجمع بين الآيتين بأن آدم وحواء أكلا من الشجرة التي
نهاهما الله عنها.

الثانية: عدم استدامة سكن آدم وحواء في الجنة بسبب إغواء إبليس.
الثالثة: مصاحبة العداوة للسكن في الأرض، لتكون عبادة الإنسان
لله واقية من تلك العداوة، وسبيل نجاة من شرور إبليس.

الرابعة: جاء الأمر بالسكن في الجنة مطلقاً بلحاظ أفراد الزمان، أما
السكن في الأرض فانه مقيد بقوله تعالى ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ ويفيد الجمع
بين الآيتين وجود حياة أخرى تتصف بالخلود وهي السكن في الجنة، قال
تعالى ﴿لِّلَّذِينَ أَتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ
فِيهَا﴾^(١).

إعجاز الآية

تعدد موارد الإكرام لآدم في مخاطبة الباري عز وجل له وتعليمه إياه
وتولي آدم لوظائفه العلمية والعقائدية منذ بداية خلقه، ليصبح حجة، وفي
الآية إشارة إلى وجود ما جعل الله عند آدم من العلوم في القرآن وأودعها
آياته، وتدعو الآية الناس لينهلوا منه ليستحق الإنسان بالإيمان الخلافة في
الأرض.

وأخبرت هذه الآية بأن الله تعالى قال للملائكة ﴿إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ وليس في الآيات السابقة ذكر له،
ولم يرد اللفظ أعلاه في أي آية من آيات القرآن مع مجيئها بذكر علمه تعالى
بغيب السماوات والأرض، وفيه دلالة على أن الله عز وجل سبق وأن قال

﴿٢٠٢﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع
للملائكة هذا القول وتفضل وذكرهم به في خلق آدم، وهو شاهد على أن
القرآن فيه تبيان كل شيء ، ومنها أخبار السماوات والملائكة.
لقد علم الله عزوجل آدم الأسماء كلها ليخبر الملائكة بها، وأخبر
المسلمين بالقرآن عن كلامه مع الملائكة وأنه يعلم غيب وأسرار السماوات
والأرض ليتلقاه المسلمون بالقبول والتصديق بالإيمان، وإدراك حقيقة وهي
علم الله تعالى بما في نفوس المسلمين والناس جميعاً، وفيه حرب على
النفاق ودعوة للتزهد منه، إذ جاءت الآيات السابقة بدم المنافقين.
فمن إعجاز الآية انه جاءت بالإخبار عن علم الله تعالى بالعام
والخاص.

ويمكن تسمية الآية الكريمة بآية (أَنْبَاهُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ) ولم يرد لفظ
أسماءهم في القرآن إلا في هذه الآية وعلى نحو متكرر، فجاء فيها مرتين، وتلك آية
وخصوصية في هذه الآية تدل على موضوعية هذه الواقعة، وشرف آدم عليه
السلام بين الخلاق.

وهو إعجاز إضافي لهذه الآية، وشاهد على موضوعية
تعليم وإخبار آدم للملائكة بالأسماء، وما فيه من الأسرار
والمضامين القدسية التي تدل على منزلة الإنسان بين
الخلائق، ومقام آدم بين الملائكة والذي توارثه الأنبياء،
ويتعاهده المسلمون بأداء الفرائض والعبادات، وعمارة
المساجد، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ
لِلنَّاسِ﴾^(١) وتعاهد المسلمين لهذه المرتبة بتقوى الله سبحانه.

الآية سلاح

تكشف الآية مراحل العز والإكرام في خلق الانسان لتكون حجة علينا في الشكر لله ووراثه العلم، وتثبت تخلف أهل الكفر والنفاق. وتبين الآية عظيم المنزلة التي نالها آدم، وأنه لم ينلها بسعيه، بل بفضل الله تعالى وما علمه إياه، لمنع الغرور عند الإنسان، وحثه على اللجوء إلى الله عز وجل.

لقد تولى آدم حال خلقه في الجنة مسؤولية تعليم الملائكة الأسماء وفيه شاهد على قيام الإنسان بوظائف الخلافة أحسن قيام، ولا عبرة بالمفسدين الذين تلاحقهم آيات التنزيل بالذم والتوبيخ والإنذار، لتكون عاقبتهم النار وبئس المصير، وذكرت الآية علم الله تعالى بأربعة أمور:

الأول: غيب السماوات.

الثاني: غيب وأسرار الأرض.

الثالث: ما يظهره ويعلنه الملائكة.

الرابع: ما يخفيه الملائكة.

وفيه إشارة إلى علم الله تعالى بما سوف يفعله الإنسان مطلقاً، وفعله الصالح منه والطالح، وهو لا يتعارض مع موضوع الخلافة، وإستحقاق المؤمنين لها.

ومن إعجاز الآية أنها لم تتضمن تعليم آدم للملائكة الأسماء فلم يقل الله تعالى "يا آدم علمهم الأسماء" بل قال سبحانه ﴿أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ وجاء متعباً لهذا الشرط إنباء آدم للملائكة بالأسماء من غير إبطاء ولا إستعلاء ولا إستكبار بل بصيغة الإخبار عنها وما فيها من الإمثال، أما تعليم الأسماء أصلاً فجاء من عند الله إلى آدم.

وتبين الآية جانباً من الصلة بين الإنسان والملائكة وأنها إبتدأت بموضوع العلم وإخبار آدم الملائكة بالأسماء التي علمه الله تعالى، ترى هل من

﴿٢٠٤﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

نسبة بين إخبار آدم الملائكة بالأسماء وبين نزول الملائكة بالوحي على الأنبياء.

الجواب نعم، فقد أراد الله عز وجل أن تكون الصلة بين الملائكة والانسان قائمة على العلم والإمتثال للأوامر الإلهية ليتلقى كل طرف مع الثاني العلوم والتبليغ بالقبول والرضا، فمع أن سكن الملائكة في السماء فإنهم يعرفون الأرض وعلموا بمن سيكون خليفة فيها.

ومن شأن الملوك والسلاطين أنهم إذا بعثوا والياً أو حاكماً في بلد أن يلتقوا به ويوصوه بما يجب عليه فعله، فهل يشبه هذا الفعل خلق الله عز وجل آدم وتعليمه الأسماء، وإختباره في إخبار الملائكة عنها، الجواب لا، وهو قياس مع الفارق، فالله عز وجل يجعل آدم مؤهلاً للخلافة وهو سبحانه قادر على أن يخلقه في الأرض ويرزقه الأهلية للخلافة من ساعة خلقه، وليس ثمة مسافة بين الله وبين خليفته، وقد شرفه الله الأنبياء بالوحي والتزليل.

والله سبحانه لطيف بالملائكة والناس وأراد أن يرى الملائكة بديع خلقه، ويتعظ الناس مما دار بين الله تعالى وبين الملائكة في خلافة الإنسان في الأرض، لتكون هذه الآيات مدرسة عقائدية تساهم في إصلاح السرائر، ورسوخ معاني الإيمان في النفوس، وحرص المسلمين على المبادرة إلى فعل الصالحات واجتناب المعاصي والسيئات.

مفهوم الآية

من مفاهيم الآية الإخبار عن إحراز الإنسان للعلوم والمعارف الإلهية، وفيه مدح وإكرام له ليكون دعوة لشكر الله تعالى واجتناب توظيف العلم في الجحود والمعصية والضلالة .

وفي الآية ثناء على مقام الربوبية وبيان لإحاطة الله تعالى بأسرار الكون وخفايا الأمور، والنوايا والمقاصد الظاهرة والباطنة.

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿٢٠٥﴾

فالإنسان الذي خلق وفي عالم غير عالمه، يتولى مسؤولية إخبار وإطلاع الملائكة، ولا يكون متعلماً إلا من عنده تعالى، وهذا شرف عظيم ينفرد به الإنسان من بين الخلائق، وفيه مسؤولية إضافية، فإلى جانب أمانة الخلافة تحمل آدم أعباء العلم وتبليغه، فاذا قام بإخبار الملائكة وهدايتهم إلى أسماء الأعيان والمسميات الحاضرة أمامهم، فالأصل أن ينذر الإنسان نفسه لتبليغ الدعوة إلى الله والإنقطاع إلى عبادته تعالى شكراً له تعالى على النعم الواردة في هذه الآيات وهي:

الأول: خلق آدم.

الثاني: بعث الروح فيه.

الثالث: إختياره خليفة من ساعة خلقه.

الرابع: مباهاة الملائكة به.

الخامس: تعليمه الأسماء.

السادس: تولي آدم إخبار الملائكة بالأسماء.

السابع: حضور آدم إظهار الملائكة عجزهم عن معرفة الأسماء، وهذا العجز جاء من باب المثال، فقد أعلنوا حصر علمهم بما علمهم الله أي انهم لم يعلموا فلسفة وأسرار خلق آدم وإختياره خليفة في الأرض، مع حدوث القتل والظلم بين الناس.

لقد أراد الله عز وجل لخلق آدم مناسبة لإعلان إنفراده تعالى بعلم الغيب وإحاطته بشؤون الخلائق كافة، وجاء ذكر السماوات والأرض كوعاء ظاهري معلوم للخلائق، ولبيد خلقهما وما فيهما من العلوم التي يطل علينا العلم الحديث بكنوز وأرقام مذهلة عنها بين الحين والآخر.

ومن آيات الخلافة لآدم انه لاقى التأديب والتعليم حال خلقه ليتنفع من الدروس والعبر التي جاءت في هذا الحوار الملوكوتي وتفضل الله سبحانه بتعليم آدم والملائكة، ورجوع الجميع إليه تعالى لينهلوا مما يتفضل به عليهم.

﴿٢٠٦﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

وفي الآية مسائل:

الأولى: إن الله عز وجل تفضل على آدم وعلمه الأسماء، وفيه وجوه:
الأول: تلقي آدم عليه السلام التعليم من الله عز وجل من غير واسطة،
وتلك آية من الإكرام والتفضيل.

الثاني: العموم في تسمية الأسماء فلم تقل الآية ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ﴾^(١)،
من غير إطلاق، بل بينت الآية إطلاقه بسور الموجبة الكلية (كلها).
الثالث: تعقب التعليم لتحدي الملائكة بما عند آدم عليه السلام من
العلوم.

الثانية: أصبح الإنسان عالماً من أول ساعة خلق فيها.
الثالثة: في الآية حث للإنسان للرجوع إلى الله وهو الغني الكافي لعباده.
الرابعة: تدل الآية على أن الإنسان كائن محتاج، وأن الله عز وجل هو
الكافي له في قضاء حوائجه.
الخامسة: تبين الآية كرم الله تعالى وأنه الغني الذي يكفي عباده
حوائجهم.

السادسة: نصرة الله عز وجل للإنسان بالاحتجاج على الملائكة.
السابعة: عجز الملائكة عن معرفة الأسماء التي عرضها الله عز وجل
عليهم.

الآية لطف

تبين الآية أن تعليم الله تعالى آدم الأسماء له غايات عديدة لا تنحصر
بموضوع الخلافة في الأرض بالأصالة، بل يشمل إخبار الملائكة عنها ليكون
هذا الإخبار شاهداً على منزلة آدم، والمسؤوليات التي يتحملها الإنسان في
الأرض.

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿٢٠٧﴾

فبعد أن تعلم آدم الأسماء جاء الأمر الإلهي له بإخبار الملائكة عنها، ولم يتأخر آدم بل أسرع في الإمثال لأمر الله تعالى لسمع منه الملائكة الأسماء برضا وقبول.

وفي الآية حث للمسلمين على توارث علوم النبوة وتدارس آيات القرآن وما فيها من المعاني والدلالات، وتكرر الضمير "هم" المتصل أربع مرات في كلمات متتاليات، ولكن معناه على وجهين:

الأول: جاء إثنان منها لإرادة المسميات.

الثاني: جاء إثنان لخصوص الملائكة.

وقوله تعالى ﴿إِنبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ أي أنبئ الملائكة بأسماء هؤلاء المسميات، وفهم آدم المقصود وبادر إلى الإجابة بأحسن جواب، وفيه دعوة للمسلمين للإرتقاء في المعارف الإلهية، وحسن الإجابة بما يكون حجة لهم وتثبيتاً لمعالم الإيمان في الأرض.

وتدل خاتمة الآية على تعدد الدلالات في الآية منها:

الأول: أن خلافة الإنسان في الأرض، وهو الأنفع والأحسن للخلائق.

الثاني: أن الله عز وجل جعل الانسان خليفة في الخلق، ليرى الملائكة

والخلائق بديع صنع الله وعظيم قدرته.

الثالث: وجود صلة بين أهل السماوات وأهل الأرض.

الرابع: ليس من مخلوق يأتي غير الإنسان خليفة في الأرض أو ينافس

الإنسان فيها، بدليل قوله تعالى فيما تقدم ﴿خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾^(١).

الخامس: خلافة الإنسان في الأرض ليست دائمة، بل هي مؤقتة

ومتجددة، فلكل إنسان أجل وعمر معين، لتكون الإقامة في الأرض مقدمة

وموضوع للحساب والجزاء.

إفادات الآية

من الآيات التي يفخر بها الإنسان في النشاطين تلقيه النعم المتعددة عند خلقه ومنها:

الأول: تلقي آدم التعليم ساعة الخلق من غير فترة، ومن غير واسطة أحد من الناس.

الثاني: قيام آدم بتعليم أهل السماوات.

الثالث: سكن أبوي الناس جميعاً الجنة ، ليكون من الكلي الطبيعي الذي يفخر به كل إنسان ويكون حجة عليه ، وتذكيراً بلزوم إتخاذ الدنيا مزرعة للآخرة .

ويتصف تعليم آدم بالأمانة بأمور :

الأول: وهو من أهم شرائط الخلافة، فقد علم الملائكة كما علمه الله عزوجل من غير تبديل أو تغيير، كما يدل التعليم على الحافظة وحسن الذاكرة عند آدم، وانه لم يقم بخلط الأسماء أو وضع بعضها بدل بعض بل جاء بها كل اسم مطابقاً لمسماه كما هو ظاهر التقرير في الآية، وهي عناوين تشريف إضافية للإنسان.

لقد كان هذا التعليم إختباراً لآدم، وإظهاراً لبديع صنع الله تعالى وشاهداً على عظيم قدرته تعالى، وتوكيداً للملائكة باهلية آدم للخلافة وإمثاله لأمره تعالى بالإستجابة في تعليم الملائكة من غير بخل أو شح في العلم والرزق الكريم.

الصلة بين أول وآخر الآية

جاء الخطاب الإلهي في هذه الآية إلى آدم ليكون حجة وشاهداً على ما رزقه الله من العلم والمعرفة، فبعد أن خاطب الله تعالى الملائكة بصيغة السؤال، وردهم بأدب العبودية ورجاء تفضل الله تعالى عليهم، جاء الأمر الإلهي إلى آدم عليه السلام بأن يخبر الملائكة بالأسماء، ويعلمهم ما لم

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿٢٠٩﴾

يكونوا يعلمونه من قبل ليكون أول تكليف يتوجه إلى آدم هو القيام بتعليم الملائكة .

وجاء أول موضوع بعد خلق آدم هو تلقيه التعليم من عند الله تعالى، وجاءت هذه الآية ليكون آدم معلماً للملائكة مع انه خلق خليفة في الأرض، ليكون كل من فردي التعليم معجزة لآدم وإكراماً له ولذريته من بعده.

وهل يستقرأ من هذه المسألة أن الملائكة تتعلم من الأنبياء والمؤمنين مع بعد المسافة بين السماء والأرض، فيأخذون منهم الدروس والعبر والموعظة، الجواب لا يبعد هذا إذ يرون حيث يأذن الله لهم لإجتهد المؤمنين في العبادة والصلاح والتقوى، وتلاوتهم الآيات.

وإذ أختتمت الآية السابقة حكاية عن الملائكة في تضرعهم إلى الله تعالى ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾^(١)، فمن علم وحكمة الله تعالى أن يعلم الملائكة بالأسماء، ويكون علمهم بها بواسطة آدم عليه السلام ، وفيه آية تدل على طاعة وإمثال آدم لأمر الله تعالى، وحفظه للأسماء التي تلقاها، فضلاً عن الله، وقدرته على تعليمها، وهو من بديع صنع الله تعالى في الإنسان، وفيه مسائل:

الأولى: انه حجة على ذرية آدم في لزوم تعاهد الكتب السماوية، وما علمه الله تعالى للأنبياء.

الثانية: فيه ثناء على المسلمين لجهادهم وسعيهم في سلامة القرآن من التحريف، ومنع يد التغيير أن تصل اليه.

الثالثة: بيان معجزة في خلق الإنسان، وقدرته على النطق والحفظ.

﴿٢١٠﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

الرابعة: في الآية رد على قول الملائكة ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ فإن العلم سيكون مصاحباً للأنبياء وأهل التقوى.

الخامسة: في الآية إشارة إلى توارث بني آدم للعلم والتعلم، وهو حرز من غلبة الجهالة والغفلة عليهم، وواقية من فعل السيئات.

السادسة: الآية مدرسة عقائدية تبين للناس عظيم منزلتهم بين الخلائق فساعة خلق أبيهم آدم قام بتعليم الملائكة الأسماء، بلطف وفضل من عند الله، ومن رشحات هذا التعليم فوز الناس إلى يوم القيامة بالفخر، والمؤمنين خاصة بالعز، قال تعالى ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(١).

السابعة: جاء تعليم آدم الأسماء للملائكة في الجنة وهي مسكن الملائكة.

الثامنة: لزوم تعاهد بني آدم للعلم. لقد جاء تعليم آدم للملائكة والمسميات معروضة عليهم، في آية تدل على إقتران إكرام آدم بخلقه، وفيه حجة على الناس بلزوم الشكر، وجاء الشرط الثاني من الآية لبيان الحكمة الإلهية في خلق آدم وتعليم الله له الأسماء، وتعليم آدم الأسماء للملائكة.

فتضمنت الآية قولين لله تعالى:

الأول: أمر إلى آدم بأن يعلم الملائكة الأسماء.

الثاني: خطاب إلى الملائكة جاء حجة وموعظة، وهو على أقسام:

الأول: إن الله تعالى يعلم غيب السماوات، وليس في هذه الآيات ما يدل على إخبار الله تعالى للملائكة بأنه يعلم غيب السماوات وما فيها من الأمور والأسرار التي لا يعلمها غيره، ومن غيب السماوات عدم معرفة الملائكة للأسماء إلا بعد أن أمر الله آدم بتعليمهم بها.

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿٢١١﴾

الثاني: إن الله عز وجل جعل في الأرض خليفة ، وهو سبحانه يعلم ما سيؤول إليه أمر الخليفة والناس الذين يرجعون جميعاً إلى الله تعالى، ويقفون بين يديه للحساب، قال تعالى ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾^(١).

الثالث: إن الله عز وجل يعلم ما يظهر الملائكة من القول والفعل، ومنه ما يعلنونه وما يدور بينهم من القول وذكر الطبرسي قولاً وهو: أن الله أراد علم (ما تبدون) من قولكم (أجعل فيها من يفسد فيها)^(٢)، ولكن الآية أعم لأن قولهم هذا جاء بصيغة الخطاب والسؤال لله تعالى، ولا بد أن الغيب غيره ، وإذا كانت لهذا القول مقدمات وأسباب فهي من علم الغيب الذي يعلمه الله تعالى.

الرابع: لقد أحاط الله تعالى علماً بما يكتُم ويخفي الملائكة، وذكر قولان في تفسيره:

الأول: مرت الملائكة على آدم قبل أن تنفخ فيه الروح، ولم تكن رأت مثله، فقالوا لن يخلق الله خلقاً إلا كنا أكرم منه وأفضل عنده.

الثاني: إخفاء إبليس المعصية، قال علي بن عيسى : وهذا ليس بالوجه لأن الخطاب للملائكة ، وليس إبليس منهم ، ولأنه عام ، فلا يخص إلا بدليل^(٣).

والآية أعم خصوصاً وانها جاءت للاحتجاج على الملائكة بقول سابق قاله لهم الله تعالى ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ﴾ وإذ ابتدأت الآية بالأمر الإلهي لآدم بالكلام وبما يدل على التعلم ونيل المعارف على نحو الهبة من عند الله

(١) سورة النمل ٦٥ .

(٢) مجمع البيان ١/٧٩.

(٣) مجمع البيان ١/٧٩ .

﴿٢١٢﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

جاءت خاتمة الآية بالاحتجاج على الملائكة، لتكون بداية وخاتمة الآية الكريمة مقدمة لدعوة الملائكة للسجود لآدم وعوناً لهم في الإمثال لهذا الأمر من غير تردد وخلاف، فمن فضل الله تعالى على الملائكة أن يبين لهم أهلية آدم للخلافة، وأن الله عز وجل يعلمه، ويهديه لما فيه صلاح الأرض وعمارتها بالإيمان.

والوضع في علم الأصول هو إختصاص اللفظ بالمعنى ونوع إرتباط بينهما، بحيث يختص اللفظ بذات المعنى، وجاءت هذه الآية لتخبر عن التقاء أهل الأرض وأهل السماء في معرفة الأسماء كلها، وهي بلغة واحدة مما يدل على أن الواضع للأسماء هو الله تعالى، وبما أن لغة الملائكة هي العربية ، فالأقوى أن اللغة التي علّم الله تعالى بها آدم عليه السلام الأسماء هي العربية .

التفسير الذاتي

بعد تسييح وتقديس الملائكة لله عز وجل، تفضل الله عز وأمر آدم بأن يقوم بإخبار الملائكة عن الأسماء التي سألمهم عنها لبيان منزلة آدم، وما عنده من العلم والحافظة بفضل من الله كشاهد على أهليته للخلافة في الأرض، ومن بين خمس وعشرين مرة ذكر فيها اسم (آدم) في القرآن وردت خمس مرات بقوله تعالى ﴿يَا آدَمُ﴾ ثلاثة منها خطاب من الله عز وجل.

الأولى التي جاءت في هذه الآية.

والثانية والثالثة في سكن آدم ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾^(١)، وفيه إكرام إضافي لآدم عليه السلام ليكون هذا السكن مقدمة لخلافته في الأرض.

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿٢١٣﴾

أما الرابعة فقد جاءت في تحذير آدم وحواء من إغواء إبليس ، قال تعالى ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوُّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾^(١) ، وجاءت الخامسة حكاية عن إبليس ﴿قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَذُنُكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكُ لَيْلَى﴾^(٢).

وفي كثرة الخطاب الإلهي لآدم إكرام له، وإرشاد وتأهيل وتأديب في وظائف الخلافة، وجاءت آية واحدة في تحذير آدم من إبليس، وآية واحدة في إغواء إبليس لآدم.

وتلك آية في نظم القرآن لم يرد في القرآن لفظ (انبتهم) إلا في هذه الآية ليكون أول عمل لآدم هو تعليم أهل السموات ليكون شاهداً على تعاهد المؤمنين للعبادة في الأرض، وتضحيتهم في سبيل الله، بما يكون درساً وموعظة للخلائق.

ولما أنبأ آدم عليه السلام بالأسماء أقام الله عز وجل الحجة على الملائكة وذكرهم بأنه أحاط بكل شئ علماً، وأنه لا تخفى عليه خافية، وقد جاء الإخبار عن علم الله تعالى على قسمين:

الأول: عام وهو على شعبتين:

الأولى: علم الله عز وجل بما هو خفي في السموات.

الثانية: يعلم الله غيب وأسرار الأرض، وما فيها من الكنوز.

الثاني: علم الله عز وجل بأحوال الملائكة، وهو على شعبتين:

الأولى: علم الله بما يظهر ويقول الملائكة.

الثانية: إحاطة الله علماً بما يخفي ويكتُم الملائكة في نفوسهم، وفيما

بينهم وإضمار إبليس المعصية.

وهل موضوع خلافة آدم من علوم الغيب، الجواب نعم، لذا رد

الملائكة بلغة الإستفهام، وهو على وجوه:

(١) سورة طه ١١٧.

(٢) سورة طه ١٢٠.

﴿٢١٤﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

الأول: خلافة آدم من غيب السماوات.

الثاني: الخلافة من غيب وأسرار الأرض.

الثالث: العنوان الجامع وأن خلافة آدم من غيب السماوات والأرض معاً.

والصحيح هو الثالث من وجوه:

الأول: خلق آدم في الجنة.

الثاني: لغة الحوار التي ذكرتها هذه الآية بين الله والملائكة.

الثالث: سجود الملائكة لآدم وإمتناع إبليس إستكباراً.

الرابع: سكن آدم وحواء الجنة، قال تعالى ﴿اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾^(١).
الْجَنَّةُ^(١).

الخامس: مجئ الأمر الإلهي لآدم وحواء بالهبوط من الجنة ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا﴾^(٢).

لقد أراد الله عز وجل لسكن آدم وحواء أن يكون مقدمة لسكن المؤمنين الدائم في الجنة، وليسعى الإنسان في سبل الهداية التي تقوده للرجوع إلى الجنة للبث الدائم فيها من غير إغواء من إبليس، أو احتمال الإخراج منها.

ولكن ما هي الصلة بين تعليم آدم الأسماء، وبين الإحتجاج بعلم الله عز وجل بغيب السماوات والأرض، والجواب أن خلق آدم خير محض ونفع بين أهل السماوات والأرض، وأن فتق لسان آدم ونطقه يكون وسيلة وآلة لذكره لله، وإعمار الأرض بالعبادة، ومع وجود أهل الفساد بين

(١) سورة البقرة ٣٥.

(٢) سورة البقرة ٣٨.

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿٢١٥﴾
الناس، فان الإيمان والعلم هما اللذان يسودان في الأرض، ويمنعان أرباب
الفساد من الإستحواذ والشيوع والدوام.

من غايات الآية

في الآية مسائل:

الأولى: بينت الآية أن آدم يتكلم بلغة مخصوصة ويعرف العلة بين الاسم
والمسمى، يعلم مسميات الأسماء التي سأله الله تعالى بها، وتدل الآية على
عظيم النعمة التي رزقه الله عز وجل من تعليم اللغة، ومعرفة صيغ
التخاطب والتفاهم بين الناس.

الثانية: الآية شاهد على عظيم علم الله تعالى، وانه سبحانه يعلم ما
يظهره وما يكتمه الإنسان وغيره من الخلائق، وأن خلق الإنسان وجعله
خليفة في الأرض من علم الله عز وجل الأزلي.

الثالثة: مبادرة آدم لطاعة الله عز وجل، وإستجابته له، فحالما أمره بأن
يخبر الملائكة بأسماء الأشياء والأعيان قام بإخبارهم من غير تردد، لذا جاء
مدح المسلمين والثناء عليهم من بين الناس لإستجابتهم لأوامر الله تعالى
وتصديقهم بالقرآن، الذي أنزله وهو الجامع للعلوم، وإتباعهم للنبي محمد
صلى الله عليه وآله وسلم الذي بعثه الله رحمة للعالمين.

الرابع: تشريف آدم عليه السلام بكلام الله عز وجل، وأمره تعالى له
بالإحتجاج على الملائكة.

الخامس: دعوة المسلمين للإحتجاج وإقامة البرهان على وجود الصانع
ولزوم عبادته ، وفي التنزيل ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ.....﴾^(١).

(١) انظر الجزء ٥٨ من التفسير الذي يختص في تفسير الآية ١١٠ من سورة آل عمران.
عمران.

﴿٢١٦﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

السادس: من الإعجاز في الآية أن آدم لما أخبر الملائكة بالأسماء، تفضل الله عز وجل بالاحتجاج على الملائكة بما هو أعم وأوسع من موضوع تعليم الأسماء، وأخبرهم بأنه سبحانه يعلم ما ظهر وما خفي من أمور السماوات والأرض، وفيه إشارة إلى الناس بأن الملائكة محتاجون إلى العلم، وأن الإحاطة بأسرار السماوات والأرض مما إختص الله به لنفسه، قال تعالى ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا﴾^(١).

التفسير

قوله تعالى ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾

بعد الإعتذار الجميل من الملائكة وإظهارهم العجز تفضل الله تعالى وإتماماً للحجة والبرهان فأمر آدم بإخبار الملائكة بأسماء الذوات التي تعذر عليهم معرفتها، وفي صيغة العموم الإستغراقي في الأسماء تتجلى معالم التفضيل، والمعلم أشرف من المتعلم وأعلى منه رتبة ولو بخصوص هذا الفرد الذي يتعلق به التعليم.

لقد كان الملائكة محتاجين إلى هذه الحصة من العلم والدرس العقائدي لأن الله عز وجل قد سألهم عن أسمائها، ثم أنه تعالى لم يعلمهم بالأسماء مباشرة كما علم آدم وإنما تعلموها بالواسطة.

فإن قلت: ما هي الصلة بين تعلم الأسماء والخلافة في الأرض وسفك الدماء خاصة أن المقصود بالفساد وسفك الدماء هو غير شخص آدم.

قلت: في الآية بيان وإخبار بأن الله عز وجل يختار ما يشاء وليس للملائكة إلا التسليم، وأنه تعالى حينما يصير ويجعل خليفة في الأرض يجعل عنده من المؤهلات ما يستحق معها التصدي للمسؤولية والمقام، أي أن الله عز وجل يرزقه ويعطيه إلى أن يجعل الملائكة تقرر بأفضليته وشرفه

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿٢١٧﴾

وصلاحه للخلافة وإن كان المتلبس بذلك الإستحقاق فرداً واحداً في زمان ما، وإقرار الملائكة بشرف آدم وأهليته للخلافة جزء من فلسفة الخلق وأسرار التكوين ولوازمه.

ويأتي التحقيق في موضوع السجود وكيفيته وهو علم شريف، وهناك أمر مهم آخر وهو الصلة بين خلق آدم والملائكة، ولماذا إقترن بسجود الملائكة له، وما هي علته والنتائج التي تترشح عنه في كل زمان في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

وفي الآية إخبار عن التشريف الإلهي وما يترشح عن درجة الخلافة من العز بين الخلائق، وما يترتب عليها من الوظائف الشرعية بتحصيل العلم ونشر الإيمان، وتثبيت كلمة التوحيد في الأرض.

وما يقترفه بعض الناس من الشر والفساد والقتل بغير حق لا يضر في أصل موضوع الخلافة إجمالاً.

إنها آية في التفضيل لم يؤد الناس ما تستوجه من الشكر والسعي في دروب المعرفة للإكرام والإستعداد للتعلم، ولإكتساب المعارف الذي زرعه الله في النفوس، فجاءت الآية للبيان والتذكير والشكر.

لقد أظهرت الآية أهلية آدم ﷺ لتلقي الأمر الإلهي والقيام بالتعليم وهو عنوان فاعلي يدل على التشريف وعلو الرتبة، فمع بدايات خلق آدم أصبح مصدراً للعلم بفضل الله تعالى وبما آتاه من العلوم.

وبذا يظهر الأثر والشأن العظيم للرزق الروحي ، وتقدمه على الرزق المادي، والضمير في (انبيهم) يعود للملائكة، أما الضمير في (أسمائهم) فيعود إلى هؤلاء في قوله تعالى ﴿ إِنبِئْهُمْ بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ ﴾.

(وأخرج إسحاق بن بشر وابن عساكر عن عطاء قال: لما سجدت الملائكة لآدم نفر إبليس نفرة ثم ولى مدبراً وهو يلتفت أحياناً ينظر هل عصى ربه أحد غيره. فعصمهم الله ثم قال الله لآدم: قم يا آدم فسلم عليهم فقام فسلم عليهم وردوا عليه، ثم عرض الأسماء على الملائكة فقال

﴿٢١٨﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

الله للملائكة: زعمتم أنكم أعلم منه {انبتوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين، قالوا سبحانه} إن العلم منك ولك، ولا علم لنا إلا ما علمتنا، فلما أقرؤا بذلك {قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم} فقال آدم: هذه ناقة، جمل، بقرة، نعجة، شاة، فرس، وهو من خلق ربي. فكل شيء سمي آدم فهو اسمه إلى يوم القيامة، وجعل يدعو كل شيء باسمه حين يمر بين يديه حتى بقي الحمار وهو آخر شيء مر عليه. فجاء الحمار من وراء ظهره فدعا آدم: أقبل يا حمار. فعلمت الملائكة أنه أكرم على الله وأعلم منهم، ثم قال له ربه: يا آدم ادخل الجنة تحيا وتكرم، فدخل الجنة فنهاه عن الشجرة قبل أن يخلق حواء. فكان آدم لا يستأنس إلى خلق في الجنة، ولا يسكن إليه، ولم يكن في الجنة شيء يشبهه،

فالتقى الله عليه النوم وهو أول نوم كان، فانتزعت من ضلعه الصغرى من جانبه الأيسر، فخلقت حواء منه، فلما استيقظ آدم فجلس، فنظر إلى حواء تشبهه من أحسن البشر، ولكل امرأة فضل على الرجل بضلع، وكان الله علم آدم اسم كل شيء، فجاءته الملائكة فهنوه وسلموا عليه فقالوا: يا آدم ما هذه؟ قال: هذه امرأة قيل له: فما اسمها؟ قال: حواء فقيل له: لم سميتها حواء؟ قال: لأنها خلقت من حي. فنفخ بينهما من روح الله فما كان من شيء يتراحم الناس به من فضل رحمتهما^(١).

بحث كلامي

الآية من عظيم النعم على الإنسان لما تحكيه من أفضليته وإرتقائه العلمي منذ أول خلقه، إنها بشارة الإبداع العقلي وتأسيس العلوم، وتحقيق الإكتشاف على يد الإنسان، أن ما يحدث في هذا الزمان من الإبتكارات والثورة التقنية والمعلوماتية في عالم الإتصالات والمواصلات، إنما هو ببركة هذه الآية وفرع منها.

(١) الدر المنثور ٧٩/١.

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿٢١٩﴾

فمهما كانت علوم الملائكة فإن الله عز وجل جعل عند الإنسان العقل قائداً علمياً وسبباً للهداية والرشاد، فما يتوصل إليه العقل من العلوم هو من عند الله موضوعاً ومحمولاً وتيسيراً وتوفيقاً، وما يحصل من الإستعمال الضار للعلوم والصناعات فهو لأسباب عرضية وشرور ييئها إبليس بأفات الحسد والبغضاء والكفر والأخلاق الذميمة التي تنشط في حالات الفراغ العقائدي وإلا فإن الأصل هو الملازمة بين العلم والهداية، ليكون الإكتشاف سبباً في رسوخ الإيمان.

وتصلح مناسبة تعليم آدم الأسماء للملائكة أن تكون (عيد العلم العالمي) بتعيين يوم مناسب والمدار فيها على الموضوع وقديسيته، ولأن تعليم آدم الأسماء لأنها عنوان الفخر والتحدي الإنساني لسائر المخلوقات، للأولوية وفحوى الخطاب بعد أن قام بتعليم الملائكة وهم أشرف الخلائق.

وجاء ذكر تعليم الله عز وجل الأسماء لآدم لمنع الغرور عند الإنسان وما يتولد عنه من الجحود والكفر والإستعلاء، فهذه النعمة تصلح أن تكون أيضاً مناسبة للتواضع والخشوع لله تعالى، وتوظيف العلم لأغراض الصلاح وتسخيرها للمنافع العامة، وتؤكد الآية فضل الله تعالى على الإنسان فلم يخلقه فقيراً بل رزقه الثروة والغنى فاعطاء العلم وكسائه من نوره، وجعله مرشداً للحق وهادياً للإسلام.

علم المناسبة

مع كثرة ورود مادة "نبأ" في القرآن فان قوله تعالى ﴿أَنبَأَهُمْ﴾ و﴿أَبَاَهُمْ﴾ لم تذكر في القرآن إلا في هذه الآية الكريمة، ويتعلقان بذات الموضوع وهو إخبار آدم عليه السلام للملائكة بأسماء الأنبياء بحسب ما علمه الله تعالى، وبعد أن علمهم آدم الأسماء أقام الله عز وجل عليه الحجة بتوكيد أهلية آدم للخلافة في الأرض بما علمه الله تعالى، ليكون هذا التعليم مقدمة

لأُمُور:

الأول: نزول القرآن الذي جعله الله (تبيانا لكل شيء) ^(١) وجامعاً لأحكام الحلال والحرام، وسبيل الهداية والتوفيق إلى مقامات الخلافة، والإصلاح في الأرض.

الثاني: نبوة آدم عليه السلام، وهبوطه إلى الأرض نبياً، لتبدأ عداوة الإنسان للشيطان بعداوة النبي آدم له، فيكون أسوة لذريته في لزوم معادة إبليس والتوقي والحذر منه.

الثالث: نزول الملائكة لنصرة المؤمنين في معركة بدر وأحد، فقد جاء الإخبار الإلهي عن نزول الملائكة مدداً للمؤمنين من غير أن يكون هناك احتجاج أو رد من الملائكة.

وقد ورد في القرآن قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُدُونُ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ ^(٢) في آيتين، وكلاهما في خطاب للمسلمين وإرشادهم إلى أحكام الشريعة وإعانتهم للإمتثال والعمل بمضامينها بصيغة الجملة الخبرية، أما هذه الآية فجاءت بصيغة الخطاب للملائكة من غير واسطة نبي، ويدل الجمع بين الآيات الثلاثة على عظيم منزلة المسلمين، وإن الله عز وجل يخاطبهم بذات اللغة التي يخاطب بها الملائكة وفيه دليل على حسن منزلتهم وشأنهم، وإرتقائهم في المعارك الإلهية، وفيه دعوة لهم لإصلاح السرائر.

وإستحضار حقيقة أن الله عز وجل مع المتحد والمتعدد منهم مما يستلزم خشيتهم منه، وحرصهم على أداء ما يدل على أهليتهم لوراثة الأنبياء وخلافة الأرض، وإجتناّب المعاصي وإرتكاب الذنوب.

قوله تعالى ﴿فَلَمَّا ابْتَاهُم بِأَسْمَائِهِمْ﴾

(١) سورة النحل ٨٩.

(٢) سورة المائدة ٩٩، النور ٢٩.

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿٢٢١﴾

تظهر الآية إستجابة آدم عليه السلام لأمره تعالى بالإخبار عن أسماء ما عجز الملائكة عن معرفته، وهذه الإستجابة وجه من وجوه الطاعة وعلى قاعدة نفي إجتماع النقيضين، فإن هذه الإستجابة تؤكد إنتفاء الرذائل الأخلاقية عن الخليفة، وأن وجود فرد تتجلى فيه خصائص الخلافة هو فيض منه تعالى، وموضوع للذكر والعبادة في الأرض، فاحتمال وجود أهل الضلالة والفساد في الأرض لا يصلح أن يكون مانعاً لبركة وجود أهل الإيمان فيها، وكل بحسابه وجزائه.

لقد أدرك الملائكة أهلية الخليفة للتعلم والتعليم مما يعني انه سيتعاهد الإيمان في الأرض ويورثه لمن بعده من أبنائه وذريته، فكما علم آدم الملائكة الأسماء فإنه سيعلم ذريته من بعده أحكام الشريعة وهكذا يتوارث الإنسان سنن التوحيد والعبادة في الأرض.

لقد خشيت الملائكة على الإنسان إذ يفتن بالدنيا، وينشغل في الأرض وأسباب المعيشة وعدم رؤية الآيات بالبصر وإدراكها بالحواس إلا بعد تدبر وتفكير مع ما عنده من الأخلاط وإجتماع النفس اللوامة والغضبية والشهوانية وبعده عن السماء وآياتها، بخلاف من في السماء الذي يرى الآيات، فلما أنبأهم إطمأنوا إلى أهليته للخلافة بمعنى إستعداده لتحمل مسؤولية حفظ الأمانة في الأرض وبقاء العبادة فيها ومحاربة الكفر والضلالة.

ولم يخبر آدم الملائكة إلا بأسماء بعض المسميات لإقامة الحجة والبرهان عن أهلية للخلافة بلباس التقوى، وفي عيسى عليه السلام وحينما تكلم بالمهد لم يخبر الناس بأسمائهم، ولو فعل لكان حجة دامغة ولكنه أكد عبوديته ودعا بني إسرائيل إلى عبادة الله وورد في التنزيل ﴿قَالَ أَنِي عَبْدُ اللَّهِ أَتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾^(١).

﴿٢٢٢﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

ويدل الإكتفاء بتعليم الملائكة بأسماء بعض المسميات على عدم خروج الملائكة عن صيغ الإيمان والطاعة ولم يحتاجوا من آدم تعليمهم التقوى والإنابة والرجوع إلى الطاعة ويمكن إستقراء مسألة منه وهي أن سؤال الملائكة كان لطلب البيان وتوكيد أهلية آدم للخلافة في الأرض وليس سؤالاً إنكارياً.

وتتجلى في آدم معاني العبودية والخضوع لله تعالى، وإجتنابه للمراء والجدل، فهو لم يتباه بأسماء الأعيان التي عرضت عليهم فأظهر علمه مع التواضع والأدب والبراءة من الحسد في حضرة القدس ، وهو من مصاديق تعليم الله عز وجل به، والشواهد العملية على أهليته للخلافة وما تستلزمه من طاعة الله.

لقد أكدت الآية على حقيقة وهي مصاحبة العلم للإنسان في الأرض، وجاء الأنبياء بالعلم، ثم تفضل الله تعالى بالقرآن ليبقى العلم يضيء الأرض في الليل والنهار ويقود الناس نحو الإيمان والإقرار بالربوبية لله تعالى، والعلم حرب على الجهل والشرك والضلالة.

قوله تعالى ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ أَنِي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾

الألف للتنبيه والإستفهام والإستحضار.

أي أن الله عز وجل يعلم ما غاب عن الملائكة من أسرار الكائنات وما جهلوه من ماهية الإنسان وخلقته التكوينية، وما سيفعله في الحياة الدنيا التي ستكون دار إمتحان وإبتلاء، وأن وظيفة المحتاج الذي لا يعلم هي السمع والإستجابة لله عز وجل الذي يعلم كل شيء.

وتظهر الآية فضل الإنسان في الكائنات، وقدرته على الإرتقاء في مراتب الكمال.

وتبين الآية اللطف الإلهي وما خص به الله الملائكة من الإكرام بالاحتجاج التأديبي الذي يتضمن دروساً في المعرفة الإلهية، وتدل على

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿٢٢٣﴾

استمرار تعليم الله تعالى للملائكة لأن خلق آدم وحده مدرسة في الإرادة التكوينية والتشريعية، ومعرفة الملائكة للأسماء بواسطة آدم مدرسة مستقلة في مراتب الكمال، وإرتقاء عقائدي وعلمي للملائكة.

ويتفرع علم مستقل عن كل اسم من هذه الأسماء فلا بد أنها لا تنحصر بمعرفة الاسم على نحو مجرد بل هي أشمل وأعم، وكل اسم فيه سر من الأسرار الملكوئية نال آدم أبو البشر شرف إخبار وإطلاع الملائكة عليها.

وتبين الآية إنحصار علم الغيب بالله تعالى، وهي تأديب لآدم عليه السلام وللناس من خلال القرآن، وتؤكد بأن علم الإنسان محدود ومتناهي وأنه محتاج لعلم الله تعالى، ويستطيع أن يغترف منه بالتقوى.

وقال الرازي: "إنه تعالى يعلم الأشياء قبل حدوثها، وذلك يدل على بطلان مذهب هشام بن الحكم" ^{(١)(٢)}.

والظاهر أن هشام بن الحكم لم يخالف قول عامة علماء المسلمين بأن الله يعلم بالأشياء قبل حدوثها، ومذهبه أن علمه تعالى عين ذاته، مات هشام في سنة تسع وتسعين ومائة بالكوفة في

(١) مفاتيح الغيب ٢/٢١٠.

(٢) هشام بن الحكم البغدادي الكندي مولاهم وكان مقيماً بالكوفة ومن اصحاب الإمام جعفر الصادق عليه السلام كما قال السيد المرتضى عن شيخه المفيد الذي قال عنه أيضاً: انه كان تقياً وروى حديثاً كثيراً.

وقد اظهر الإمام الصادق عليه السلام اكرامه لما دخل عليه في منى وهو غلام أول ما اختط عارضاه وقربه، ونقل انه كان يقول بالجسمية وأن الله جسم لا كالأجسام ولكنه رجع عن الجسمية وتاب إلى الله عز وجل اذ نهاه الإمام عنه، ولم يثبت قوله بالجسمية خصوصاً وأنه كان من المقربين للإمام عليه السلام ولم يزل غلاماً، وكان حاذقاً في علم الكلام وله مناظرات كثيرة تدل على تنزيهه مما نسب اليه وأبتلي به من حسد المنافسين .

﴿٢٢٤﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

أيام هارون الرشيد.



معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿٢٢٥﴾

قوله تعالى ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُدُونُ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾

في الآية مسائل:

الأولى : هل العطف في الآية من عطف الخاص على العام لمناسبة المقام، أو انه يدل على التعدد والمغايرة بينهما إتماماً لبيان الحجة، وظاهر الآية هو التعدد.

الثانية: يعلم الله تعالى سر الملائكة وعلايتهم، لا يخفى عليه من أمرهم شيء.

الثالثة: إن الله تعالى يعلم ما يضمه إبليس من المعصية والمخالفة، ولكن الخطاب موجه إلى الملائكة، وإبليس ليس منهم ولا قرينة على التخصيص.

الرابعة: يعلم الله عز وجل أنهم لا يكتُمون إلا التسليم والرضا بأمره تعالى.

لذا يمكن القول: أن الآية تتضمن قبولاً لإعتذارهم، وتوكيداً لعلمه تعالى بحقيقة قصدهم.

الخامسة: لقد صدق الملائكة في عبادتهم وخضوعهم لمقام الربوبية والتزموا بالمواظبة على التسييح، فجازاهم الله عز وجل بالقبول الفوري لإعتذارهم وثنائهم، وأن ذلك كله في علمه الأزلي.

السادسة: (روي عن الحسن أن الله تعالى لما خلق آدم مرت به الملائكة قبل أن ينفخ فيه الروح، ولم تكن رأت مثله قبل، فقالت: لن يخلق الله خلقاً إلا كنا أكرم منه وأفضل عنده^(١)، فزعم أن هذا الذي أخفوه في نفوسهم وأن الذي أبدوه قولهم ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾^(٢)).

وهذا القول كما يبدو لم يرفع، وظاهر الآية أعم، وتظهر فضل الإنسان

(١) أي أكرم من المخلوق الجديد، وأفضل عند الله عز وجل منه.

(٢) التبيان في تفسير القرآن ١/١٤٧.

﴿٢٢٦﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

في الكائنات، وقدرته على الإرتقاء في مراتب الكمال.

السابعة: روي عن الشعبي وعن ابن عباس وابن مسعود أن قوله تعالى ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُدُونُ﴾ أراد به قولهم ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ وقوله ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ أراد به ما أسر إبليس في نفسه من الكبر، وكيف انه أبى السجود.

ويفيد ظاهر الآية التذكير والإستحضار لإقامة البرهان والإستدلال، أي أن الله عز وجل يذكرهم بموثق أخذه عليهم، وعهد عهده إليهم، فهو سبحانه يعلم غيب السماوات والأرض وهو أعلم بالمصالح والغايات السامية في خلق آدم، وبما بيدي الملائكة وما يكتُمون، وردهم هذا يعلم به قبل حصوله ولا يمنع من إمضاء المشيئة الإلهية في الخلق والتقدير وليس لهم إلا الطاعة والإمتثال، فمن بركات خلق آدم أن الملائكة إتنفَعُوا وإستفادوا وإزدادوا علماً وخشوعاً لله عز وجل.

لقد جعل الله عز وجل آدم مدرسة في الإرادة التكوينية والتشريعية وكان خلقه موعظة ومناسبة لتجديد الخلائق بما فيها الملائكة الخشوع والخضوع لله عز وجل.

بحث بلاغي

قد تكون (ما) إستفهامية أو خبرية وقد تحمل المعنيين معاً، فيما لو وقعت بين فعلين تقدم عليهما علم أو دراية، ومنه هذه الآية، لقد كان خلق آدم آية إعجازية في الخلق والتكوين والكيفية ومناسبة للتأديب والتعليم وإظهار عجز أشرف الخلائق عن درك رحمة وبديع أمر الله عز وجل في الخلق، فقوله تعالى ﴿إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إشارة إلى إحاطته بكل شيء علماً وأنهم لم يطلعوا إلا على جزء قليل منه مما يستطيعون إدراكه.

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿٢٢٧﴾
لقد بدأ خلق آدم ﷺ بأن كان حجة وبرهاناً فالأولى أن يعتبر
الإنسان من آية خلقه ولما كان في أخبار الماضين عبرة وموعظة قال
تعالى ﴿كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(١)، فمن باب الأولوية
أن يكون خلق آدم وسجود الملائكة مع عظمتهم ورفع مقامهم وسمو
مرتبتهم موعظة وعبرة، وهو حجة على نفسه ، ودعوة له للإمتثال
للأوامر الإلهية التي جاءت بها الكتب السماوية ، والتي جاءت مجمعة
في القرآن، ولتكون تلاوة آياته وتعلمها شكراً لله تعالى على تعليم آدم
الأسماء.



قوله تعالى ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ الآية ٣٤

الإعراب واللغة

وَإِذْ: الواو حرف عطف، إِذْ: ظرف لما مضى من الزمن، قلنا: فعل ماضٍ، وفاعل، والجملة الفعلية في محل جر باضافة الظرف اليها. للملائكة: جار ومجرور.

اسجدوا: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو: فاعل، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول.

فسجدوا: الفاء عاطفة، سجدوا: فعل وفاعل.

إِلَّا: أداة إستثناء، إبليس: مستثنى، وفيه وجهان :

الأول : أنه مستثنى منقطع

الثاني : مستثنى متصل . وسيأتي بيان القولين بلحاظ التفسير.

أبى: فعل ماضٍ مبني على الفتح المقدر على الألف، والجملة الفعلية في محل نصب على الحال.

وَاسْتَكْبَرَ: الواو: حرف عطف، إستكبر: فعل ماضٍ معطوف على أبى، وكان: الواو: حرف عطف، كان: فعل ماضٍ ناقص، وأسمها ضمير مستتر تقديره هو.

من الكافرين: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر كان.

السجود: لغة الخضوع والتطامن والتذلل والإقياد، وفي الإصطلاح وضع الجبهة على الأرض عبادة وطاعة لله عز وجل.

وَإِبْلِيسَ: اسم عربي على وزن فاعيل أي يائس من رحمة الله، يقال أبلس: يأس ، وقيل انه اسم أعجمي.

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿٢٢٩﴾
والإباء: الترك والإمتناع وعدم الطاعة، ورفض الإستجابة.

في سياق الآيات

الآيات الكريمة وثائق سماوية في تكريم الإنسان جاءت في المقام خاصة لبيان حسن إمتثال الملائكة، والعتو والجحود الذي قابل به إبليس معاني الإكرام والتشريف لآدم، وتتضمن التذكير والموعظة بعد إظهار آدم عليه السلام الأهلية للخلافة.

لقد جاءت الآية الثلاثون بإخبار الله للملائكة بأنه جاعل في الأرض خليفة، ولم تذكر آدم بالاسم بل ذكرته الآية التي بعدها وبموضوع التعلم، ولكنه يدل على الخلافة، وأنه من وظائفها التي خلقه الله تعالى لها، وهي من مصاديق عبادة الإنسان لله تعالى لعمومات قوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِعِبَادُونِي﴾^(١).

فتعلم آدم للأسماء وإخباره الملائكة بها من عبادته لله تعالى، ليكون أول فعل فعله آدم هو عبادة محضة وبما يكون حجة وبرهاناً عند الملائكة وهم سكان السماوات وأشرف الخلائق.

وهل من صلة بين إخبار آدم الملائكة بالأسماء وبين سجودهم له، الجواب نعم، وتتجلى معاني الصلة باتحاد سياق الآيات وما في هذه الأخبار من الدلالة على منزلة آدم عند الله عز وجل، وجاء سجودهم طاعة لله تعالى، وبأمر خاص بالسجود كما يظهر في هذه الآية ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ فالسجود كان بأمر الله تعالى.

﴿٢٣٠﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

وجاءت الآية التالية للإخبار عن فضل الله تعالى بأمر آدم وحواء بالسكن في الجنة بعد أن سجد له الملائكة، ويختص آدم وحواء بالأكل من شجر الجنة لأن الملائكة لا يأكلون، وغذاؤهم التسبيح.

وبين سياق الآيات الإعجاز بمضامين القصة القرآنية من وجوه:

الأول: بيان وقائع حدثت في السماء لا يعلمها إلا الله تعالى.

الثاني: لم يعلم آدم عليه السلام ما جرى بين الله وبين الملائكة من الإخبار بمجعله خليفة ورد الملائكة، فجاءت هذه الآيات لتبين للمسلمين تلك الوقائع ، ولتكون عبرة وموعظة.

الثالث: لغة الإيجاز الإعجازية التي لم تخل بمضامين القصة، وكل كلمة منها تفتح آفاقاً من العلم ، وتدعو الى إستنباط المسائل والدروس مما فيها من وجوه الحكمة.

الرابع: رد الملائكة على الإخبار الإلهي بالسجود لآدم ثم ما لبثوا أن سجدوا له، ولم يأت سجودهم له إلا بعد أمور هي:

الأول: إقامة الحجة على الملائكة بعلم آدم، وهذه الحجة من عند الله ولا يقدر عليها آدم أو غيره من الخلائق، فلم يقم بعض الملائكة بأمر بعضهم الآخر بلزوم التسليم بخلافة الإنسان في الأرض لعدم وصول النوبة إليه ، ولعلمهم بأن الله عز وجل وحده القادر على إقامة الحجة على الملائكة والناس والخلائق أجمعين.

الثاني: إخبار الله تعالى للملائكة عن إحاطته علماً بكل شئ، وعجز الملائكة عن درك علمه.

الثالث: إقرار الملائكة بانحصار علمهم بما علمهم الله تعالى، وفيه تأديب للناس ، ومنع الغرور والطغيان في العلم، وحث لهم على الإقرار بأن كل ما يتوصلون إليه من العلم هو من عند الله، وأن تعددت الوسائط لأن مادة العلم هي العقل وفعل الإنسان ، وهما من فضل الله تعالى عليه.

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿٢٣١﴾

الرابع: إمتحان وإختبار الله تعالى للملائكة بأمر يسير وقريب منهم ، وهو وبسيط غير مركب ، وهو معرفة أسماء مسميات معينة، ويدل عليه ورود اسم الإشارة (هؤلاء) في الآية الكريمة.

ومن وجوه صلة هذه الآية بالآيات التالية إبتداء هذه الآية بقوله تعالى (وإذ قلنا) وإبتدأت الآية التالية بـ(وقلنا) مع إختلاف الجهة التي توجه لها كلام الله ، ففي هذه الآية توجه الخطاب إلى الملائكة ، وفي الآية التالية إلى آدم وحواء.

ترى لماذا جاء ظرف الزمن الماضي إذ في هذه الآية ولم يأت في الآية التالية ، الجواب لصيغة العطف بالواو الذي إبتدأت به الآية التالية وتقديره: وإذ قلنا يا آدم إسكن أنت وزوجك) ولكن هذا المعنى لا يمنع من إستقراء دلالات للتباين بين الآيتين بخلو الآية التالية من ظرف الزمن الماضي ومنها:

الأولى: سكن آدم وحواء الجنة على نحو مؤقت، وسوف يسكنان فيها على نحو الدوام، وعن ابن عباس قال: ما سكن آدم الجنة إلا ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس^(١).

وعن الحسن قال: لبث آدم في الجنة ساعة من نهار تلك الساعة مائة وثلاثون سنة من أيام الدنيا^(٢).

الثانية: سكن آدم وحواء الجنة نعمة مستديمة على الناس وإن إقطعت بهبوطهما إلى الأرض كما في قوله تعالى ﴿اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾^(٣).

الثالثة: جحود إبليس وإمتناعه عن السجود ليس حائلاً دون توالي النعم العظيمة على آدم وحواء، وكذا بالنسبة للناس فإن البلاء والعذاب

(١) الدر المنثور ١/ ٧٨.

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٢٣٧.

(٣) الآية ٣٦.

﴿٢٣٢﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

الذي ينزل بالكفار لا يكون برزخاً دون إتصال النعم والبركات على المؤمنين في أمصارهم وأشخاصهم وذرائعهم.

الرابعة: جاء قول الله عز وجل للملائكة بصيغة الأمر بالسجود وتعدى باللام، بينما جاء الخطاب الإلهي إلى آدم بصيغة النداء وما فيها من معاني الإكرام.

الخامسة: لا يسكن الجنة إلا من شاء الله وأمره بدخولها والإقامة فيها، ويحتمل دخول المؤمنين الجنة وجوهاً:

الأول: كفاية رجحان كفة العمل الصالح.

الثاني: تولي الملائكة الإذن والتصريح بدخول الجنة.

الثالث: لا بد من أمر الله عز وجل بخصوص كل فرد يدخل الجنة.

والصحيح هو الثالث، ويكون الوجه الأول والثاني في طوله، وكذا ما يتعلق بالشفاعة.

السادسة: بعد إختتام هذه الآية بالإخبار عن إستكبار وجحود إبليس ومعصيته الظاهرة لأمر الله عز وجل إبتدأت الآية التالية بإكرام آدم وحواء بالإقامة في الجنة، وفيه دلالة على إستدامة التضاد والتباين بين إبليس وكفره وبين آدم وتقواه .

فإن قلت جاء الأمر الإلهي لآدم بالسكن في الجنة إبتداء من فضل الله عز وجل، الجواب نعم، وهذا الفضل دليل على إكرام الله عز وجل له ولزوجه ولذريتهما.

لقد تضمنت هذه الآية أموراً:

الأول: الأمر الإلهي للملائكة بالسجود لآدم.

الثاني: إمتثال الملائكة وقيامهم بالسجود لآدم طاعة لله عز وجل.

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿٢٣٣﴾

الثالث: إمتناع إبليس عن السجود ، قال تعالى ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾^(١).

الرابع: ذم إبليس ونعته بالكفر، وفيه شاهد بأن المعصية فعل قبيح لا يتركه الله عز وجل سدى بل يذكره بالذم للتنبيه والإنذار، وهو من الشواهد على قوله تعالى في بيان إحاطة القرآن بالعلوم والوقائع ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾^(٢)، وتضمنت الآية التالية أموراً:

الأول: فضل الله عز وجل على آدم وحواء بالسكن في الجنة.

الثاني: إباحة التنعم والأكل في الجنة بإستثناء شجرة مخصوصة.

الثالث: الإنذار من الأكل من الشجرة لأنه ظلم بقوله تعالى ﴿فَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(٣).

والظلم هنا أعم من القضية الشخصية لأصالة الإطلاق ولترتب الأثر على الذرية لذا فمن إعجاز القرآن أن الآية التي بعدها نسبت سبب أكلهما من الشجرة إلى إبليس بقوله تعالى ﴿فَازَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾^(٤)، وفيه آية بعدم تحقيق الظلم من آدم، وأن أكله للشجرة لم يتعارض مع عصمة الأنبياء وإن كانت لنواميس السماء أحكامها الخاصة ، والأصل في الفعل والجناية النسبة إلى المباشر إلا مع القرينة التي تبين موضوعية السبب وأثره في إتيان الفعل وحصول الجناية.

(١) سورة الكهف ٥٠.

(٢) سورة النحل ٨٩.

(٣) الآية ٣٥.

(٤) الآية ٣٦.

﴿٢٣٤﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

ولكن هذه الآية تبين اللطف الإلهي على آدم وحواء ونسبت الفعل إلى المسبب.

إعجاز الآية

إلتزم الملائكة جانب الطاعة والإمتثال حين توجه لهم الأمر بالسجود مع ان موضوع الخلافة في الأرض قد لا يتعلق بهم مباشرة فحينما أمروا بالسجود بادروا إليه.

وفي الآية دلالات على أرقى مراتب التشريف الإلهي للإنسان ، وتجمع الآية بين فعلين متغايرين، طاعة الملائكة وجحود إبليس، وكان الواجب عليه أن ينصاع لأمره تعالى ويقتدي بالملائكة.

وقد وردت مادة (سجد) في مواضع كثيرة من القرآن، وجاءت بلفظ (اسجدوا) تسع مرات، أربعة في الأمر بالسجود لله تعالى، وخمسة في أمر الله عز وجل للملائكة بالسجود لآدم عليه السلام، مما يدل على موضوعية وأهمية سجود الملائكة لآدم، وما فيه من الإكرام للإنسان، والدروس والأحكام المستنبطة منه، ومبادرة الملائكة للسجود طاعة لله تعالى، وإقراراً بمنزلة آدم ، ويتجلى هذا الأقرار بوجوه:

الأول: ترشحه عن الأمر الإلهي بالسجود لآدم.

الثاني: مبادرة الملائكة الى السجود.

الثالث: الصلة بين جعل آدم خليفة وبين سجود الملائكة له، وإن لم ترق إلى الملازمة.

ويمكن تسمية هذه الآية بآية (اسجدوا لآدم)

الآية سلاح

الآية دعوة للطاعة والإمثال وإتباع النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي هو البشير المبلغ من عند الله من غير واسطة أحد من البشر، وتبعث الآية العز في نفس المسلم وتجعله يدرك عظيم درجته وشأنه، وفضل الله تعالى عليه.

وتبين الآية إنعدام الوسطة بين الإيمان والكفر، فأما الإستجابة وأما الكفر والجحود، وتظهر رجحان كفة الإيمان والإستجابة، ليرى آدم عليه السلام إمثال الملائكة لأمر الله تعالى، وفيه دعوة للناس للتخلي بالتقوى والمبادرة الى الإمثال لأوامر الله تعالى إقتداء بالملائكة، وشكراً لله تعالى لعظيم المنزلة التي نالوها منذ أول يوم خلق الله الإنسان.

وتمنع الآية من الغلو بالأنبياء فقد سجد الملائكة لآدم، وأسكنه الله في جنته، وكان عبداً مطيعاً لله تعالى شرفه بالخلافة والنبوة.

الآية لطف

في الآية إخبار عن إكرام الله عز وجل للإنسان والإنعام عليه بما لم ينله أحد من الخلائق من قبله، فلم يطلب الله السجود لآدم من بعض الخلائق والأعيان الموجودة في السماء والأرض ومنهم الجن.

بل توجه الأمر الإلهي بالسجود لآدم الى سكان السماء والمقربين من العرش وهم الملائكة، ويحتمل بخصوص الخلائق الأخرى وجهين:

الأول: شمولها بالسجود لآدم، بإعتبار ان ذكر الملائكة جاء من باب الفرد الأهم والأمثل، فيشمل الخلائق الأخرى من باب الأولوية القطعية.

الثاني: إنحصار الأمر بالسجود بالملائكة، وهو القدر المتيقن في المقام خصوصاً وانهم من أشرف جنس العقلاء، وجاء الأمر في السماء.

والصحيح هو الثاني، ولكن هذا الحصر لا يمنع من شمول أفراد من غير الملائكة معهم إذا ورد فيه دليل، كما في شمول إبليس بالأمر الإلهي

﴿٢٣٦﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

بالسجود لآدم مع انه ليس ملكاً بل هو من الجن، قال تعالى ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾^(١).

لقد بينت الآية حقيقة خالدة تدل على تشريف الإنسان وإكرامه من بين الخلائق، وتحتل الصلة بين سجود الملائكة لآدم وبين خلافته في الأرض وجوهاً:

الأول: الملازمة بين الخلافة في الأرض وبين سجود الملائكة لآدم، فالذي يكون خليفة في الأرض تسجد له الملائكة على نحو الإقتضاء .

الثاني : جاء سؤال الملائكة ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ لسؤال صلاح الناس وتنزيه الأرض من الفساد ، وفيه نكتة وهي علم الملائكة بقدره الله على نع الناس من الفساد ، والحيلولة بينهم وبين القتل بغير حق.

الثالث: لا ملازمة بين خلافة آدم في الأرض وسجود الملائكة بل ان السجود لآدم أمر مستقل.

الرابع: جاء سجود الملائكة لآدم إمتثالاً لأمر الله تعالى، إذ قال الله ﴿اسْجُدُوا لِلْإِسْمِ﴾.

الخامس: مبادرة الملائكة للسجود لآدم يدل على ان سؤالهم عن كيفية جعل الإنسان خليفة في الأرض لم يكن إحتجاجاً أو إنكاراً بل هو جزء من إقرارهم بقدره الله وعظيم سلطانه وانه سبحانه ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾^(٢).

(١) سورة الكهف ٥٠.

(٢) سورة الانبياء ٢٣.

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿٢٣٧﴾

والصحيح هو الثاني والثالث والرابع والخامس ، ولا دليل على الأول،
وتبين الآية لآدم والناس طاعة أهل السموات لله تعالى، في إشارة وإخبار
بان الجنة لا يدخلها إلا الذين يقيمون الصلاة، ويتعاهدون عبادة الله تعالى.

مفهوم الآية

تبين الآية منزلة آدم عليه السلام بين الخلائق وما أعد الله عز وجل للإنسان
من منازل الرفعة وما خصه به من سجود أشرف المخلوقات له، ولم
تستوف الدراسات الكلامية والفلسفية مسائل السجود لآدم وما له من
الدلالات العقائدية والمضامين الأخلاقية وهو من العلم الذي تفتح منه
أبواب ومسائل ومعارف متشعبة.

ومن مفاهيم الآية انها تدعو الى الإستجابة والإمثال في التكاليف من
غير إصرار على معرفة العلة او الحكمة في الحكم كما انها تحذر من المعصية
بما تبينه من قبح فعل إبليس ومعصيته أي ان الآية من آيات الاعتبار
والإنعاز، وتبين سوء أثر الإستكبار والأخلاق الذميمة وتنهى عن مضامين
الكفر والجحود.

وفي الآية مسائل:

الأولى: الإخبار عن أمر الله تعالى إلى الملائكة بالسجود لآدم فلولا
هذه لشك كثير من الناس بموضوع سجود الملائكة لآدم ولإختلف علماء
الكلام فيه إختلافاً كبيراً، فجاءت الآية رحمة بالناس، ودعوة إلى عبادة
الله وتعاهد الركوع والسجود ومضامين الخشوع لله تعالى وزجراً لهم عن
الجدال والخصومة.

الثانية: مبادرة الملائكة للإستجابة لأمر الله تعالى وقيامهم بالسجود لآدم
عليه السلام، وفيه شاهد بانهم لم يحتجوا ويعترضوا على جعل آدم خليفة
في الأرض ولكنهم سألوا للبيان والإطلاع وتزكية أنفسهم عند الله عز
وجل لمواظبتهم على العبادة والذكر.

﴿٢٣٨﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

الثالثة: ظهور معصية إبليس ليكون خلق آدم حجة على الخلائق، وكشفاً لرفعة وإيمان الملائكة، وفضحاً لإبليس، وإخباراً عن قبح فعله وذنبه.

الرابعة: بيان علة إمتناع إبليس عن السجود وهذه العلة ذاتية، وليس عن قصور بأهلية آدم للسجود له، خصوصاً وإن السجود له طاعة لله، بل لان إبليس كان من الكافرين.

الخامسة: لغة التبعض في موضوع الكفر والتلبس به شاهد على وجود الكافرين بين الناس والخلائق، ولزوم الحذر والحيطه منهم خصوصاً مع إحتجاج الملائكة بإفساد الإنسان في الأرض.

السادسة: في عدم سجود إبليس لآدم حجة وبيان عملي للملائكة، ورد آخر على إستفهامهم ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾^(١)، فكان الآية الآية تقول للملائكة: إبليس الذي هو معكم في الجنة ويتلقى الخطاب الإلهي في السجود لآدم مثلكم عصى وإستكبر وأبى طاعة الله.

ولم تؤثر هذه المعصية على إستحقاق الملائكة للسكن في السماء ونيل درجة القرب إلى الله تعالى والتشريف العظيم الذي يحظون به لأن المعصية شخصية وصادرة من إبليس على نحو الحصر والتعيين.

فكذا بالنسبة للإنسان وخلافة الأرض، ونيل المسلمين لمرتبة الخلافة وتعاهدهم لها فانه لا يؤثر عليهم فساد وإفساد الكفار.

ولم تظهر لنا الآيات تقييح الملائكة لفعل إبليس، او قيامهم بطرده من الجنة وليس لهم طرده، وعدم الإيجاد أعم من عدم الوجود، فلعلهم ذموا وطردوه من جماعتهم، إلا ان الآيات لم تذكر هذا الذم، بل ذكرت الآيات إخراج الله عز وجل له من الجنة وفيه شاهداً أن الجنة ملك خلق لله عز وجل، لامشيئة فيها إلا له سبحانه.

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿٢٣٩﴾

وأيهما أشد معصية إبليس لأمر الله وعدم سجوده لآدم، أم معصية الإنسان الذي يفسد في الأرض ويسفك الدماء، الجواب كل فرد منهما معصية، ولكن معصية إبليس أشد وأكبر، وهي نواة ومقدمة لقيام شطر من الناس بالمعصية، لما يقوم به إبليس من إغواء الناس واغرائهم بالمعصية. وكما تتضمن الآية حقيقة وهي الرد على الملائكة بوجود الكافر بين ظهرانيهم فانها تدل على أن إفساد الإنسان ليس بسبب كونه خليفة في الأرض، بل بخروجه عن معاني الخلافة وبوسوسة وإغواء إبليس له، وإذ أصر إبليس على الجحود، فان باب التوبة لم يغلق عن الإنسان إلى يوم القيامة.

إفادات الآية

في الآية تأديب للمسلمين وإرشاد لسبل الطاعة وحسن الإمثال بالأولوية، فاذا كان الملائكة إستجابوا للأمر بالسجود للمخلوق الجديد والتسليم بانه خليفة الله في الأرض، فأولى بالإنسان ان يسجد لله طاعة وشكراً وإمثالاً لأوامره، ولم يجعل الله سجود الإنسان إلا له سبحانه، وهذا تشريف إضافي للإنسان.

وتبعث الآية على النفرة من إبليس، وتبين التنافي وروح العداء بينه وبين الإنسان، وتحدد من يحب الإنسان وهم الملائكة اذ سجدوا له، ومن هو عدوه وهو إبليس الذي إختار الجحود والكفر.

وبلحاز كثرة منزلة الملائكة وموضوعية دعائهم للإنسان فان عداوة من طرد من رحمة الله وهو إبليس لن تضر الإنسان مطلقاً.

الصلة بين أول وآخر الآية

جاءت هذه الآية لبيان ما لآدم عليه السلام من المنزلة الرفيعة بين الخلائق، وتبدأ الآية بالأمر الإلهي المتوجه إلى الملائكة جميعاً بالسجود لأمر الله، فهذه الآية لم تخرج عن نظم الآيات السابقة ولكنها تبين الدليل على الشأن العظيم الذي جعله الله تعالى لآدم.

ومن الإعجاز ما تدل عليه هذه الآيات من الرحمة الإلهية بالملائكة إذ جاءت هذه الآية بأمر الله تعالى إلى الملائكة بالسجود لآدم فلم يأت هذا الأمر إلا بعد إقامة الحجة على عظيم شأن آدم بتلقيه التعليم من الله، وقيامه بتعليم الملائكة الأسماء، وما في هذا التعليم من المنافع العظيمة، ومع توجه الأمر الإلهي إلى الملائكة جاءت الإستجابة والإمتثال متعقبة له من غير إبطاء أو تردد، فليس من سؤال إستنكاري في المقام.

فحين أخبر الله عز وجل الملائكة عن جعل خليفة في الأرض قالوا ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾^(١)، مع ان الخليفة بعيد عنهم، وسكنه في الأرض، وهم يسكنون في السماء ولن يصلهم منه ضرر، ولكن حينما أمرهم الله تعالى بالسجود لآدم بادروا إلى الإمتثال والإستجابة، وتلك آية تدل على طاعة الملائكة لله تعالى، وانهم لا يفعلون إلا ما يأمرهم سبحانه.

فتتضمن الآية الثناء والمدح للملائكة، وتدعو الناس الى إكرامهم الى تعلم آداب العبودية والإمتثال لأوامر الله تعالى، فاذا كان الملائكة بسجودهم لآدم بأمر من الله، فانه سبحانه أكرم بني آدم فلم يجعل سجودهم إلا له، فلا يجوز السجود لغير الله سواء سجود عبادة أو تعظيم، فوضع الإنسان جبهته على الأرض بقصد الخضوع والخشوع لا يصح إلا لله

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿٢٤١﴾

تعالى، وتلك كرامة للإنسان، ومن مصاديق الخلافة، إذ خص الله تعالى الإنسان، وجعل سجوده له سبحانه على نحو الخصوص، وهي منزلة عظيمة بان يعلم الإنسان ماهية ومعاني السجود وانه لا يصح إلا لله، ويأتى به بقصد القربة والطاعة له سبحانه.

وبعد ان بينت الآية الأمر الإلهي للملائكة بالسجود لآدم أكدت أنهم إمتثلوا جميعاً لأمر الله وبادروا الى السجود ، وفي آية أخرى قال تعالى ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ ♦ إلا إبليس أبى ﴿^(١)﴾.

وبينما جاءت الآية في مدح الملائكة وإكرام آدم، وبيان عظيم قدرة الله، ذكرت الآية إبليس بصيغة الذم من وجوه:

الأول: رفض إبليس الإمتثال لأمر الله بالسجود لآدم.

الثاني: انه إستكبر وإستعلى بغير حق، وقد جاءت آيات أخرى ببيان وجه إستكباره بانه قال، ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُمْ مِنْ طِينٍ﴾ ﴿^(٢)﴾.

الثالث: نعت إبليس بالكفر والجحود.

ولعل في نعت إبليس بالكفر عندما أبى السجود لآدم إخباراً عن حقيقة وهي ان الناس خلقوا على الفطرة والإيمان وان الكفر يأتيهم على نحو عرضي، والآية الكريمة موعظة لآدم وحواء وذريتهما، وتحذير لهم من وجوه:

الأول: الحيلة والحذر من إبليس.

الثاني: إجتنب المعصية والإمتناع عن الإمتثال لأمر الله.

الثالث: بيان القبح الذاتي والعرضي للكفر، ان وصف إبليس بالكفر بصيغة الماضي ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ إشارة الى صدور الإمتناع عن

(١) سورة الحجر ٣٠-٣١ .

(٢) سورة الأعراف ١٢ .

﴿٢٤٢﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

السجود من الكفر والإقامة على الجحود، بخلاف الملائكة الذين ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾^(١).

التفسير الذاتي

ورد لفظ ﴿قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ﴾ أربع مرات في القرآن كلها في الأمر بالسجود لآدم عليه السلام، وفيه آية في إكرام آدم، وبيان عظيم منزلته بين الملائكة في أول ساعات خلقه كما تذكر هذه الآية إمتناع إبليس من بين الملائكة عن السجود لآدم، وللملائكة وظائف عظيمة في السماوات، وهي منقطعة إلى العبادة والتسبيح.

وجاء إخبار الله عز وجل لها بخلق آدم وإمثالها للأمر الإلهي بالسجود له شاهداً على حسن عبوديتها وطاعتها لله عز وجل، إذ يخلق الله عز وجل خلقاً ليكون خليفة في الأرض، ولكنه لم يهبط لها إلا بعد أن يسجد له الملائكة، ليكون آدم الخليفة الذي نال مرتبة سجود الملائكة له.

وجاءت الآية بوصف الملائكة بحال واحدة وهي السجود وكان السجود والإمثال أمر بسيط وسهل قريب، فحينما أخبر الله الملائكة عن إتخاذ خليفة في الأرض أظهروا الإنكار بلغة الإستفهام، أما حينما أمرهم بالسجود فانهم بادروا إليه مع فيه من الإقرار بعظيم المنزلة والشأن الرفيع لآدم، وإذ جاء وصف الملائكة بأمر حسن ذاتاً وعرضاً، فإن الآية ذكرت إبليس بثلاثة صفات ذات قبح ذاتي وعرضي وهي:

الأولى: إنه أبى وإمتنع عن السجود، وأبى في المقام بمعنى ترك وإمتنع نقيض أجاب، وليس بمعنى الإباء بمعنى الكراهة والترف، قال تعالى ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾^(٢).

(١) سورة التحريم ٦ .

(٢) سورة التوبة ٣٢ .

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿٢٤٣﴾

وجاء لفظ (أبى) بصيغة الفعل الماضي سبع مرات في القرآن، ثلاثة منها في ذم إبليس، وأربعة في ذم الكفار والظالمين، وإمتناعهم عن سبل الطاعة والهداية.

الثانية: الإستكبار والأنفة بغير حق، لأن الخضوع لله واجب، لقد رفع إبليس نفسه إلى منزلة أكثر مما يستحقها، ونسي أنه عبد مخلوق لله عز وجل، وأن وظيفته الطاعة والإمتثال، والكبر والعظمة لله عز وجل، وينال العبد المنزلة الرفيعة والشأن بالطاعة لله عز وجل، كما في الملائكة فإنهم لم يختاروا إلا طاعة الله فبقوا في منازل الرفعة، وسكنهم في السماء بجوار العرش بفضل الله.

وهل الإستكبار متحد في معناه في المقام مع الإباء، وأنه من عطف البيان، أم أنه من عطف النسق، وإن الكبرياء غير الإباء.

الجواب هو الثاني لأن الأصل في واو العطف التعدد والمغايرة فيكون المعنى أبى السجود واستكبر عن طاعة الله، بلحاظ أن السجود لآدم ليس مطلوباً لذاته بل هو شاهد على الإمتثال لأمر الله عز وجل، وفيه إشارة إلى أن آدم سيواظب على السجود لله وطاعته والإمتثال لأوامره.

الثالثة: نعت إبليس أنه من الكافرين والجاحدين لنعمة الله عز وجل وتفضله بسكنه مع الملائكة في الجنة، بل أن توجه الخطاب له بالسجود لآدم نعمة أخرى من عند الله عز وجل.

وجاءت الآية بصيغة الفعل الماضي ﴿كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ وفيه شاهد على أن جحوده لم ينحصر بعمل الجوارح وإمتناعه عن السجود، بل أن الشك والريب يساوره ولو في الأمر الإلهي بإتخاذ آدم خليفة في الأرض، والحكمة منه.

لذا تراه يسعى في إغواء بني آدم لإظهار أن الإنسان غير مؤهل للخلافة في الأرض، ولمنعه من إعمارها بالذكر والتسييح، فجاء نزول القرآن ليجعل الأرض مظهراً من مظاهر قدرة الله عز وجل في إنقطاع أهل الإيمان

﴿٢٤٤﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

للتسبيح والذكر، ومع كثرة وشدة الإبتلاء بإبليس وإغوائه فإنه لم يذكر في القرآن إلا إحدى عشرة مرة منها تسع مرات في إمتناعه عن السجود لآدم، وهذه النسبة في موضوع واحد، تدل على أهميته وموضوعيته، ولزوم إستنباط المسائل والدروس منه.

وهذه أول آية في نظم القرآن يذكر فيها اسم إبليس، إذ جاء بعد أن ذكر الله عز وجل الملائكة وأخبر عن خلق آدم وإتحاذه خليفة في الأرض، وقيامه بتعليم الملائكة، الأسماء، ليكون هذا التعليم حجة على إبليس، ودعوة له للإمتثال لأمر الله عز وجل بالسجود له، ولما أبى السجود جاءت هذه الآية بنعته بأنه من الكافرين، لأنه لم يتخذ من تعليم آدم الملائكة الأسماء عبرة وموعظة ولم ينتفع منه كدرس ولطف إلهي كما إنتفع الملائكة .

وورد لفظ (الكافرين) ثلاثاً وتسعين مرة في القرآن، منها مرتان ﴿كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾^(١)، وكلاهما في إبليس وذمه.

وفي لفظ إبليس وجهان:

الأول: إنه اسم أعجمي معرب، وإستدل عليه الزجاج وغيره بإمتناع صرفه.

الثاني: أنه عربي مشتق من الإبلّاس وقال العجاج :

يا صاح هل تعرف رسماً مكرساً

قال نعم أعرفه وأبلّسا^(٢) .

وعلى هذا القول يكون عدم صرفه لإستثقاله، ولأنه اسم نادر وليس له نظير عند العرب، وتنفّر الناس من التسمية به .

(١) سورة ص ٧٤ .

(٢) مجمع البيان ٨١/١ .

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿٢٤٥﴾

وكان أبو بكر السراج يرد على القول في إبليس أنه لفظ عربي، وإن إسحاق من أسحقه الله تعالى إسحاقاً، وأيوب من أب يؤب، وإدريس من الدرس ونحوها بأنه كمن (زعم أن الطير ولد الحوت) ^(١).

ولكنه قياس مع الفارق، لإتحاد جنس الألفاظ، واختلاط الألسن في الأزمنة المتفاوتة، والأصل في اللفظ القرآني عربيته، وإقتباسه من لغة العرب قال تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ ^(٢)، ولا يحكم على اللفظ بأنه أعجمي إلا بالقرينة والأمانة الصارفة، وحتى اللفظ الأعجمي قد يكون في الأصل عربياً، وأخذته الأمم الأخرى من العرب ثم عاد إليها بالقرآن ليكون من عمومات قوله تعالى ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ ^(٣) مجئ الألفاظ العربية المندثرة والمستعارة من الأمم الأخرى في القرآن، وفيه حجة وشاهد على حفظ القرآن للغة العربية.

ترى لماذا ذكرت الآية قصة إبليس ومعصيته، ولم تكتف بذكر طاعة الملائكة وسجودهما لآدم، الجواب من وجوه:

الأول: إن الله عز وجل هو القوي القاهر لعباده.

الثاني: تحذير آدم وزوجه من إبليس.

الثالث: جعل الناس في حيلة ويقظة من إغواء إبليس.

الرابع: ترغيب الناس بمحاكاة الملائكة في طاعة الله، ولغة التخفيف

عنهم، فهو لم يطلب من الناس السجود لغيره، بل أمرهم بالسجود له. وكان إبليس مواظباً على السجود لله، ولكن الله سبحانه سخط عليه لأنه لم يسجد لآدم لما في هذا السجود من طاعة لله عز وجل، أما الإنسان فإنه لم ولن يسجد إلا لله عز وجل.

(١) مجمع البيان ٨١/١ .

(٢) سورة يوسف ٢ .

(٣) سورة يوسف ٣ .

﴿٢٤٦﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

وجاءت عقوبة إبليس على أقسام:

الأول: عقوبة عاجلة بالخروج من الجنة، قال تعالى ﴿اَخْرِجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾^(١).

الثاني: العقاب المصاحب لأيام الحياة الدنيا، قال تعالى ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾^(٢)، بالإضافة إلى ما يلحق إبليس من الإثم بسبب إغوائه لفريق من بني آدم^(٣).

الثالث: جزاء المعصية الخلود في العذاب يوم القيامة.

من غايات الآية

تتضمن الآية في غاياتها مسائل عديدة منها:

الأولى: إخبار الإنسان عن عظيم منزلته عند الله.

الثانية: لزوم شكر الإنسان لله عز وجل على ما خصه به من الكرامة والإكرام.

الثالثة: إدراك بني آدم لحقيقة سجود الملائكة لأبيهم آدم، ومن الآيات ان الناس جميعاً يعلمون منزلة الملائكة عند الله.

الرابعة: لم يأت سجود الملائكة لآدم من عند أنفسهم بل ان الله عز وجل هو الذي أمرهم بالسجود لآدم عليه السلام.

الخامسة: تحذير المسلمين خاصة، والناس عامة من إبليس، وكيفية ومضامين هذا التحذير آية من عند الله، اذ انه يظهر عداوة إبليس لله وللناس، وانكشف هذه العداوة من أول خلق آدم عليه السلام، وهي نعمة

(١) سورة الأعراف ١٨ .

(٢) سورة الحجر ٣٥ .

(٣) انظر سورة الحجر ٣٨-٣٩ .

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿٢٤٧﴾

عظيمة تفضل الله عز وجل بها على الإنسان اذ جعله يعرف عدوه ويتوقى منه من حين خلقه.

فمن الآيات ان بداية الإنذار من إبليس لم تكن في الكتب المنزلة لاحقاً بل بدأ التحذير والإنذار من أول خلق آدم عليه السلام ويتجلى هذا التحذير بوجوه:

الأول: معصية إبليس لأمر الله تعالى فان رؤية آدم للملائكة والخلائق مطيعين لله دعوة له ولحواء وأولادهما بالتزام الطاعة لله تعالى والنفرة المطلقة من المعصية، بينما جعلت معصية إبليس الإنسان يعلم بوجود من يعصي الله، وينفر من المعصية وصاحبها.

وليس لهذه السببية أثر سلبي على حياة الإنسان، بل هي تحذير من إبليس ومكره ، وكانت سبباً لإحتراز أهل الإيمان من المعصية وأسبابها، والتوقي من إبليس وشروعه.

الثاني: الإخبار عن علة معصية إبليس وهي كفره وجحوده بقوله تعالى ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ أي أن عدم سجوده لم يكن أمراً ابتدائياً ومستقلاً بل هو فرع ونتيجة لكفره، وفيه تحذير للمؤمنين من إبليس، ومن الكفار مطلقاً.

الثالث: التنبيه والتحذير من العناد والإستكبار.

السادسة: دعوة المسلمين الى الإمتثال للأوامر الإلهية، وأداء الفرائض والعبادات، واذا كان إبليس عصى الله عز وجل بأمر السجود لآدم ، فان المسلم يقوم بالسجود لله تعالى في صلاة الفريضة كل يوم أربعاً وثلاثين مرة بلحاظ سجدتين في كل ركعة.

﴿٢٤٨﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

السابعة: بيان فضل الله عز وجل على الإنسان في إكرامه، وإخبار الناس بأن المسلمين هم الذين تعاهدوا الشكر لله، وحصنوا أنفسهم من إغواء إبليس، وأخذ الحيلة والحذر منه، قال تعالى ﴿امْطُؤْا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوًّا﴾^(١).

التفسير

قوله تعالى ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾

تحكي الآيات مجتمعة ومنفردة منزلة الإنسان السامية وما انعم الله عز وجل عليه به من التكريم، وإن الله تعالى خلقه بيده ثم تفضل عليه بالتشريف بالخلافة في الأرض، ويبلغ هذا الإكرام في هذه الآية غايته حيث يأمر الله عز وجل الخلق الكريم من الملائكة لإظهار الخضوع والتطامن لآدم عليه السلام باعتباره خليفة الله في الأرض.

ولا تنحصر علة هذا السجود بتعليم الأسماء أو شخص آدم وحده بل هي أكبر، فهي شاملة لموضوع الخلافة في الأرض والمسؤوليات الجسام الملقاة على عاتق الإنسان من بين الخلائق، كما تظهر الآية عظيم قدرة الله وإرادته في خلقه، وتدعو إلى إستخراج وجوه الحكمة من هذا السجود لأن الله سبحانه لا يفعل إلا الأمر المتقن.

وتبين الآية النعم الإلهية العظيمة على الناس جميعاً، وفيه حجة وتذكير بلزوم عبادة الله تعالى، ولا تتقوم العبادة إلا بالسجود لله تعالى طاعة وخضوعاً له سبحانه .

وهل يصح السجود لله تعالى شكراً له سبحانه لأنه أمر الملائكة بالسجود لآدم عليه السلام، الجواب نعم ، فتأتي القصة القرآنية لتبين فضل الله تعالى على الإنسان، وللتقاء أهل السماوات والأرض في طاعة الله، والقيام بالسجود والخضوع له سبحانه، ولم يأت الأمر الإلهي بالسجود

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿٢٤٩﴾

لآدم إلى فرد واحد من الملائكة بل جاء لهم جميعاً، وهو ظاهر الآية مما يدل على المنزلة الرفيعة لآدم إذ نفخ الله تعالى فيه من روحه، وجعل هذا النفخ علة لإكرامه بسجود الملائكة له وسكنه في الجنة هو وزوجه، وليكون سجودهم له مقدمة لإكرامه في إقامته القصيرة معهم وبعد هبوطه إلى الأرض، وترشح هذا الإكرام على الصالحين والمسلمين من ذريته إلى يوم القيامة.

ومن الآيات عدم مجئ الأمر الإلهي للملائكة إلا بعد أن إحتج الملائكة على موضوع جعل خليفة في الأرض بمسألة الإفساد فيها، ليكون الأمر والإستجابة له حجة عليهم بأن ضلالة شطر من البشر لا تمنع من موضوع الخلافة، وإن الله تعالى سيجازي الذين أحسنوا بالثواب والأجر العظيم، ويجازي المفسدين في الأرض الذين يسفكون الدماء بالخلود في الجحيم. وهل كان الأمر الإلهي بسجود الملائكة لآدم إختباراً لهم ، الجواب لا، فقد جاءت الآيات بمدحهم والثناء عليهم ، وتوكيد إخلاصهم العبادة لله عز وجل .

ويعتبر سجود الملائكة لآدم عليه السلام بداية عهد جديد من الصلة بين الملائكة والناس في أفراد الزمان الطولية والعوالم المختلفة من وجوه عديدة منها:

الأول: سجود الملائكة لآدم بأمر من الله تعالى.

الثاني: إكرام الملائكة لآدم وحواء أثناء إقامتهما في الجنة، ورؤية الملائكة لأمر جديد في الجنة وهو وجود زوجين، والملائكة لا يتزوجون بل هم خلق عظيم منقطع إلى الله تعالى بالعبادة، وفيه دعوة للإنسان بأن يشكر الله تعالى على نعمة الزواج ، ويتعاهدها ويجعلها وسيلة لتثبيت معالم العبادة في الأرض.

الثالث: قيام الملائكة بالنزول بالوحي إلى الأنبياء، ومن الآيات أن الملائكة الذين ينزلون بالوحي هم من أسمى وأعظم الملائكة مما يدل على

قدسية الوحي، وشرف وظيفة الرسالة بالوحي.

الرابع: دعاء الملائكة للناس، وإستغفارهم لهم أيام الحياة الدنيا ، قال تعالى ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾^(١)، وصلاة الملائكة إستغفار ودعاء ، قال تعالى ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾^(٢).

الخامس: قيام الملائكة بوظائف مباركة في الأرض، ونقل البشارات وتهيئة مقدمات وأسباب تعظيم شعائر الله في الأرض، وإصلاح الأنبياء لأداء الرسالة، وإعانة المؤمنين في أحكام إتيان الواجبات وإجتنب المحرمات، فقامت الملائكة بنقل البشارة الى مريم بولادة عيسى ، قال تعالى ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾^(٣)، وفيه نكتة عقائدية، وهي بعث السكينة في نفس مريم ومنع طرو الشك عندها من ولادة عيسى من غير أب، وجعلها تحتز من تركه أو إهماله أو وصول الضرر إليه، وكذا نقل الملائكة لأمر الله تعالى لأم موسى ﴿فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي﴾^(٤)، كمقدمة لحفظ موسى عليه السلام وبعثه إلى بني إسرائيل بالرسالة، والآيات المعجزات التي جاء بها من عند الله.

السادس: قيام الملائكة بتوجيه اللعنة للمفسدين في الأرض، ووردت اللعنة مثلاً بخصوص الكفار الذين يموتون على الكفر، قال تعالى ﴿أُولَٰئِكَ

(١) سورة الأحزاب ٤٣ .

(٢) سورة الشورى ٥ .

(٣) سورة آل عمران ٤٥ .

(٤) سورة القصص ٧ .

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿٢٥١﴾

عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١﴾ وكذا وردت آية أخرى في قيام الملائكة بلعن الكفار الجاحدين الظالمين^(١).

السابع: نصره الملائكة للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين في ميادين القتال، ومحاربة الكفار والمشركين ، قال تعالى ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّلَكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ ﴾^(٢).

الثامن: دخول الملائكة على أهل الجنة بالسلام المبارك والبشرى ، قال تعالى ﴿ الْمَلَائِكَةُ يُدْخِلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾^(٣).

التاسع: تفضل الله تعالى وجعل الملائكة هم القائمون على النار، وعذاب الكفار فيها ، قال تعالى ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ﴾^(٤).

وبينت آية أخرى وظيفة هؤلاء الملائكة ، بقوله تعالى ﴿ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ ﴾^(٥).

ولم يذكر اسم آدم في آية الخلافة ، إذ ورد إخبار الملائكة بجعل خليفة في الأرض، وجاء الأمر بسجودهم لآدم في هذه الآية ، وفيه وجوه:

الأول: تسمية آدم بإسمه، وهي المرة الأولى التي يذكر اسم آدم في الخطاب مع الملائكة، وتدل الآية بالدلالة التضمنية على ان الله تعالى هو الذي إختار له هذا الإسم.

(١) انظر الآية ٨٧ من سورة آل عمران.

(٢) سورة آل عمران ١٢٤.

(٣) سورة الرعد ٢٣-٢٤.

(٤) سورة المدثر ٣١.

(٥) سورة التحريم ٦.

﴿٢٥٢﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

الثاني: لم يمنع إحتجاج الملائكة في موضوع الخلافة دون إنقطاعهم إلى التسييح والعبادة عن السجود لآدم عليه السلام، وقد سجدوا لآدم مرة واحدة طاعة لله تعالى، وهم عاكفون على التسييح والسجود لله دائماً وأبداً ، قال تعالى ﴿يَسْبُحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾^(١).

الثالث: توجه الأمر الإلهي الى الملائكة بالسجود لآدم لبيان منزلة آدم بين الخلائق، وتوكيد طاعة الملائكة لله تعالى، وعدم ترددهم في السجود لآدم عليه السلام ، والإقرار بمنزلته، وتعاهد إكرام المؤمنين من بني آدم، ونصرتهم.

قوله تعالى ﴿فَسَجَدُوا﴾

بيان لإستجابة الملائكة لأمر الله تعالى، وموضوع الأمر بالسجود أكبر كثيراً من الإخبار عن إتخاذ خليفة في الأرض، إذ ان الإخبار لا يحتاج الى إستجابة او إظهار للرضا، نعم كان هذا الإخبار مقدمة كريمة لموضوع السجود ومناسبة تتضمن اللطف والرحمة في تهيئة حال الإستعداد والقبول لدى الملائكة بالإذعان والمبادرة الفورية للسجود من غير تردد او إستفهام او تأخير.

ترى ماذا يعني هذا السجود، إنه طاعة لله وإمثال لأمره، وتكريم لمن شاء الله عز وجل ان يكرم من غير ان ينتقص من منزلة الملائكة شيء، بل يزداد مقامهم إرتقاءً في سلم العبادة والعلم إذ ان طاعة الله تعالى والإستجابة له أسمى منازل الإخلاص ، أي ان مرتبتهم إزدادت علواً بالسجود لآدم، لما فيه من مضامين الطاعة لله عز وجل، فكان سجودهم وتعظيمهم لآدم جزءاً من عبادتهم لله ، ودرساً له ولحواء وللناس جميعاً بلزوم طاعة الله والإمثال لأوامره.

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿٢٥٣﴾

وكان سجود الملائكة لآدم تنبيه وتحذير له من الأكل من الشجرة، وتلك آية في الصلة المباركة بين الإنسان وبين الملائكة إستدامت وإتصلت بنزولهم بالوحي .

بالإسناد عن شريك عن رجل عن عكرمة عن ابن عباس قال: إن الله خلق خلقاً فقال: إسجدوا لآدم، فقالوا: لا تفعل فبعث الله عليهم ناراً تحرقهم ثم خلق خلقاً آخر، فقال أني خالق بشراً من طين إسجدوا لآدم فأبوا فبعث الله عليهم ناراً فأحرقتهم، قال: ثم خلق هؤلاء، فقال: إسجدوا لآدم، فقالوا: نعم، وكان إبليس من أولئك الذين أبوا أن يسجدوا لآدم^(١).

والحديث ضعيف سنداً ودلالة.

وعن موسى بن جعفر عن آبائه عليهم السلام: "ان يهودياً سأل الإمام علياً عن معجزات النبي صلى الله عليه وآله وسلم في مقابلة معجزات الأنبياء عليهم السلام، فقال: هذا آدم أسجد الله له الملائكة فهل فعل بمحمد شيئاً من هذا.

فقال علي عليه السلام: لقد كان ذلك، ولكن أسجد الله لآدم الملائكة، فان سجودهم لم يكن سجود طاعة أو انهم عبدوا آدم من دون الله عز وجل، ولكن إعترافاً لآدم بالفضيلة ورحمة من الله له، ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم أعطي ما هو أفضل من هذا إن الله جل جلاله صلى عليه في جبروته والملائكة بأجمعها، وتعبد المؤمنون بالصلاة عليه فهذا زيادة له ياهودي".

فان قلت: كيف كان سجود الملائكة لآدم.

قلت: انه يحتمل وجوهاً:

الأول: هو الخضوع والتذلل وفق المعنى اللغوي.

﴿٢٥٤﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

الثاني: هو السجود بالمعنى الإصطلاحي والشرعي أي وضع الجبهة على الأرض وما شابهها طاعة لله تعالى.

الثالث: مسمى السجود وما يرمز إليه من حركة أو فعل.

الرابع: الإنقياد والإتباع والتسليم له بالعلم .

ولا تعارض بين هذه الوجوه للتباين في خلق الملائكة، وقد جاء السجود في القرآن بالمعنى اللغوي ، والأعم من وضع الجبهة على الأرض في دلالة على إعجاز القرآن.

ولا يمكن قياس سجود الملائكة لآدم على سجود المخلوقات الأخرى للإختلاف النوعي في الموضوع والحمول.

ومن الملائكة من سجد السجود بالمعنى الإصطلاحي بأن أصلحه الله لكيفية السجود لتأديب آدم وحواء ، ولما للأمر من أهمية ودلالات تجعله ينصرف الى الفرد الأهم والمناسب والمتبادر للأذهان وهو السجود وفق الإصطلاح الشرعي وتأييده النصوص ، ولأن الأمر قضية في واقعة، وتدل عليه نفس الآية بقوله تعالى ﴿فَسَجَدُوا﴾ مما يدل على عدم إرادة معنى الخضوع والخشوع المستديم

وكان سجود الملائكة في الجنة إلا أن تكون من جنان الأرض، والأصح أنه في السماء .

يمكن ان نطرح نظرية جديدة في علم الرجال، وهي تقسيم المرسل بلحاظ الوثاقة والضعف ورجال السند الى اقسام :

الأول: مرسل أعلى.

الثاني: مرسل متوسط.

الثالث: مرسل ضعيف.

والأول ما اذا كان راوي الإرسال الذي لم يذكر السند ثقة خصوصاً في الصدر الأول في الإسلام وأيام الصحابة والتابعين وكثرة المتقين، والثاني

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿٢٥٥﴾

الذي يرسل الحديث ممدوح.

والمرسل الضعيف هو الذي يكون راوي الإرسال مجهولاً أو ضعيفاً أو لم يوثق.

لقد أجمع المسلمون على ان سجود الملائكة لآدم كان سجود محبة وتكرمة ولم يكن سجود عبادة، وقال الجبائي وأبو القاسم البلخي وجماعة ان الله جعله قبلة لهم، فأمرهم بالسجود الى قبلتهم تعظيماً واکراماً.

وأشكل بعضهم على هذا القول باتخاذ آدم قبلة، لان الصلاة الى القبلة تتعدى بحرف الجر (الى) وليس اللام.

ولكن اللام قد تأتي مرادفة لحرف الجر (الى) كما في قوله تعالى ﴿كُلُّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾^(١)، أي إلى أجل.

كما ورد في شعر حسان بن ثابت:

ما كنت أعرف أن الأمر منصرف

عن هاشم ثم منها عن أبي حسن

أليس أول من صلى لقبلكم

وأعرف الناس بالقرآن والسنن^(٢).

وقال الإمام الرازي في الآية جواز القول صليت للقبلة بآية من القرآن

وبيتي الشعر أعلاه، قال (اما القرآن فقوله تعالى ﴿اقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾

والصلاة لله لا للدلوك، فاذا جاز ذلك فلم لا يجوز أن يقال صليت للقبلة)^(٣).

(١) سورة الزمر ٥.

(٢) مفاتيح الغيب ٢١٢/٣.

(٣) مفاتيح الغيب ٢١٢/٣.

﴿٢٥٦﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

ولكنه قياس مع الفارق، فالقرينة ظاهرة في الآية أعلاه لإرادة الزمان ووقت الصلاة وليس جهة القبلة، والزمان متحرك ومتجدد، وسمت القبلة موضع ثابت، وقد يكون إستعمال اللام ضرورة شعرية.

قوله تعالى ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ﴾

إمتنع إبليس من بين الملائكة عن السجود لآدم إمتناع معصية ، وليس جحوداً، لقد إعتقد إبليس أفضليته على آدم في أصل الخلقة ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَ مِنْ طِينٍ﴾^(١)، لذا ورد عن الامام الصادق عليه السلام : الإستكبار هو أول معصية عصي الله بها، قال عليه السلام: فقال إبليس: رب أعفني من السجود لآدم وانا أعبدك عبادة لم يعبدك بها ملك مقرب، ولا نبي مرسل، فقال جل جلاله لاحاجة لي في عبادتك، انما عبادتي من حيث أريد لا من حيث تُريد^(٢).

وورد في الحديث ان إبليس كان بانياً على عدم السجود لآدم اذا دُعي له أثناء مدة تصوير آدم، خصوصاً ان نفسه كانت تنازعه بروح الإستكبار، وحصر أسباب التفضيل بأصل الخلقة فقط، وغفل عن الضرورة تقتضي أولوية الطاعة، وتفويض الأمر إلى الله عز ووجل.

وبالإسناد عن أبي بصير عن الامام جعفر الصادق عليه السلام: ان أول من كفر بالله حيث خلق الله آدم كفر إبليس حيث ردّ على الله امره، وعن القمي: خلق الله آدم فبقي سنة مصوراً، وكان يمر به إبليس اللعين فيقول: لامر ما خلقت، وقال العالم عليه السلام: فقال إبليس لئن أمرني الله بالسجود لهذا لعصيته إلى أن قال ثم قال الله تعالى للملائكة أسجدوا لآدم فسجدوا فأخرج إبليس ما كان في قلبه من الحسد فأبى أن يسجد).

(١) سورة الاعراف ١٢.

(٢) تفسير علي بن إبراهيم ٤٢.

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿٢٥٧﴾

ولقد أضل إبليس جماعة إذ شكروا له رفضه السجود لآدم وقالوا أنه جعل السجود مختصاً به تعالى وسموه سيد الموحدين.

لقد كان إمهال إبليس مع معصيته دليلاً على سعة رحمة الله عز وجل وحلمه ووجود باب الإختيار، والمنزلة بين المنزلتين وفيه تأكيد على يوم الحساب، ولو شاء الله لوأد المعصية في الحال.

وأختلف في موضوع إبليس هل كان من الملائكة أم لم يكن منها. وروي عن ابن عباس وابن مسعود وابن المسيب وقتادة انه كان منهم لإستثنائه من جملتهم في هذه الآية.

وعن ابن مسعود في قوله تعالى ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾^(١)، أي كان خازن الجنة، وبالإسناد (عن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم جعل إبليس على ملك السماء الدنيا وكان من قبيلة من الملائكة يقال لهم الجن وإنما سموا الجن لانهم خزان الجنة وكان إبليس مع ملكه خازناً^(٢)).

وفي الحديث الشريف بيان لما لإبليس من الشأن والمنزلة بين أهل السماء قبل ان يهبط إلى الأرض لذا ورد عن ابن عباس أنه قال (إن إبليس كان من أشرف الملائكة وأكرمهم قبيلة وكان خازناً على الجنان وكان له سلطان سماء الدنيا وكان له سلطان الأرض).

وقال الطبري حدثنا ابن حميد قال حدثنا سلمة قال حدثنا المبارك بن مجاهد أبو الازهر عن شريك بن عبد الله بن أبي ثمر عن صالح مولى التوأمة عن ابن عباس قال إن من الملائكة قبيلة يقال لهم الجن، فكان إبليس منهم وكان يسوس ما بين السماء والأرض فعصى فمسخه الله

(١) سورة الكهف ٥٠.

(٢) تاريخ الطبري ٨١/١ .

شيطاناً رجيماً^(١).

وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال خلق الله عز وجل آدم بيده ونفخ فيه من روحه وأمر الملائكة فسجدوا له فجلس فعطس فقال الحمد لله فقال له ربه يرحمك ربك ائت أولئك الملائكة فقل لهم السلام عليكم فاتاهم فقال السلام عليكم فقالوا له وعليك السلام ورحمة الله ثم رجع إلى ربه عز وجل فقال له هذه تحيتك وتحية ذريتك بينهم فلما أظهر إبليس من نفسه ما كان له مخيفاً فيها من الكبر والمعصية لربه وكانت الملائكة قد قالت لربها عز وجل حين قال لهم ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾^(٢)، فقال لهم ربهم ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ تبين لهم ما كان عنهم مستترا وعلموا أن فيهم من منه المعصية لله عز وجل والخلاف لأمره^(٣).

بالاسناد عن الامام جعفر الصادق عليه السلام في حديث: (ف قيل له: كيف وقع الأمر على إبليس، وإنما أمر الله الملائكة بالسجود لآدم؟ فقال عليه السلام: كان إبليس منهم بالولاء ولم يكن من جنس الملائكة، وذلك ان الله خلق خلقاً قبل آدم وكان إبليس فيهم حاكماً في الأرض فعتوا وأفسدوا وسفكوا الدماء فبعث الله الملائكة فقتلوهم وأسروا إبليس ورفعوه إلى السماء وكان من الملائكة يعبد الله إلى أن خلق الله تبارك وتعالى آدم)^(٤).

وعن الإمام الصادق عليه السلام عن إبليس اكان من الملائكة او كان يلي شيئاً من أمر السماء؟ فقال عليه السلام: لم يكن من الملائكة وكانت الملائكة

(١) تاريخ الطبري ٨٢/١.

(٢) سورة البقرة ٣٠.

(٣) تاريخ الطبري ٩٦/١.

(٤) تفسير القمي ٣٦.

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿٢٥٩﴾

ترى انه منها، وكان الله يعلم انه ليس منها ولم يكن يلي شيئاً من أمر السماء ولا كرامة، فأتيه الطيار فأخبرته بما سمعت فانكر، وقال كيف لا يكون من الملائكة؟ والله يقول للملائكة: إسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس، فدخل عليه الطيار فسأله وانا عنده فقال له: جعلت فداك قول الله عز وجل: يا أيها الذين آمنوا في غير مكان في مخاطبة المؤمنين أيدخل في هذه المنافقون؟ فقال عليه السلام: نعم يدخلون في هذه المنافقون والضلال، وكل من أقر بالدعوة الظاهرة^(١).

وقال الحسن البصري وقتادة بان إبليس لم يكن من الملائكة وان الإستثناء في الآية (إلا إبليس) إستثناء منقطع، وبه قال المعتزلة، وأستدل بقوله تعالى ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾، ولان إبليس له ذرية والملائكة ليس لها ذرية لقوله تعالى ﴿أَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي﴾^(٢)، إلا ان يقال انه أهبط الى الأرض فصارت عنده الأهلية للذرية بدليل انه ليس في الجنة إنجاب ونسل.

وللفارق في أصل الخلق فإبليس مخلوق من النار، وفي التنزيل ﴿خَلَقْنِي مِنْ نَارٍ﴾^(٣) والملائكة مخلوقون من النور.

والقائلون بان إبليس من الملائكة تمسكوا بإطلاق هذه الآية ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ ولكن القرآن يفسر بعضه بعضاً وبعض الأخبار والنصوص مبينة للقرآن ولفارق الوجود بين الملائكة وإبليس في الإستجابة لأمر الله ، كما ان القواعد الكلية في تنزيه الملائكة تصلح

(١) الكافي ٨/ ٢٧٤.

(٢) سورة الكهف ٥٠.

(٣) سورة ص ٧٦.

﴿٢٦٠﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

للحكم بان إبليس ليس من الملائكة وهو المسمى في علم المنطق بالبرهان الإني ويعني الإستدلال من المعلول على العلة.

وروى مجاهد وطاووس^(١) عن ابن عباس انه قال: كان إبليس قبل ان يرتكب المعصية ملكاً من الملائكة إسمه عزازيل وكان من سكان الأرض، وكان سكان الأرض من الملائكة يسمون الجن ولم يكن من الملائكة أشد إجتهداً ولا أكثر علماً منه، فلما تكبر على الله وأبى السجود لآدم وعصاه لعنه وجعله شيطاناً وسماه إبليس^(٢)، وفي رواية كان إسمه الحارث.

وفي مجمع البيان في تفسير الآية قال: فقد جاء عن العرب ما يدل على انهم - أي الجن - لا يطعمون ولا يشربون، أنشد ابن دريد^(٣) قال أنشد أبو حاتم:

ونار قد حضأت بُعيدَ وهن
بدار ما أريدُ بها مقاما
سوى ترحيل راحلة وعين
أكالمها مخافة ان تناما
أتوا ناري فقلتُ منونَ انتم
فقالوا الجنّ قلتُ عموا ظلاما
فقلت إلى الطعام فقال منهم

(١) طاووس بن كيسان مولده في اليمن وأصله من الفرس، فقيه تابعي، أبى القرب من الملوك والأمراء، وكان يعظهم، مات حاجاً بمكة سنة ١٦٠.

(٢) مجمع البيان ٨٣/١.

(٣) ابن دريد محمد بن الحسن بن دريد الازدي (٢٢٣-٣٢١) هجرية من أئمة اللغة والادب.

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿٢٦١﴾

زعيمٌ يحسدُ الانسَ الطعاما

لقد فضلتُم بالأكلَ فينا

ولكن ذاك يعقبكم سقاما

فهذا يدل على أنهم لا يأكلون ولا يشربون لأنهم روحانيون^(١)
ولكن هذه الآيات من الشعر لا تصلح دليلاً على أن الجن لا يأكلون ولا يشربون، لأن المسألة تتعلق بعلم الكلام ولا حجة فيه لقول شاعر.
كما روي عن ابن عباس أنه قال إن الملائكة كانت تقاتل الجن فسي إبليس وكان صغيراً فكان مع الملائكة فتعبد معها بالأمر بالسجود لآدم فسجدوا ، وأبى إبليس فلذلك قال الله تعالى إلا إبليس كان من الجن^(٢).
وهذا الحديث معارض لما ورد عن ابن عباس بأن إبليس من الملائكة، إلا أن يقال بأن الجن ترقى بالإجتهاد في العبادة والنسك الى منزلة الملائكة والإنخراط في صفوفهم في الحياة أو بعد الموت، والأهلية للتسمية بإسمهم، وليس من إمارة تدل عليه لإختلاف السخية إلا ان يشاء الله، فقد يلحق بهم بالرياضة والنسك والإجتهاد في العبادة والإنقطاع اليها، والحق إبليس بالملائكة فضل ونعمة من الله عليه ، ولكنه جحدها ولم يشكرها.

لقد كان وجود إبليس بين الملائكة أمراً تقتضيه الحكمة الإلهية وهو سر من أسرار الخليفة، وبغض النظر عن سبب وأصل وجوده بين الملائكة فإن الملائكة وهم خلق روحانيون إستجابوا لأمر الله تعالى بالسجود لآدم، وتخلف إبليس عن الإستجابة، لتفتح صفحة من الإبتلاء والإفتتان على بني آدم.

(١) مجمع البيان ٨٣/١.

(٢) مجمع البيان ١٥٤/١.

﴿٢٦٢﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

قوله تعالى ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾

أي صار من الكافرين، كما في قوله تعالى ﴿وَقُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا * وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾^(١).

فجاء لفظ الماضي لإفادة الحاضر بلحاظ القرينة، والعرب توقع (كان) موقع (صار) لما بينهما من التقارب في المعنى لان (كان) لما إنقطع وانتقل من حال إلى حال.

(وقيل أراد كان في علم الله تعالى من الكافرين)^(٢) ولكن كل شيء حادث هو في علم الله، والآية في مقام الوصف البياني لفعل إبليس وحقيقته وأصوله.

والأصل في (كان) إرادة الزمن الماضي، وربما صدر من إبليس قبلها ما يفيد الكفر والجحود بالنعمة.

وتمسك بعضهم بهذه الآية وقال بان كل معصية كفر، وفيه مسائل:

الأولى: هذا القول خلاف إجماع المسلمين.

الثانية: لا ملازمة بين المعصية والكفر، خصوصاً وأن المعصية من الكلي المشكك الذي يكون على مراتب متفاوتة قوة وضعفاً.

الثالثة: الكفر على أقسام ودرجات، وفي حديث جميلة بنت عبد الله زوجة ثابت بن قيس: إني أكره الكفر أي الزنا، ومنه (كفر النعمة وهو التقصير في الشكر)^(٣).

الرابعة: قوله تعالى (كان من الكافرين) خاص بإبليس وفضح له، وإخبار عن ماهية فعله، وفي هذا الإخبار ونزوله في القرآن إكرام لكل مسلم ومسلمة.

(١) سورة النبأ ١٩-٢٠.

(٢) ابن يعيش ١٠٢/٧.

(٣) العين ٤٧٢/١.

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿٢٦٣﴾

وقال الأشاعرة بان صاحب الكبيرة مؤمن.

وقال المعتزلة بخروجه عن الإيمان بالكبيرة ولكنه لا يدخل في الكفر.
والحكم بالكفر وعدمه على المكلف لا يأتي من هذه الآية وحدها،
ولعلها أجنبية عن نواميس الأرض وأحكام المكلفين.
(واستدل بعض المفسرين بهذه الآية على ان أفعال الجوارح من الإيمان،
فقال لو لم يكن كذلك لوجب ان يكون إبليس مؤمناً بما معه من المعرفة
بالله تعالى وان فسق بإبائه) .

والإمتثال أو عدمه أعم من فعل الجوارح.

ولكن الأمر متوجه الى إبليس ليبين مصداق طاعته بفعل الجوارح
واقعاً، وهو أمر يسبقه قبول ذهني وإستعداد للإستجابة او إباء وإستكبار
ذاتي يحول دون أدائه.

وعن الامام جعفر الصادق عليه السلام سأل عن الكفر والشرك أيهما أقدم؟
فقال: الكفر أقدم، وذلك ان إبليس أول من كفر ، وكان كفره غير شرك،
لأنه لم يدعُ الى عبادة غير الله، وإنما دعا الى ذلك بعد فأشرك.

آدم وإبليس

إبليس اسم مشتق من التحير والندم والإبتعاد عن الرحمة واليأس من
النجاة، والأرجح أنه عربي ، ولم يثبت خروجه عن عمومات قوله
تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(١)، وفي حياة الحيوان وكنية إبليس
أبو مرة.

وكان إسمه الحارث وبالعبرانية عزازيل، فلما صدرت منه المعصية
سُمي إبليس، وكان مع الملائكة ويمتاز بالإجتهد في العبادة.
وعن الامام علي عليه السلام (انه قد عبد الله في ستة آلاف سنة لا يدري أمن

﴿٢٦٤﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

سني الدنيا أم سني الآخرة^(١)، وقيل : وعلى هذا فلو كان من سني الآخرة لبلغ من السنين كثيراً.

ولكن مدة العبادة ذاتها أي ان مقدارها الزماني واحد بغض النظر عن كونها من سني الدنيا او الآخرة، فلا يمكن ان يكون الوعاء الزمني لفعل شخصي واحد طويلاً وقصيراً معاً لانه يلزم إجتماع التقيضين في موضوع متحد، وهناك تأمل ونظر قد يرد على جمع من المفسرين للإستدلال الذي ذهبوا اليه بان يوم القيامة هو المقصود بقوله تعالى ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾^(٢).

ولكن المقصود من عدم معرفة إبليس للوعاء الزماني لسجوده وعبادته مع تعيينه خارجاً، انه كان منقطعاً الى العبادة ولم يلتفت الى أحوال الزمان وتغيراته وانه كان في مأمن وإنشغال محترزاً بالتقوى والنسك لا ليالي بما يحدث حوله في مدة بقدر ستة آلاف سنة من سني الدنيا، وهو المتبادر للأذهان، وأصالة الظاهر.

وفي إبليس وهل كان من الملائكة أو لا، قالت طائفة انه من الملائكة، وإختلفوا في منزلته وعمله على وجوه:
الأول: كان خازناً للجنان .

الثاني: له سلطان السماء وسلطان الأرض.

الثالث: كان يسوم ما بين السماء والأرض.

وهل كون أصل إبليس من الجن هو علة عدم السجود أم انه ورد على سبيل النعت وبيان الاختلاف، وهل هناك من الملائكة أو ممن سجد معهم أصله من الجن ولكنه إستجاب لأمر الله تعالى في السجود لآدم والجن منهم الصالح ومنهم دون ذلك بخلاف الملائكة فليس فيهم إلا المطيع لله

(١) نهج البلاغة شرح محمد عبده ١٣٩/٢.

(٢) سورة المعارج ٤.

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿٢٦٥﴾
الصادع بأمره.

إن أصل السنخية ليس علة تامة لعدم السجود لآدم والإمثال لله تعالى، ولكنه فارق بينه وبين الملائكة وخصوصية لها إعتبار وأثر سلبي، وإختلاف السنخية والجنس بينهما له أثر في نوع الإستجابة، وإن الفرد من الجن وإن اجتهد في العبادة فإنه لا يرقى إلى منزلة الملائكة الروحانيين، نعم يمكن أن يصدق عليه أنه بذل الوسع واجتهد بالقياس إلى سنخيته وماهيته. لقد ذم الله عز وجل إبليس ووعده وبشره بالعذاب الأليم ونعته بالكفر بقوله تعالى ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ أي صار من الكافرين، والعرب تأتي ببعض هذه الأفعال مكان بعض إستعارة لما بينها من التقارب والتشابه في المعنى، ويتعلق الفعلان بالإنتقال من حال إلى حال، ومن الشواهد، ما ورد في التنزيل: ﴿وَقُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا * وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ (١).

إلا أن هذا لا يمنع من تفسير الآية على ظاهرها وأن الله تعالى يعلم أن هذه المعصية لها مقدمات في ذات إبليس، وكان الإمتحان بالسجود لآدم إستدراجاً له وإظهاراً لما يضره من الكفر والجحود.

لقد فتح إبليس باباً من الجحود والمعصية إتصل أثره ببني آدم على وجه الإفتتان والإبتلاء بالإغواء والمماثلة والمحاكاة السلبية من النفوس ذات الإستعداد للرديلة والمعصية.

وورد في الحديث أن إبليس كان بانياً على عدم السجود لآدم إذا دُعي إليه أثناء مدة تصوير آدم، أي أن نفسه كانت تنازعه بروح الإستكبار. ان في جحود وإستكبار إبليس حينما أمره الله بالسجود لآدم موعظة وعبرة للناس وإنذاراً من جهات:

﴿٢٦٦﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

الأولى: إجتنب المعصية وضرورة المبادرة الى الإستجابة لأمر الله تعالى قال تعالى ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾^(١)،.

الثانية: التحذير من كيد الشيطان ومكره وحيله وما يسعى اليه من إغواء بني آدم وإضلالهم بعد ان أكرمهم الله عز وجل وفضلهم.

الثالثة: إتخاذ الدعاء وسيلة مباركة للإحتراز من إبليس وجنوده، وعن معاوية بن أبي طلحة قال: كان من دعاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم : اللهم أعمر قلبي من وسواس ذكرك وأطرد عني وسواس الشيطان)^(٢)، وحكي إن إبراهيم بن أدهم قيل له: ما بالنا ندعو الله فلا يستجيب لنا؟ قال: لأنكم عرفتم الله فلم تطيعوه وعرفتم الرسول فلم تتبعوا سنته، وعرفتم القرآن فلم تعملوا بما فيه، وأكلتم نعمة الله فلم تؤدوا شكرها، وعرفتم الجنة فلم تطلبوها وعرفتم النار فلم تهربوا منها، وعرفتم الشيطان فلم تحاربوه ووافقتموه وعرفتم الموت فلم تستعدوا له، ودفتتم الأموات فلم تعتبروا بهم وتركتم عيوبكم واشتغلتم بعيوب الناس)^(٣).

ولا أصل لهذا القول وما فيه من الذم والتقييح وهو خلاف الإطلاق في قوله تعالى ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾^(٤)، وذات الدعاء لجوء إلى الله عز وجل، وسعي في سبل مرضاته إنما يؤخر الله عز وجل الإستجابة ليسمع إلحاح المؤمنين متفرقين ومجتمعين في السؤال والمسألة.

لقد إعتد إبليس القياس في أصل الخلقة وضل وأخطأ فيما بنى عليه قراره، ان أصل الخلقة الذي إتخذه علة للترجيح ذاته هو علة لترجيح وتفضيل آدم ان كان له أثر في التفضيل وهو الظاهر، لان النار التي خلق

(١) الآية ١٣٣ أنظر الجزء التاسع والثمانين الذي جاء خاصا في تفسير هذه الآية.

(٢) الدر المنثور ٤٠٢/١٠.

(٣) الكشف والبيان ٣٤٥/١.

(٤) سورة غافر ٦٠.

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿٢٦٧﴾

منها إبليس ترجع إلى الطين ولكن بالواسطة .

لقد شاء الله عز وجل ان يكون إبليس وإغواؤه باباً للإفتتان وسبباً للزلل، لمباشرة الآثام والذنوب، والتحصن منه والتصدي له سبيلاً الى الجنة، انه إمتحان الدنيا وميدان الصراع بين قوى الخير والصلاح من جهة وقوى الشر والسوء من جهة أخرى، وبتحدي إبليس والإعراض عنه وإظهار المواظبة على الطاعات إرتقاء للإنسان في عالم الملكوت.

ولم يكن هذا الصراع ثنائياً يقف في جانب منه الإنسان، وإبليس في الجانب الآخر، بل ان كفة الإنسان هي الأقوى لظهور العون والمدد الإلهي جلياً، ومنه آيات القرآن، ويان قبح فعل إبليس بإمتناعه عن السجود لآدم عليه السلام.

وعن البيهقي قال: إن ابليس قال يا رب إنك خلقت آدم وجعلت بيني وبينه عداوة فسلطني قال صدورهم مساكن لك قال رب زدني قال لا يولد لآدم ولد الا ولد لك عشرة قال رب زدني قال تجرى منهم مجرى الدم قال رب زدني قال إجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد .

فشكا آدم عليه السلام إبليس إلى ربه قال يا رب انك خلقت ابليس وجعلت بيني وبينه عداوة وبغضا وسلطته على وأنا لا أطيقه الا بك قال لا يولد لك ولدا الا وكلت به ملكين يحفظانه من قرناء السوء قال رب زدني قال الحسنه بعشر أمثالها قال رب زدني قال لا أحجب عن أحد من ولدك التوبة ما لم يغرغر والله أعلم^(١).

والغرغرة تردد الروح في الخلق.

لقد أمر الله عز وجل إبليس ان يسجد لآدم وهو يعلم انه لن يسجد ولو شاء تعالى ان يسجد إبليس لآدم لسجد، ولكن الله سبحانه أمره ولم

يشأ، انها إرادة عزم وليس إرادة حتم.

لقد أخطأ إبليس في إعتقاد الماديات وحدها في القياس، ولم يأخذ بنظر الإعتبار ما هو أسمى، مما يتعلق بالجواهر وعالم المجردات، ان آدم بشر أي جسم كثيف يحل في مكان ويياشر وينفعل بعكس الملائكة الروحانيين ذوي الأجسام اللطيفة، ولكن الروح حل به بقوله تعالى ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾^(١) انه عنوان تشريف وإكرام إضافي لآدم، لذلك ترى في الآية السجود يتعقب مباشرة نفخ الروح في آدم من غير تراخ.

لقد شاء الله عز وجل ان يكون آدم في أحسن تقويم مطلقاً أي لا يتعلق بالهيئة والصورة فقط بل انه شامل لماهية الإنسان وبديع صنعه ولا يزال العلم قاصراً عن تحديد معالم الإنسان من حيث الخلقة.

بالإسناد عن الإمام الصادق عليه السلام انه قال: أول من قاس إبليس قال: خلقتني من نار وخلقته من طين ولو علم إبليس ما جعل الله في آدم لم يفتخر عليه، ثم قال: ان الله عز وجل خلق الملائكة من نور وخلق الجن من النار، وخلق الجن صنفاً من الجن من الريح وصنفاً من الماء، وخلق آدم من صفحة الطين ثم أجرى في آدم النور والنار والريح والماء، فبالنور أبصر وعقل وفهم، وبالنار أكل وشرب، ولولا النار في المعدة لم تطحن المعدة الطعام، ولولا ان الريح في جوف بني آدم تلهب نار المعدة لم تلهب، ولولا ان الماء في جوف ابن آدم يطفئ حر المعدة لأحرقت النار جوف ابن آدم، فجمع الله ذلك في آدم لخمس خصال، وكانت في إبليس خصلة فافتخر بها^(٢).

(١) سورة الحجر ٢٩.

(٢) البحار ١١/١٠٢.

بحث بلاغي

في الآية حسن النسق وهو مجيء كلمات متتاليات معطوفات بينها تلاحم منتظم، كل واحدة منها لها معنى مستقل، وتستطيع بمفردها ان تعطي مفهوماً ودليلاً كافياً.

فابتدأت الآية بالإخبار عن قول الله للملائكة، وفيه شاهد على ان الله تعالى يكلم الملائكة، وهل يكلم أحدهم بالوحي وهو يخبر الآخرين ام ان الكلام من الله الى الملائكة جاءهم بعرض واحد جميعاً.

والأصح هو الثاني، للتباين بين نوااميس السماء ونوااميس الأرض، ولان الملائكة مقربون الى الله، وحتى آدم حينما كان في السماء ورد الكلام له من غير واسطة على الظاهر ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾^(١)، ثم جاء قوله تعالى ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ وفيه موضوع مستقل وأمر إلهي الى الملائكة خاصة بالسجود لآدم على نحو التعيين والعموم الإستغراقي المنبسط على الجميع بعرض واحد.

وفي الآية ما يسمى في الإصطلاح البلاغي "الجمع"، فالآية تجمع أشياء متعددة وعناوين متباينة في موضوع واحد تترتب عليه نتائج عديدة تفيد كلها حكماً واحداً.

وفيها نكتة كلامية وهي ان الجمع بين الإباء والإستكبار والنعت بالكفر مانع من إحتمال التأويل بالإشتباه والنسيان والغفلة ونحوها.

وقول الله تعالى ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ يدل على علمه تعالى بسنخية إبليس، وان هذه المعصية لم تكن مستغربة منه.

ومن وجوه علم الله الذي إحتج بها على الملائكة في المقام ﴿إِنِّي أَعْلَمُ

مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، تعلمون أمور:

الأول: نسخة إبليس وعناده ، ورد في المرسل عن السدي، عن حدثه، عن ابن عباس، قال: "كَانَ إِبْلِيسُ عَلَى مَلَائِكَةِ سَمَاءِ الدُّنْيَا فَاسْتَكْبَرَ وَهُمْ بِالْمَعْصِيَةِ وَطَغَى، فَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ: إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ" فِي نَفْسِ إِبْلِيسِ الْبَغْيُ^(١).

الثاني: علم الله من إبليس المعصية، وخلقها لها ، عن مجاهد .
ولكن علة خلق إبليس أعم من المعصية ، ولا دليل على هذا الحصر.
الثالث: كان من علم الله أنه سيكون من ذلك الخليفة رسل وأنبياء وقوم صالحون وساكن الجنة.

الرابع: تذكير الملائكة بقانون مستديم وهو علم الله بالغيب ، قال تعالى ﴿إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٢).

الخامس: وعن مجاهد، عن عبد الله بن عمرو، قال: "كَانَ الْجَنُّ بَنُو الْجَانِّ فِي الْأَرْضِ قَبْلَ أَنْ يُخْلَقَ آدَمُ بِالْفِي سَنَةِ، فَأَفْسَدُوا فِي الْأَرْضِ، وَسَفَكُوا الدَّمَاءَ، فَبَعَثَ اللَّهُ جُنْدًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ فَضَرَبُوهُمْ حَتَّى أَلْحَقُوهُمْ بِجَزَائِرِ الْبُحُورِ، فَقَالَ اللَّهُ لِلْمَلَائِكَةِ: "إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدَّمَاءَ" قَالَ: "إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ،

وَعَنِ الرَّبِيعِ، عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ، "فِي قَوْلِهِ: "إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً" إِلَى قَوْلِهِ "وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ"، قَالَ: خَلَقَ اللَّهُ الْمَلَائِكَةَ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ، وَخَلَقَ الْجَنِّ يَوْمَ الْخَمِيسِ، وَخَلَقَ آدَمَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فَكَفَرَ قَوْمٌ مِنَ الْجِنِّ، فَكَانَتِ الْمَلَائِكَةُ تَهْبِطُ إِلَيْهِمْ فِي الْأَرْضِ

(١) تفسير ابن حاتم ٨٦/١.

(٢) سورة البقرة ٣٣.

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿٢٧١﴾
فَتَقَاتِلُهُمْ، فَكَانَتْ الدِّمَاءُ بَيْنَهُمْ، وَكَانَ الْفَسَادُ فِي الْأَرْضِ، فَمِنْ ثَمَّ قَالُوا:
" أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا " كَمَا أَفْسَدَتِ الْجِنُّ وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ كَمَا
سَفَكُوا^(١).

السادس: قيل لابن عرفة الجواب { إني أعلم ما لا تعلمون } غير
مطابق (للسؤال) لهذا التفسير، قال : (سألوا عن جزأين) : وهما هل
يكون الخليفة مفسدا؟ وهل يكونون إذ ذاك هم يسبحون؟ فأجيبوا عن
الجزء الأول فقط^(٢).

ولكن الجواب أعم موضوعاً وحكماً ودلالة، وهو من فضل الله،
ويمكن إستقراء قانون كلي وهو أن الجواب يأتي من الله بالأعم من
السؤال وبما يغني في موضوعه إلى يوم القيامة ، بالإضافة إلى تأكيده في
منطوق ومفهوم آيات أخرى .

ومن مصاديق تعلق الدعاء بالملائكة مسائل :

الأولى: إن الله عز وجل يعلم الصلة والنسبة بين خلافة الإنسان في
الأرض وبين عبادة وتسبيح الملائكة.

الثانية: إن الله عز وجل سوف يأمر الملائكة للهبوط إلى الأرض مددا
لأمة مؤمنة لمحاربة الفساد .

الثالثة: تسبيح ودعاء الملائكة ينفع الناس في إجتثاث الفساد من
الأرض، وفي التنزيل ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ
بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً

(١) تفسير ابن حاتم ١/٨٢.

(٢) تفسير ابن عرفة ١/٦١ .

﴿٢٧٢﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع
وَعَلَّمَا فَافْغَرِ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١﴾ ، وفيه شاهد بأن
الملائكة يقرون بوجود أمة مؤمنة في الأرض ، وأن باب المغفرة مفتوح
للناس بفضل الله .

الرابعة: يعلم الله المدد الذي يتفضل به على الإنسان في منازل
الخلافة ، وعندما هجم المشركون على يثرب لإرادة قتل النبي محمد صلى
الله عليه وآله وسلم وقتل أو أسر أصحابه بجيوش عظيمة يوم بدر وأحد
والخندق ، تفضل الله عز وجل بانزال الملائكة لنصرته والمؤمنين ، وهزيمة
الكفار ، قال تعالى ﴿بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدُكُمْ
رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّن الْمَلَائِكَةِ﴾ (٢) .

الخامسة: جدارة الإنسان للخلافة في الأرض بلطف وفضل من الله .
السادسة: إقبال الملائكة على المؤمنين بالتحية والإكرام والثناء ابتداء
من ساعة الموت كما في قوله تعالى ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ
يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ (٣) ، وتتلقى خزنة الجنة من الملائكة المؤمنين بالسلام ،
وتدخل عليهم من كل باب ، وفي التنزيل ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى
الدَّارِ﴾ (٤) .

السابعة: هل صعود الإنسان إلى الكواكب في هذا الزمان من علم الله
الذي إحتج به على الملائكة يوم خلق آدم ، أم أنه خارج بالتخصص أو

(١) سورة غافر ٧ .

(٢) سورة آل عمران ١٢٥ .

(٣) سورة النحل ٣٢ .

(٤) سورة الرعد ٢٤ .

معالم الإيمان / الجزء السابع ————— ﴿٢٧٣﴾
التخصيص بلحاظ أن القدر المتيقن هو خصوص شخص آدم وموضوع
خلافة الإنسان في الأرض.

الجواب هو الأول فإن الله عز وجل يخبر الملائكة بأن الإنسان سوف
يصعد إلى السماء، وهذا الصعود على قسمين:

الأول: الصعود بالمعجزة والفضل من الله، كما في إسرائ النبي محمد
صلى الله علي وآله وسلم بقوله تعالى ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ
لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾^(١)، وصحيح أن موضوع
الآية أعلاه هو الإسرائ بالنبي في الليل إلى المسجد الأقصى إلا أن القرآن
يفسر بعضه بعضا، إذ جاء بالإخبار عن صعود النبي محمد صلى الله عليه
وآله وسلم في طبقات السماء العليا ووصوله إلى شجرة المنتهى، قال
تعالى ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ۖ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾^(٢).

بالإضافة إلى أن السنة النبوية بيان للقرآن وقد جاءت الأحاديث
النبوية المستفيضة التي تؤكد عروج النبي في السماء بيدنه وروحه وهو
الذي يدل عليه لفظ العبودية في قوله تعالى ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى
بِعَبْدِهِ﴾.

وعن زر بن حبیش قال: أتيت على حذيفة بن اليمان وهو يحدث، عن
ليلة أسري بمحمد صلى الله عليه وسلم، وهو يقول: "فانطلقنا حتى أتينا
بيت المقدس". فلم يدخله. قال: قلت: بل دخله رسول الله صلى الله
عليه وسلم ليلتئذ وصلى فيه. قال: ما اسمك يا أصلع؟ فإني أعرف

(١) سورة الإسراء ١.

(٢) سورة النجم ٨-٩.

﴿٢٧٤﴾ _____ معالم الإيمان / الجزء السابع

وجهك ولا أدري ما اسمك؟ قال: قلت: أنا زر بن حبیش. قال: فما علمك بأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صلى فيه ليلتئذ؟ قال: قلت: القرآن يخبرني بذلك. قال: من تكلم بالقرآن فليج، اقرأ.

قال: فقلت: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى} قال: يا أصلع، هل تجد "صلى فيه"؟ قلت: لا. قال: والله ما صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلتئذ، ولو صلى فيه لكتب عليكم صلاة فيه، كما كتب عليكم صلاة في البيت العتيق، والله ما زايل البراق حتى فتحت لهما أبواب السماء، فرأيا الجنة والنار ووعد الآخرة أجمع، ثم عادا عودهما على بدئهما. قال: ثم ضحك حتى رأيت نواجذه. قال: وتحدثوا أنه ربطه لا يفر منه، وإنما سخره له عالم الغيب والشهادة. قلت: أبا عبد الله أي دابة البراق؟ قال: دابة أبيض طويل هكذا، خطوه مد البصر^(١).

وقد لا تكون هناك ملازمة بين صلاة النبي في بيت المقدس ليلة الإسراء في حال وقوعها وبين فرضها على المسلمين، وتمت بمعجزة وربما يستدل بقوله تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾^(٢)، ولكن أداء الصلاة أعم من الوجوب فيشمل الندب، ووجوب الصلاة في البيت من عمومات قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾^(٣)، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: خذوا عني مناسككم^(٤).

(١) تفسير ابن كثير ٢١/٥.

(٢) سورة الأحزاب ٢١.

(٣) سورة آل عمران ٩٧.

(٤) البحار ١٠٧/١٠٨.

معالم الإيمان / الجزء السابع _____ ﴿٢٧٥﴾

الثاني: صعود رواد الفضاء وغيرهم بالعلم المكتسب والسعي
الدؤوب والثورة الصناعية والتقنية وهو أمر لا يعلم صدوره من الإنسان
في تحصيل العلوم وكونه خليفة يتتبع منها الإنتفاع الأمثل إلا الله عز
وجل.



الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٣	المقدمة	١٥	التفسير الذاتي
٦	قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾	١٨	من غايات الآية
٦	الأعراب واللغة	١٨	التفسير
٧	في سياق الآيات	١٨	قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾
٨	إعجاز الآية	٢٤	قوله تعالى ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾
٩	الآية سلاح	٢٥	بحث فلسفي
١٠	مفهوم الآية	٢٧	قوله تعالى ﴿فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾
١١	الآية لطف	٢٨	قوله تعالى ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾
١٢	إفاضات الآية	٢٩	بحث كلامي
١٢	الصلة بين أول وآخر الآية	٣١	قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ..﴾

الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٣١	اللغة والإعراب	٧١	قوله تعالى ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَتُقَدِّسُ لَكَ قَالَ﴾
٣٦	إعجاز الآية	٧٦	قوله ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾
٣٩	الآية سلاح	٧٧	سجود الملائكة
٤٠	الآية لطف	٩٠	قوله تعالى ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾
٤٢	مفهوم الآية	٩٠	الإعراب واللغة
٤٤	إفاضات الآية	٩٤	في سياق الآيات
٤٥	الصلة بين أول وآخر الآية	٩٧	إعجاز الآية
٤٨	التفسير الذاتي	١٠٠	الآية سلاح
٥١	من غايات الآية	١٠١	الآية لطف
٥٣	التفسير ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾	١٠٤	مفهوم الآية
٦٤	علم المناسبة	١٠٧	إفاضات الآية
٦٥	بحث بلاغي	١٠٩	الصلة بين أول وآخر الآية
٦٦	قوله تعالى ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾	١١١	التفسير الذاتي
٧٠	بحث بلاغي	١١٣	من غايات الآية

الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١١٤	التفسير	١٦٦	قوله تعالى ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾
١١٤	قوله تعالى ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ	١٦٦	الإعراب واللغة
١١٥	خلق آدم	١٦٨	في سياق الآيات
١٢٠	قال تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾	١٧١	إعجاز الآية
١٢٤	صفة آدم	١٧٣	الآية سلاح
١٢٩	بحث أصولي	١٧٤	مفهوم الآية
١٣٥	في سياق الآيات	١٧٥	إفاضات الآية
١٣٩	فضل العلم	١٧٦	الصلة بين أول وآخر الآية
١٥١	قوله تعالى ﴿كُلُّهَا﴾	١٨٢	التفسير الذاتي
١٥٢	علم المناسبة	١٨٣	من غايات الآية
١٥٥	قوله تعالى ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾	١٨٥	التفسير
١٥٨	قوله تعالى ﴿فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾	١٨٥	قوله تعالى ﴿سُبْحَانَكَ﴾
١٦٠	قوله تعالى ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾	١٨٧	قوله تعالى ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾
١٦٣	آدم والملائكة	١٨٩	بحث بلاغي

الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١٨٩	قوله تعالى ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾	٢٠٨	الصلة بين أول وآخر الآية
١٩٠	بحث روائي	٢١٢	التفسير الذاتي
١٩١	قوله تعالى ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾	٢١٥	من غايات الآية
١٩١	الإعراب واللغة	٢١٦	التفسير
١٩٣	في سياق الآيات	٢١٦	قوله تعالى ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾
٢٠١	إعجاز الآية	٢١٨	بحث كلامي
٢٠٣	الآية سلاح	٢١٩	علم المناسبة
٢٠٤	مفهوم الآية	٢٢٠	قوله تعالى ﴿فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾
٢٠٦	الآية لطف	٢٢٢	قوله تعالى ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾
٢٠٨	إفاضات الآية	٢٢٤	قوله تعالى ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾

الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٢٢٥	بحث بلاغي	٢٤١	التفسير الذاتي
٢٢٧	قوله تعالى ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾	٢٤٥	من غايات الآية
٢٢٧	الإعراب واللغة	٢٤٧	التفسير
٢٢٨	في سياق الآيات	٢٤٧	قوله تعالى ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا﴾
٢٣٣	إعجاز الآية	٢٥١	قوله تعالى ﴿فَسَجَدُوا﴾
٢٣٤	الآية سلاح	٢٥٥	قوله تعالى ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ﴾
٢٣٤	الآية لطف	٢٦١	قوله تعالى ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾
٢٣٦	مفهوم الآية	٢٦٢	آدم وإبليس
٢٣٨	إفادات الآية	٢٦٨	بحث بلاغي
٢٣٩	الصلة بين أول وآخر الآية	٢٧٥	الفهرس